روايات مصرية للجيب

أسطورة أرض أخرى

ما وراء الطبيعة

٨

ما قبل المقدمة

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل)، الذى صدع رءوسكم بذلك التقرير المختص عن نفسه، فى بداية كل قصة من قصصه التى لا تنتهى ..

على أننى لا أستطيع حقًا أن أقاوم تلك اللذة الخبيثة فى أن أكرر ما قلته قبلًا : إننى أستاذ أمراض دم سابق .. وشيخ على حدود الأبدية ..

وصائد أشباح غير محترف - وبالطبع - غير متزوج ..

اليوم - وكما عوّدتكم - سأحكى لكم قصة أخرى ..

أسمعكم تتساءلون عن المسخ الذى سأقابله هذه المرّة .. هل هو (نوسفيراتو)، أم هو رجل الجليد المفزع، أم (فرانكنشتاين) ؟.. كلّا يا رفاق .. اليوم لن يكون هناك رعب ولا مومياوات ولا حتى مصاصو دماء ...، فقط مغامرة من نوع جديد .. مغامرة لم يكن لى أى دور فيها ولا فضل .. وإنما حكاها لى صديق جديد .. وأوصانى أن أنقلها لكم دون تحريف ..

(سالم محمد شحاته) .. هل تعرفونه ؟.. بالطبع لا ..

إنه رجل عادىّ إلى حدّ لا يُوصف .. رجل تلقاه فى الشقة المجاورة، والمكتب الملاصق لك، وفى الحافلة، وعلى محطة القطار .. لكن هذا الرجل يختلف لأن له سرًا صغيرًا .. سرًا لا يعلمه أحد ولا يتخيله ..

لقد جاء لمكتبى .. وفى خجل شديد ناولنى رزمة من الأوراق مكتوبة بخط يد ردىء .. وأوصانى أن أقرأها وأن أتبنى نشرها إذا ما راقت لى ...

وفى المساء بدأت أدخل عالم (المرآة المسحورة) .. انغمست تمامًا بين السطور .. ونسيت أن آكل أو أشرب أو أنام .. إن هذا الشاب الذى تقتحمه العين هو ... هو ... كلا .. لن أقولها ...

إنها لقصة غير عادية، وإننى لأوثر أن أنسحب تاركًا لكم المجال كى تعيشوا الأحداث مع (سالم) هذا ... إنها لخبرة جديدة تضاف لرصيد خبراتى ..

ولا يعنينى ما إذا كانت قصته واقعًا أم خيالًا ...

إنها مشوقة .... وهذا يكفينى !!

مقدمة طويلة نوعًا

أول الشهر .. يوم الرواتب فى كل زمان ومكان ..

أدخل من باب الإدارة متعجلًا ممتقع الوجه .. كلما لاقيت موظفًا نظر لى فى هلع وإشفاق، نظرته إلى مجرم يصعد فى سلالم المشنقة .. ثم يقول لى محاولًا أن يبدو طبيعيًا (وهو ما يزيد الأمر سوءًا) :

ـ (سالم) .. المدير ينتظرك فى المكتب ..

لقد تأخرت ـ بسبب سهرى المفرط ـ أكثر من ساعة عن موعد الحضور .. فالويل لى إذن!..

وهناك جوار مكتب الصراف، يقف عدد كبير من الموظفين والفنيين العاملين فى دار النشر التى أعمل بها ..إنهم مجموعة مألوفة، ولابد أنك تعرفهم جميعًا .. كلهم ينتظرون رواتبهم ..

(نور الدين) و (سلوى) يتهامسان مع ابنتهما (نشوى) .. بينما بعض وحوش المشترى وعطارد العاملة فى سلسلة (نوفا) تزأر بشكل مفزع ..

رجل المستحيل ـ (أدهم صبرى) ـ واقف يتبادل عبارات غاضبة مع (دونا كارولينا) .. وما إن رآنى حتى أشرق وجهه الوسيم وهتف :

ـ كيف حالك يا (سالم) ؟.. المدير ينتظرك ..!

ثم داعب خصلات الشعر الأشيب على فوديه .. وهمس :

ـ إنه ينوى خراب بيتك !..

وفى هذه اللحظة صرخ رجل أخضر فى عصبية :

ـ أيها الأرضيون القذورن .. أنا الأرشيدوق (شاسا) قائد أسطول الفضاء المريخى، آمركم بأن تفسحوا لى الطريق .. أريد راتبى !..

انفعل (نور الدين) ومدّ يده لمسدس الليزر صائحًا :

ـ ولماذا لا تنتظر دورك مثلنا أيها المريخى المتعجرف ؟!

مدّ الأرشيدوق (شاسا) يده إلى سيف الليزر .. ولوح به لامعًا مرعبًا فى وجوهنا .. وصاح :

ـ تعال ذق هذا ما دمت شجاعًا !..

وبدأت الأعصاب تتوتر .. وأيقنت أن مذبحة ستحدث هنا، خاصة وأن وحوش المشترى الهلامية بدأت تتوتر وتتحفز للقتال .. وحين تثور هذه لن تعرف أبدًا مع من وضد من تقاتل .. إنها تلتهم كل شىء، حليفًا كان أو عدوًا .. مكتبًا كان أو مطفأة سجائر ..

وهنا برز رأس المدير من باب غرفته، وصاح فى حزم :

ـ ما هذه الضوضاء ؟.. لا أريد غوغاء ها هنا !

وعلى الفور ساد الصمت وهدأت النفوس، كأنما بعصا ساحر .. فالواقع أن كل هؤلاء ـ حتى وحوش المشترى ـ يرغبون فى قبض رواتبهم !.. وليس منهم من يتحمل تلقى خطاب الإقالة أو الخصم ..

ـ وأنت يا (شاسا) و (نور الدين) .. أعيدا أسلحة الليزر ولا تنسيا أنها عُهدة، وأن من يفسد شيئًا يدفع ثمنه !..

هزّ الأرشيدوق (شاسا) رأسه فى ذلة، وأعاد سيف الليزر إلى غمده .. فمرتبه لمدة عشرين سنة لن يكفى لشراء سيف ليزر آخر ..!

وهنا حدثت الكارثة ..

التفت لى المدير .. وقال فى هدوء :

ـ وأنت .. تعال !!

أفسح لى الواقفون الطريق، وعيونهم تنطق بالحسرة .. لسان حالهم يقول : تشجع أيها البائس ..

دخلت المكتب فى صمت، على حين استرخى المدير على كرسيه .. وعقد يديه فوق صدره وتنهد .. ثم قال :

ـ حسن ..!

ابتسمت فى حرج مقاومًا رغبة جامحة فى الفرار .. فواصل الكلام :

- والآن هو ذا (سالم شحاتة) الكاتب الشاب الذى يعمل معى منذ عام .. ويأخذ راتبًا مجزيًا .. من أجل ماذا ؟

وأخرج كراستين من درج المكتب ألقاهما أمامى قائلًا :

- القصة الأولى تدور حول رجل يخترع آلة زمن، يرحل بها إلى الماضى والمستقبل، حيث البشر منقسمون إلى طبقتين : طبقة كادحة تعمل تحت الأرض، وطبقة مترفة تعمل فوق الأرض .. هل هذه فكرتك ؟

قلت فى فخر :

- طبعًا .

هزَّ رأسه فى قنوط، قائلًا :

- حسن .. هناك كاتب إنجليزى اسمه (هربرت جورج ويلز) يزعم أنه هو مؤلف القصة الأصلى ..

صحت فى عصبية وقد صعد الدم إلى رأسى :

- لصّ !.. إنه لصّ !.. لقد سرق فكرتى الرائعة !.. سأقاضيه !

قال فى برود :

- إنه كتبها قبلك بأكثر من مائة عام ..!

- ..... !

ومدَّ يده إلى الكراسة الثانية وشرع يقرأ :

- القصة الثانية تتحدث عن رجل يبيع رأسه مقابل الثراء والمجد الفنى .. ألا تجد أنها نسخة طبق الأصل من قصة (الرجل الذى باع رأسه) لأديبنا العظيم د . (يوسف عز الدين عيسى) ؟!

وأشعل سيجارًا بقداحته .. واستطرد :

- هكذا ترى يا أخ (سالم) أن الموقف يعكس ثلاثة أشياء .. أوّلًا أنك غبى إذ تفترض أن أحدًا لا يعرف هذه الأعمال سواك .. ثانيًا أنك لص قصص محترف .. ثالثًا إذا افترضنا أنك لم تسرق هذه القصص، فأنت ساحر حقيقى ..

وأشار لى بالسيجار :

- وأنا لا أحب أن أعيّن الأغبياء أو اللصوص أو السحرة فى مكتبى ..! ، وبعد كل هذا ...

واحتقن وجهه :

- بعد كل هذا ....

وضرب المكتب بقبضته :

- بعد كل هذا، تجىء متأخرًا ساعة كاملة عن العمل ؟!

ابتلعت ريقى بصوت مسموع، ونظرت لحذائى .. ثم قلت :

- سيدى .. إن لدى أفكارًا أكثر أصالة .. فقط أعطنى الفرصة كى .. أنت تفهمنى ...

نظر لساعته فى سأم .. وغمغم :

- أعطيك ثلاث دقائق لتقول ما عندك .

قلت متلعثمًا محاولًا ترتيب أفكارى :

- عندى فكرة عن رجل له شخصيتان، إحداهما خارقة للعادة، والأخرى ضعيفة خجول .

- وحبيبته تنفر من الخجول وتحب الخارقة .. مثل (سوبرمان) !.. الصحفى (كلارك كنت) .. هه ؟..

مسحت قطرات العرق على جبينى .. وقلت :

- فكرة أخرى عن مخلوق فضائى يعيش على الأرض، ويتعرف حياة البشر، ويأمل فى العودة لموطنه .

- (إى - تى) ..!.. الفيلم السينمائى الذى شاهده الجميع سواك، أو هذا ماستحاول إقناعى به .

- إذن فكرة عن إدارة ما، بها مجموعة من الشباب، يحققون فى القضايا الغامضة .. و ..

- لقد قتلت هذه الفكرة .. هناك ألف قصة عن ألف إدارة بها ألف شاب من هذا النوع .. انتهت الدقائق الثلاث !

ورفع سماعة التليفون، وبدأ يطلب رقمًا ما .. وهو يغمغم :

- الحقيقة يا (سالم)، هى أنك كسول وعاجز وغير موهوب .. و ...

آلو ؟.. (مصطفى) ؟.. نعم .. كيف حالك ؟.. أرجو أن ترسل لى ملف (سالم شحاتة) حالًا ..!

صحت فى جزع :

- المشكلة أن القدماء قد فكروا فى كل شىء .. لقد سافروا فى قصصهم لكواكب أخرى، وغاصوا تحت الأرض وفى الأعماق .. عادوا للماضى وزاروا المستقبل .. لقد سلبونى كل شىء ..، المشكلة أننى جئت الدنيا متأخرًا بعد أن أتوا على مائدة الأفكار، فلم يبق لى سوى الفتات .

قلب كفه بمعنى أنه لايستطيع مساعدتى .. ثم قال برزانة :

- مهما كان رأيك .. دعنى أصارحك بشىء .. لو لم تأتنى بفكرة جديدة خلال ثمان وأربعين ساعة، ستجد نفسك فى مغامرة حقيقية .

- حقًا ؟.. شكرًا يا سيدى .. وما هى ؟

- .. مغامرة البحث عن طعام ..!!

وهكذا .. خرجت من مكتبه ورأسى يئز كخلية النحل، بصعوبة أتبين الوجوه من حولى .. (أدهم صبرى) يقول باسمًا :

ـ أعتقد أنك كنت موفقًا .. فلا توجد آثار دماء على ثيابك ..!

ويقول لى د . (رفعت إسماعيل) وهو ينظف نظارته :

ـ تشجع !.. لقد واجهت مواقف أشنع من هذه فى شبابى !..

أما أنا فلم أكن أعى حرفًا ..

* * *

١ ـ نسختى ..!

فكرة جديدة ..!.. فكرة جديدة ..!

عبثًا استعرضت مئات الأفكار الصالحة، لتبدأ سلسلة مشوقة دون جدوى .. حين تخطر لك فكرة رحلة فى عالم القصص الخرافية، تكتشف أن كاتبًا اسمه (لويس كارول) سبقك إليها، وكتب (اليس فى بلاد العجائب)، وحين تفكر فى كتابة قصة عن رحلة إلى قبائل مجهولة، بحثًا عن كنوز ما .. تدرك أن الأخ (رايدار هجارد) سبقك إليها، حين كتب (كنوز الملك سليمان) ..

لا جدوى ..

الباب يدق .. ويدخل (سيد) عامل المكتب، يبلغنى برسالة عجيبة :

ـ أختك تنتظرك بالخارج .

ـ همّم !.. وهل قالت إنها أختى ؟..

ـ كلا .. لكنها تشبهك بشدة ..

ـ هكذا .. الواقع أنه ليس لى أخوات ولا إخوة !..



ودعوتها للجلوس .. فجلست برشاقة ، وابتسمت .. حتى الابتسامة كانت بزاوية فمها اليسرى مثل ابتسامتى ! ..

ثم تنحنحت .. وسألته :

ـ هل هى جميلة ؟

ـ قلت إنها تشبهك بشدة !!

بحثت عن رد لاذع لإهانته فلم أجد .. طلبت منه أن يدعها تدخل ، وبعد ثوان دلفت من الباب فتاة ترتدى ثيابًا بسيطة جدًا .. والعجيب حقًا أنها كانت تحمل ذات ملامحى .. مع مسحة من الرقة الأنثوية طبعًا ، وإلا بدت مثل (فرانكنشتاين) ، وكانت أكبر سنًا منى بحوالى عقد كامل ..

ـ أستاذ (سالم) ؟

ـ أنا هو ..

ودعوتها للجلوس .. فجلست برشاقة ، وابتسمت .. حتى الابتسامة كانت بزاوية فمها اليسرى مثل ابتسامتى !..

ـ نهارك حليب ..!

تجاهلت تعبيرها الغريب ، الذى يعطى لمسة سوقية ما لا مبرر لها ، وفى رزانة سألت :

ـ أفندم .. هل ثمة خدمة أسديها إليك ؟!..

قالت وهى تعبث فى شرود ذهن بالأوراق على مكتبى :

ـ لا أدرى .. لا يوجد شىء ما أريده منك .. لكنى ..

وفكرت برهة .. ثم همست :

- .. لا أعرف مخلوقًا ولا مكانًا فى هذا العالم سواك .. أنت ملاذئ الوحيد .. هل تفهمنى ؟!..

آه ..!.. إذن القصة هى هكذا .. هذه الفتاة منبهرة بك يا أخ (سالم) .. ومن العجيب أنها لا تبدو راقية الذوق إلى هذا الحد .. إنها ليست سامية مرهفة الحس فحسب .. بل هى - ولابد - عبقرية أيضًا ..!

هززت رأسى فى حكمة، بمعنى أننى أفهم تمامًا ما تريد قوله .. فاستطردتْ :

- إنك تحتاج إلىّ هذه الأيام بالذات؛ لأنك ستطرد من العمل بعد أسبوع، ما لم تجد فكرة جيدة ..!

نهضت كالملسوع .. وسألتها :

- من قال هذا ؟

- لأننى أنا نفسى طردت فى نفس التاريخ، منذ عشر سنوات !

هذه الفتاة تهذى، أو أن وراءها سرًا لا أعلمه .. ما علاقة طردها بطردى ؟.. سألتها فى ريبة :

- هل تعنين أنك كنت تعملين هنا منذ عشر سنوات ؟

قالت فى هدوء مستفز :

- كلا .. كنت أعمل هنا ولكن فى عالمى ..!

- آه ..!.. هكذا فهمت !

واسترخيت فى مقعدى، لاعنًا يوم أتيت للدنيا، كى أتلقى توبيخ المدير، وأصغى لهذيان الفتيات المعتوهات .. كانت عيناها تتأملان الصور الملونة للقطط الصغيرة المبعثرة تحت زجاج مكتبى .. وابتسمتْ فى انتصار :

- آه !.. أنت تحب القطط الصغيرة ؟

- لم أعرف أن القانون قد حرّم ذلك .

اتسعت عيناها .. وقالت فى حماس :

- مثلى تمامًا .. وطبعًا تحب موسيقا (فيروز)، وتحب النوم حتى ساعة متأخرة، وقراءة الجريدة فى الحمام ؟!..

ملت نحوها برأسى فى ذهول .. موضوع الجريدة هذا .. هناك شىء غامض يحيط بهذه الفتاة .. شعور غريب يتملكنى ..

- وكذلك أنت جاف القريحة وعاجز عن الإبداع .. أليس كذلك ؟

- لحظة يا آنسة .. لو كنت قد جئت لإهانتى ..

- كذلك أنت تحب الأكل المتبّل .. وتفرط فى شرب القهوة .. وعندك قرحة معدية مزمنة .

- .... !

كنت هنا قد وصلت لمرحلة انعدام الوزن .. هذه الفتاة تعرف أدق خصوصياتى .. وتشبهنى إلى حدّ مرعب .. ولها عاداتى .. و...

قالت وهى تلمح آثار الغباء على وجهى :

ـ ألم تفهم بعد ؟..

ـ نعم .. نعم لا أفهم ..

ـ أنا هى أنت أيها الأحمق !

★ ★ ★

كنا جالسين أنا وهى فى ذلك المطعم الرخيص ، نتحدث عن ذلك الذى بدا لى كابوسًا غريبًا ... كانت تزدرد الطعام بشراهة (كعادتى) ، وتقول :

ـ .. هأنذى قد حكيت لك كل شىء عنك .. فأى إثبات تريد بعد ذلك ؟

قلت لها فى صبر ، وأنا عاقد أناملى تحت ذقنى ، وقد أفقدتنى كلماتها شهيتى إلى الأبد :

ـ دعينى أفهم مرة أخرى .. تقولين إنك من كوكب آخر .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .. كوكب (٤١٩ ـ أ) .. مجرة (تازما مالورى) ..

ـ وأن هذا الكوكب يشبه الأرض فى كل شىء ، فيما عدا اختلافات طفيفة ..

ـ .. لقد فهمتنى ..

ـ .. وأنك أنت صورتى الكروموسومية على كوكبكم .. يعنى أننى على كوكبكم أنثى ، وعلى الأرض ذكر .. ولهذا اسمى (سالم) واسمك (سلمى) ..

ـ إنك فهمت كل ما قلته ..

ـ .. وتتوقعين منى أن أصدق كل هذا ..!

ـ هذا شأنك ..

ـ وكيف تأتى أنك تعرفين ما سيحدث لى ؟.. هل التنبؤ بالمستقبل متاح لسكان كوكبكم ؟

قالت وهى ترشف كوب الماء بعد الأكل (كعادتى) :

ـ كلا .. لا يستطيع بشر أن يتنبأ بالمستقبل .. كل ما هنالك أننا نسبقكم بسنوات عشر .. أى أننا فى عام ٢٠٠٣ الميلادى على كوكبى ... وهكذا فإن أكثر ما سيحدث لك فيما بعد ، مرّ بى أنا ... لقد طردت من عملى فى مثل هذه الأيام منذ عشر سنوات ..!

ـ وطبعًا لم تموتى جوعًا ..

ـ دنوت من ذلك كثيرًا !

ـ وماذا فعلت بعد طردك ؟..

تنهدت فى تعب وقالت :

ـ التحقت بهيئة بحوث كبرى ، وبدأت أدرس الإلكترونيات ، وصرت باحثة لا بأس بها .. أطلب لنا القهوة أرجوك ، فأنا مدمنة قهوة ..

طلبت لها ما أرادت ... ثم قلت :

ـ لا أعتقد أن عقلى سيستوعب الإلكترونيات ولو بعد قرنين ..

ـ كان هذا هو مصيرى، وربما أن مصيرك يختلف .. ثمة العديد من الاختلافات كما قلت لك ..

ـ وكيف وصلت إلىّ ؟

ـ حين وصلت لهذا الكوكب، وجدت نفسى قريبة من مكان عملى القديم، لهذا ذهبت هناك بحثًا عن (نسختى) الكرموسومية .. قال لى العامل إن هناك موظفًا فاشلا اسمه (سالم) .. لم أحتاج لعبقرية خاصة كى أعرف من هو (سالم) هذا ..

ما إن أنهت كلامها حتى طلبت منها النهوض ..

ـ إلى أين ؟

ـ ستعرفين فيما بعد ..

ـ والقهوة ؟..

ـ ششش ..!

★ ★ ★

إلى صديقى القديم فى مصلحة الطب الشرعى ـ د. (عدنان) ـ ذهبنا، وكان على وشك الانصراف حين طلبت منه خدمة استثنائية .

طلبت منه أن يأخذ بصماتى وبصماتها، وقطرة من دمى وقطرة من دمها، ليرى مدى تطابقهما..

لم يفهم ما أريد، لكنى كنت لحوحًا مما جعله يقتنع .. أو لعله ظن أننى والفتاة مقبلان على الزواج، ونبغى نوعًا من (الاستشارة الوراثية) ..

وفى الشارع وقفت والفتاة حائرين .. ثمة مشكلة بسيطة لكنها بلا حل .. أين تمضى الفتاة ليلتها ؟.. إننى أحيا وحدى، فليس من الملائم أن أستضيف فتاة حتى ولو كانت من الكوكب (٤١٩ـ١) .. مجرة (تازما مالورى) !

وبرغم غيظى منها، وشكى فى أمرها، إلا أن نظرة الحيرة والرعب الصادقة فى عينيها، جعلتنى أقرر أنها مسئوليتى برغم كل شىء ..

وهكذا أخذتها إلى حيث أسكن ..

ـ ألم تتعرفى على البناية ؟

ـ نعم .. فى كوكبى أعيش فى دار سكنى الباحثات بهيئة (الإلكترونات التكنولوجية) ..

صعدنا الدرج إلى شقة جارتى مدام (عواطف) ...، فتحت لى السيدة الطيبة الباب، فأشرق وجهها حين رأت من حسبتها شقيقتى ..!

ـ ليست شقيقتى بل ابنة خالتى ..

ـ سبحان الله .. تكاد تكون نسخة منك !

ـ حسن .. لقد وصلت ابنة خالتى للقاهرة اليوم، فى زيارة لصديقة لها .. فلم تجدها .. ولما كان الوقت متأخرًا ..

ـ طبعًا .. طبعًا .. ستنام الليلة مع (هدى) ابنتى .. لا تقلق عليها ..

وقبل أن تدخل (سلمى) الباب همست فى أذنها :

- ولاكلمة عن مجرة (تازما مالون) هذه ..

قالت مصححة فى كبرياء .

- (تازما مالورى) ..

- حسن .. حسن .. ولا كلمة، وإلا وجدت نفسك فى مكان يضم زملاءك من القادمين من مجرات أخرى ..!

وما إن دخلت حتى هززتُ رأسى محييًا السيدة الفاضلة، وصعدت لشقتى كى أغفو بضع ساعات أنسى فيها كل هذا ..

* * *

فى الحادية عشرة مساءً، أخذ جرس الهاتف يدق فى غرفتى، فى هستيريا ولهفة ..

رفعت سماعة الهاتف، لأسمع صوت د. (عدنان) الملهوف المذهول :

- (سالم) .. هل حدث خلط بين عينتك، وعينة الفتاة .. أو تكرار مثلًا ؟

- أولًا .. مساء الخير .. ثانيًا لم يحدث .. لقد تم الأمر بمعرفتك ..

- إذن ثمة معجزة فى الأمر .. إن البصمتين تتطابقان تمامًا .. أول بصمتين تتطابقان فى تاريخ الطب الشرعى كله، والأدهى أن كروموسومات الدم متماثلة تمامًا ..، فقط عينة بها جسيم (بار) بمعنى أنها عينة أنثى .. لقد أصابنى الذهول، فطلبت إجراء اختبار توافق الأنسجة، على ما نسميه (المستضد البشرى للخلايا البيضاء) .. هل عندك فكرة عن الموضوع ؟

- بتاتًا .. اعتبر أنك تحدث حمارًا ..

- حسن .. هذا أنسب .. بدون تفاصيل يوجد تطابق نسيجى بنسبة ١٠٠٪ بين العينتين .

- ومعنى هذا ؟..

قال وقد اكتسب صوته رنينًا مرعبًا :

- معناه أنك ـ أنت وتلك الفتاة ـ شخص واحد !!

* * *

٢ ـ أرض أخـــرى ..

فى الصباح وجدتها واقفة أسفل سلم العمارة، تنتظرنى مشرقة الوجه، وقد عقصت شعرها، فبدت كطفلة تنتظر أباها للذهاب للمدرسة ..، وكنت أنا منتفخ الوجه عكر المزاج، بسبب الأرق طيلة الليل ..

ـ نهارك حليب ..!

ـ ما هذه الكلمة ؟.. لماذا لا تقولين (صباح الخير) كالآخرين ؟

ـ فى كوكبى لانقول سوى (نهارك حليب) ..

ـ كلمة مستفزة حقًا ..

وركبنا الحافلة .. واضح أن الحافلات فى كوكبها مزدحمة مثل حافلاتنا، لأنها لم تبدُ مندهشة .. وحين مرّ المحصل، مدت يدها إلى حقيبتها لتدفع لنا، لولا أن أوقفتها نظرة حازمة من عينىّ .. ودفعت له أنا .. كانت توشك أن تعطيه ورقة من عملاتهم، زرقاء اللون، عليها نصب تذكارى عجيب !!..

همست فى أذنى وقد فهمت ما هنالك :

ـ معذرة .. دائما ما أنسى أن العملات غير واحدة فى كوكبينا .

مضت الحافلة تتمايل وتهدر، حتى وصلت إلى وجهتنا حديقة الحيوان !.. نعم .. فأنا لاأستطيع تركها عند جارتى، ولا أخذها للعمل، لذا قررت أن آخذها لمكان يمكننا الكلام فيه دون رقباء .. ثم إننى سأطرد ـ كما تقول هى ـ بعد أسبوع، فلا ضير من يوم نقضيه فى مرح، أنا الذى لم أر حديقة الحيوان منذ خمسة عشر عامًا ..

وهنالك جلسنا نطعم الدببة بالفـول السودانـى، ونتحدث ..

قلت لها وأنا ألتهم بعض الفول :

ـ على فكرة ..

ـ همم ؟

ـ اتصل بى د. (عدنان) أمس، وأكد لى ما قلته .

ـ وهل شككت لحظة ؟

ـ ضعى نفسك مكانى !

بدأت تحكى لى قصة حياتها، وهى تشابه قصة حياتى من وجوه عديدة .. سألتها عن سبب اختلاف جنسينا، فقالت إن تشابه الكوكبين لايمكن أن يكون مطلقًا .. إن الأمر كله يتوقف على كروموسوم الذكورة (واى)، إذا وصل البويضة أوّلا جئت أنا ذكرًا، وإذا وصل الكروموسوم (إكس) أوّلا جئت أنا أنثى ..



لذا قررت أن آخذها لمكان يمكننا الكلام فيه دون رقباء ...

ـ وكيف خطر لأبوينا أن يسميانا نفس الأسماء .. (سالم) .. (سلمى) ؟

ـ قد تكون صدفة ، وقد لا تكون ... لماذا يختار الأبوان اسمًا ما ؟.. إنه خلاصة تجاربهما وبيئتهما وثقافتهما .. فإذا تساوت هذه المعايير على كوكبك وعلى كوكبى ، فإن هناك احتمالًا لابأس به ، أن يختار كلا الأبوين نفس الاسم ..

هززت رأسى .. وناديت بائع الجرائد ، واشتريت منه جرائد اليوم .. فسمعتها تبدى دهشتها من أن عناوين الجرائد مختلفة البنط واللون عن جرائد كوكبها ، وشرعت تمرر إصبعها على الأخبار فى شغف ..

ثم التفتت إلىّ وقالت إن معها فى حقيبتها جريدة من عالمها .. فلماذا لا أتصفحها على حين تتصفح هى جريدتنا ؟.. أخرجت من الحقيبة جريدة عجيبة اسمها (المجد) تاريخها ١٤ محرم سنة ١٤٢٣ ..... أرجو ألا يرانى أحد وأنا أقرؤها ..

أخبار غريبة جدًا ..

«أسطول (أ.ع.م) يجرى مناورات فى المحيط الأطلسى ..

(تايلاند) تعزز قواتها فى الصين المحتلة ..

بركان (الإسكندرية) يجدد ثوراته ..

جمهورية (كاليفورنيا) تشكو فى مجلس الأمن الأعمال العدوانية التى تمارسها جمهورية (فرجينيا) ..

هبوط فى بورصة الولايات الأمريكية الجنوبية المتحدة .. » .

أصابنى الدوار والذهول من كل هذا الخلط .. وكانت (سلمى) فى حال أسوأ .. قلت لها مبتلعا ريقى :

ـ ما معنى هذا الهراء ؟.. (تايلاند) تحتل (الصين) ؟ بركان فى (الإسكندرية) ؟

ـ وهو السخف ؟.. لا توجد عندكم (أ.ع.م) ؟

ـ وما هى ؟.. إلامَ ترمز هذه الحروف ؟

ـ .. (أمة عربية متحدة) .. فى كوكبى اتحدت الدول العربية منذ مئتى عام، مكونة وحدة كونفيدرالية هائلة .. قوة اقتصادية وطاقة بشرية وتقدم تكنولوجى لا يستهان به ... إن أساطيلنا الجوية والبحرية تسيطر على نصف العالم ..

ـ والقوة الأخرى ؟

ـ هى اتحاد جنوب شرق آسيا (نادى النمور) ...، ثم هناك قوة أخرى هى (الولايات المتحدة الأمريكية الجنوبية) وهى تثير الهلع فى قلوب جاراتها الضعيفات، مثل جمهورية (أوهايو) ومملكة (بنسلفانيا) وسواها ..!

أخفيت ضحكتى الهستيرية المريرة، على الصورة الكاريكاتورية التى ترسمها لى، وسألتها بجدية :

ـ وعاصمتكم ؟.. هل هى (القاهرة) ؟

ـ فى (أ.ع.م) توجد ثلاث عواصم .. (دمشق) .. (القاهرة) .. (الرباط) .. تدير كل واحدة شئون الولايات المحيطة بها مع التنسيق التام ..

سألتها وأنا أشعر أن أحدنا مخبول :

ـ وكيف، ولماذا جئت عالمنا ..؟

قالت وهى تهز حذاءها بعصبية :

ـ د . (محمود بكر)، وهو عالم فيزياء فى كوكبى، توصل إلى اختراع جهاز اسمه (ناقل الجزيئات) .

ـ (تيليترانسبورتر) ؟.. أليس هذا ما تعنين ؟

قالت فى كبرياء :

ـ لماذا تستخدم مصطلحًا لاتينيًا ؟.. قلت لك إن مخترعه عربى ..

ـ معذرة .. فكل قصص الخيال العلمى عندنا تستعمل هذا المصطلح ..

قالت :

ـ يقوم هذا الجهاز بتحويل جزيئات الجسم إلى طاقة يتم إرسالها بسرعة تفوق سرعة الضوء، إلى أى مكان، لتعود لحالتها هناك ... وهذا هو الحل الوحيد والممكن لارتياد المجرات الأخرى بالنسبة لكائنات فانية مثلنا ..، أبدًا لن توجد سفينة فضاء قادرة على هذه المهمة .. لكن هناك مشكلة .. يجب أن يشابه الجـو الأيونـي للكـوكب (المستقبل)، نفس الجو الأيونى للكوكب (المرسل)، حتى نضمن ألا يتغير شكل الجزيئات بعد الرحلة المريعة ..

ـ فهمت .. لا تريدون المخاطرة بإرسال إنسان إلى مجرة أخرى، يتحول عند الوصول إليها إلى دستة من مشابك الغسيل ..!

ـ بالفعل .. لكن الكون كبير .. وهناك مئات المجرات تشبه مجرتنا، بها عشرات الشموس التى تشبه شمسنا، حولها عشرات الكواكب التى لابد أن أحدها قد مرّ بنفس ظروف كوكبنا .. وبالتالى ..

قاطعتها فى حماس وقد اقشعرّ جلدى رهبة:

ـ هناك عشرات الألوف من أرضكم .. أحدها هى أرضنا هذه !

ـ وهكذا فإنه يمكن إرسال الواحد منا ـ دون أدنى مخاطرة ـ إلى أرض موازية ... ولما كانت قد مرّت بنفس الظروف،

فإن هناك احتمالًا لابأس به أن تقابل نفس الوجوه .. وتسمع ذات الأسماء .. ونفس اللغات .. لكن هناك اختلافات عديدة كما فى حالتنا هذه ..

ـ مثير !!

ـ الأكثر إثارة هو أن الكواكب المتماثلة فى الظروف ليس لها نفس العمر .. فكما قلت لك هناك أرض تسبقكم بعشر سنوات هى أرضى .. هناك أرض أخرى لم تزل فى عصر الرومان .. وأرض فى عصر العباسيين .. وأرض فى العصر الباليوزى .. كل شىء ممكن ..

ـ مثل آلة الزمن .

ـ كلا .. ليس هذا هو مفهوم آلة الزمن .. قد تجد ماضيًا يختلف تمامًا عن أى ماض طالعته فى كتب التاريخ ..

ـ وهل (سأقابلنى) دائمًا فى كل كوكب من هذه ؟

ـ ليس بالضرورة .. قد لاتكون وُلدت بعد .. وقد تكون مُتّ من زمن ... وقد يكون جدك توفى قبل أن ينجب أباك ... قد تجد نفسك رضيعًا، أو عجوزًا، أو ممثلة سينما حسناء، أو ديكتاتورًا ..

شردت نظرتى وهمست:

ـ إن .. إن هذا يثير الدوار ..

تلفتت حولها فى حذر ، ثم مدت يدها لحقيبتها وأخرجت آلة صغيرة تشبه الآلة الحاسبة ..

ـ هذا هو .

تأملت الجهاز فى خيبة أمل :

ـ فقط هذا ؟.. إن أفلام الخيال العلمى تظهر (التيليترانسبورتر) دائمًا فى صورة كابينة تليفونات .. لهذا ارتبطت فى ذهنى بهذا الشكل، مثلما ارتبطت آلة الزمن ـ للأبد ـ بمنظر كرسى الحلاق ..

قالت دون أن تعلق على دعابتى :

ـ كانوا يريدون متطوعين.. وكانت هذه هى فرصتى للهرب من واقعى، أردت أرضًا أخرى لاتعرفنى ... لقد أعطانى د . (محمود) برنامجًا يناسب حوالى ألف كوكب .. لكن كل كوكب أزوره يعنى انتهاء فرصتى فى العودة إليه لأن دائرته تحترق ..

وأشارت إلى الأرقام :

ـ يأخذ الكوكب رقمًا من واحد إلى ٤١٩ .. ثم المجرة تأخذ حرفًا من أ إلى ياء .. بعد هذا رقم المدار .. إن الأرض ـ كوكبكم ـ هى أول محاولة لى ورقمها هو (١١٢ ب ـ ٧٥)... لن أستطيع العودة لهذا الرقم لو تركت هذه الأرض ..

ـ وكيف عرف د . (محمود) أماكن هذه الكواكب الشبيهة ؟

ـ .. بالحاسوب .

ـ تعنين (الكومبيوتر) ..؟

ـ كلا .. إنه اختراع عربى فى عالمى ، ولم يكن ثمة داع لتسميته باسم أعجمى ..!! باستخدام الحاسوب وقوانين الاحتمالات، ونوع متقدم جدًا من (جبر المحددات)، توصل لحساب أماكن هذه الكواكب بدقة ..

ثم أشارت إلى زرّ أحمر صغير :

ـ هذا هو زرّ العودة .. تلقائيًا يطلب رقم مجرتى (٤١٩ ـ أ ـ ٣) حيث أعود وأقدم تقريرى يومًا ما .. إنه تذكرة العودة لى .. ووضعت الجهاز جانبًا وعادت تطالع الجريدة ..

ألم أقل لكم إنها نسخة منى فى كل شىء حتى الاهمال !؟.. قبل أن ندرك ما حدث وثب أحدهم على الحقيبة ـ والجهاز بها ـ وانتزعها وشرع يركض ..

إنه لص أغراه منظر الجهاز فظنه شيئًا ثمينًا غير عالم ـ الغبى ـ أنه لن يجد مشتريًا لجهاز (ناقل جزيئات) مهما حاول ..!

صرخت (سلمى) فى هلع :

ـ (سالم) !.. لو ضاع الجهاز أو ضغط على الزرّ الأحمر سيذهب هو لعالمى وأبقى أنا هنا للأبد ..!

* * *



قبل أن ندرك ما حدث وثب أحدهم على الحقيبة ـ والجهاز بها ـ وانتزعها وشرع يركض ..

٣ ـ سجينة !

بعد عودتنا من المخفر حيث أبلغنا عن سرقة الحقيبة التى تحوى بعض المال و ... آلة ترجمة متطورة ؛ كانت (سلمى) فى حال سيئة للغاية ، ولم تنبس ببنت شفة طيلة الطريق .. لقد غدت حبيسة عالمنا للأبد .. وبرغم تشابه الكوكبين فإننى أفهم شعورها تمامًا ..

أما ما كان يقلقنى حقًا فهو ذلك الاحتمال الضعيف .. لو عثروا على الحقيبة ، وفتحوها .. فما هو تفسيرى للعملات النقدية الغريبة ، والجهاز المريب الموجود بها ؟!..

قالت (سلمى) فى غلّ من بين أسنانها :

ـ هأنذى حبيسة كوكبك اللعين .. أبدًا لن أرى أرضى ، ولا صديقاتى ولا شارعى .. أبدًا لن أرى أرضنا سوى هذه .. والأسوأ هو أن أرضكم هذه غير صالحة للحياة أساسًا ..!

قلت لها معتذرًا بلا مبرر :

ـ آسف على أن كوكبى لا يناسبك .. لكن هناك احتمالًا لا بأس به أن يجد رجال الشرطة حقيبتك .

ركلت قطعة حجر على الأسفلت فى عصبية ، حتى كادت تهشم أصابع قدميها .. وهتفت :

ـ وحتى ذلك الحين .. ماذا أفعل ؟.. وأين أنام ؟..

ـ من ناحية النوم لن تكون هناك مشكلة .. يمكنك أن تعودى للنوم عند جارتى ..

ـ وأنام مع ابنتها السخيفة المملة ، التى تثرثر وتطرى نفسها حتى الثانية صباحًا ..؟

ـ طبعًا .. لايوجد حل آخر .. المهم أن تقبل هى ..!

ـ اللعنة ..

فكرت حينًا ، ثم واتتنى فكرة ما ..

ـ (سلمى) .. هل أنت متزوجة ؟

ـ لا .. أنا عانس إذا كنتم تستعملون هذا اللفظ هنا ..

ـ ... نتزوج إذن ..!..

اتسعت عيناها فى ذهول ، فأخذت أبتسم فى بلاهة ..

لم لا ..؟.. سيكون هذا هو المخرج الوحيد لها على هذا الكوكب .. ثم تلك التجربة المثيرة أن يتزوج الرجل نسخته الأنثوية ..!، مهما توافقت طباع الزوجين فلابد من الاختلاف فالخلاف .. أما فى هذه الحالة ـ حين يتزوج الرجل نسخة كربونية منه ـ فلن تحدث مشاكل .. مستحيل أن تحدث مشاكل .. امرأة تفكر مثلى ، وتحلم مثلى ..

دعك ـ بالطبع ـ من الفكرة النرجسية العتيدة لدى كل رجل .. لو أنه وجد زوجة تشبهه فى كل شىء فلربما كانت أقل مللًا وإزعاجًا ..!

صارحتها بخواطرى .. فقالت بعد تفكير :

ـ لحظة يا (سالم) .. أنت تخلط ما بين (تشابه) الطباع و (تآلف) الطباع ..

ـ لا أفهم ..

ـ أردت أو لم ترد أنا أكبر منك سنًا وأكثر حكمة ..، دعنى أقل لك إن (تشابه) الطباع لا يخلق زيجة ناجحة .. (تآلفها) هو الذى يفعل ذلك ..

ـ لا أفهم ..

ـ حسن .. عندنا فيلسوف لا أدرى إن كان عندكم مثله أم لا(*) .. يقول هذا الفيلسوف إن الزواج الأمثل ، هو الذى يتم بين رجل لا يحب صدر الدجاجة ، وامرأة لا تحب سوى صدر الدجاجة .. هل تفهمنى ؟.. لو أن كِلا الزوجين يحبان صدر الدجاجة لغدت حياتهما جحيمًا ..

ـ أنا أحب صدر الدجاجة .

ـ وأنا كذلك .. هل فهمت المشكلة ؟.. إن طباعنا متماثلة ..

(*) الفيلسوف الألمانى (فيخته) .. وعندنا واحد منه لحسن الحظ !

- .. لكنى سأتنازل لك عن كل صدور الدجاج فى العالم، لو غدوت زوجتى !

قالت فى شرود :

- على كل حال يمكن دائمًا تقسيم صدور الدجاجة إلى نصفين ..!

وقضينا طيلة اليوم نمشى فى الطرقات نتجادل .. بذلت أقصى جهد ممكن كى أزيل فيلسوفها من رأسها .. قالت لى :

- .. ولو رزقنا بطفل ؟.. كيف سيكون ؟.. إنه أول طفل فى التاريخ يولد لأبوين متماثلين كرموسوميًا .. كأننا أنتجناه بانقسام ميتوسى كالأميبا .. ولا أريد أن يكون ابنى أميبا ..!

- إنه سيشبهنا فى كل شىء .. هذا هو كل شىء .

تنهدت .. وقالت :

- ستندم يا (سالم) .. لكنى .. سأوافق !..

* * *

أنشودة (سالم)

هى جزء منى وأنا جزء منها ...
إن لون عينينا واحد ...
طول قامتنا واحد ...
نحب نفس الألحان ...
ونهوى ذات الأطعمة ...
تدمع أعيننا حين نرفعها نحو الكون اللامتناهى ...
فمن نجمة منه فى مجرة ما ...
جاءت هى .. ولم تحسب لحظة أنها ستكون لى ...
إنها تفهم أفكارى قبل أن أشرحها ...
وتضحك من دعاباتى قبل أن أقولها ...
إنها لى .. وأنا لها ...
فلك الحمد يا خالق الكون السرمدى ...

* * *

أنشودة (سلمى)

اسمه يشابه اسمى ..
إننى وحيدة فى هذه المجرة بأسرها ..
لكنى أثق به ..
لأنه منى .. وأنا له ..
يحب نفس العطور .. يصغى لنفس الألحان ..
يشاهد ذات البرامج .. يملك نفس سذاجتى ..
وبراءتى .. وحماقتى ..
إنه لى .. وأنا له ..
فلك الحمد يا خالق الكون السرمدى ..

★ ★ ★

أنشودة (سالم)

ثمة أشياء تضايقنى ..
أشياء قليلة جدًا ..
أنها تقرأ الصحف قبلى ..
تدخل الحمام فى نفس اللحظة التى أفكر أنا فيها فى دخوله !
تسبقنى إلى مقعدى المفضل لأنه مقعدها المفضل ..
أنها تفكر مثلى ..
لهذا لن تدهش يومًا لفكرة خطرت لى، أو تضحك من دعابة ..
أنها لا تغار علىّ ..
ولا تنبهر بى أبدًا ..!
والأسوأ أنها تلتهم صدر الدجاجة قبلى !
لست حزينًا ولا حانقًا ..
لأنها لى، وأنا لها ..
فلك الحمد يا خالق الكون السرمدى ..

★ ★ ★

أنشودة (سلمى)

هو يملك كل عيوبى، ونقاط ضعفى، ونفس النهم فى الطعام..

إنها عيوبى أنا .. أعرف هذا ..

لكنى ـ كأنثى ـ تمنيت منذ عرفت أننى أنثى، أن يسبقنى زوجى بخطوة ..

مجرد خطوة ..

حياتنا تتحول إلى تنازل مستمر من كل منا، عن الأشياء التى يحبها حتى لا يتهم بالأنانية ..

والشنيع أنه يلتهم صدر الدجاجة قبلى ..!

لست حزينة ولا محبطة ..

لأنى له .. وهو لى ..

فلك الحمد يا خالق الكون السرمدى ..

* * *

أنشودة (سالم و سلمى)

ربما كان خطأ فادحا أن تتزوج نسخة منك ..

لأنك قد لا تحتمل الحياة مع نفسك ..

لكننا سعيدان برغم كل شىء ..

* * *

شرع المدير يتأمل الأوراق الأخيرة فى شىء من الاهتمام .. ثم أشار إلىّ بطرف السيجار المشتعل قائلًا :

ـ لا بأس يا (سالم) .. إنها ليست فكرة سيئة .. أعترف بهذا ..

ثم نظر لى فى شرود :

ـ إلا أن هذه المحادثة الأخيرة بينهما .. تلك المحادثة حول صدر الدجاجة .. ألا ترى أنها متحذلقة نوعا ؟!

قلت فى تواضع، وأنا أحك طرف حذائى فى قماش البنطال :

ـ لكنها ضرورية يا سيِّدى ..

ـ والقصيدة النثرية الأخيرة .. إنها تقتل التشويق قتلًا ..!

قلت متوسلًا :

ـ سيِّدى .. أعطنى فرصة لأقول ما أريد قوله ..

طوى الأوراق .. وناولها لى فى فتور :

ـ حسن .. دعنى أر كيف ستتطور الأحداث .. والويل لك إذا لم تكن مسلية !!

★ ★ ★

٤ ـ دعنا نرحل ..

شهر كامل مرّ على زواجنا .. كان زواجًا كأى زواج آخر ، فيما عدا أننى لم أشتر أثاثًا ، ولم أدفع مهرًا بالطبع .. ، وكانت أيامنا موزعة ما بين الانبهار بتشابه طباعنا ، وما بين السخط على ذلك ؛ حين دق الشرطى بابى طالبًا منى أن أذهب للمخفر لأمر هام ..!

كانت (سلمى) تعد لى طعام الإفطار ، حين عدت لها مهمومًا .. لم يكن الأمر يحتاج لتأويل كثير .. لقد وجدوا الحقيبة .. وبالطبع ستكون هناك أسئلة كثيرة عن العملات العجيبة ، وجهاز (التيليترانسبورتر) ، وعندئذ ستبدو قصتى عن الكوكب (١٤٩ أ ـ مجرة [تازما لورى]) واهية جدًا وسخيفة جدًا .. ، ثم إننى ـ حين يتعلق الأمر بزوجتى ـ لا أرغب فى أى نوع من الضوضاء ..

ذهبت معها إلى المخفر .. وكما توقعت لم يتم أى شىء بسلاسة بل ظللنا ننتظر ساعتين فى غرفة (النوبتجى) .. ثم استدعونا لنقابل رئيس المباحث .. لقد شاهدت هذا المشهد مرارًا فى كوابيسى ، وأعرف تمامًا ما سيحدث لكنى كنت استيقظ غارقًا فى العرق قبل أن أعرف كيف سينتهى ..!

ها هو ذا رئيس المباحث في غرفة يملؤها دخان التبغ .. يحيط به ثلاثة شبان شديدو الوسامة صارمو الوجود .. والجميع يرتدون ربطات عنق نصف معقودة على القمصان دون سترات ..

وأمامه كانت الحقيبة .. وكان ودودًا مجاملًا بتلك الطريقة التي يجيد رجال المباحث أداءها .. الود المرعب ..

- هذه الحقيبة تخص المدام طبعًا ؟

أحنيت رأسي موافقًا ..

- وماذا فيها ..؟

قالت (سلمى) على الفور ما كنا اتفقنا عليه مسبقًا :

- نقود .. نقود مرسومة من التي تُستخدم في المسرحيات .. وأوراق .. وآلة ترجمة (عربية - إنجليزية) معطلة ..

ساد الصمت لحظات .. وشرع الضباط يتبادلون النظرات .. كان الجو متوترًا بشكل ملحوظ .. قال رئيس المباحث بعد دقائق :

- الآلة لاتعمل .. هذا صحيح .. لقد حاولنا إجراء عمليات حسابية بها بلاجدوى .. وقد تأكدنا عن طريق خبير إلكترونيات، أنها ليست جهازًا للتجسس .. لكنه لم

يعرف كنهها على الاطلاق .. أما العملات الورقية فهي لاتشبه أية عملات على وجه الأرض .. إنها دعابة .. لكنكما ستفسران لي أين وكيف استطعتما طباعة عملات لها علامة مائية وخيط .. وأين وجدتما نوعية الورق ؟!..

ثم ابتسم ابتسامة صفراء .. وأشعل سيجارة :

- والآن لنر أوراق المدام، فهي تستحق بعض علامات الاستفهام .

وأخرج بطاقة مغلفة عليها صورة (سلمى) .. ولوح بها في وجوهنا .. قائلًا :

- هذه البطاقة مكتوب عليها .. (سلمى محمد شحاتة) .. مواطنة رقم (٥٣/٦٢/١٢٤) .. تصريحات (أ.ع.م) .. وهذا ليس كل شيء .

وأخرج بطاقة أخرى من الحقيبة .. وشرع يقرؤها :

- هذه رخصة قيادة .. لأي شيء ؟.. لسيارة (خوارزمي) طراز ١٤٢٢ هجرية ..!

ثم فقد صبره واحمرت عيناه حنقًا :

- والآن لاتقولي إن هذا كله خاص بالمسرحية يا (مدام) ..!

وأطفأ السيجارة فى فنجان القهوة أمامه .. وشرع يعيد على الشبان الواقفين حوله ـ ووجوههم جامدة كالصخر ـ ما قاله .. إن موقفنا صعب .. صعب للغاية .. ولن يصدقونا قبل أن نمضى معهم شهرين أو أكثر .. وبعدها لن يصدقونا أبدا ..

ـ والآن .. أريد تفسيرًا .

قالت (سلمى) فى كياسه :

ـ عن أى شىء ..؟

ـ عن كل هذا .. يبدو لى أنك قادمة من عالم آخر، له قوانينه وعملاته ورخص قيادته وبطاقاته الشخصية .

احمر وجه (سلمى) ونظرت للأرض .. لو عرف كم هو محق ! ثم إنها أخذت نفسًا عميقًا يتناسب مع الأكذوبة التى تنوى قولها .. وبعد هنيهة همست :

ـ سيدى .. إن هذه الآلة آلة ترجمة وأستطيع إثبات ذلك .

ـ إذن أرينى ..

مدّت يدها إلى الجهاز .. يدها اليمنى .. فى حين أطبقت حول يدى اليمنى يدها اليسرى وضغطت ضغطة ذات معنى ..

توتر الشبان في انتظار ما سيحدث .. قالت وهى تتحسس الأزرار بأنامل يدها المطبقة على الجهاز :

ـ مثلا .. دعنى أطلب رقمًا ٣٠٠٢٠٠٢٠٠

يا إلهى !.. فهمت !.. إنها تحاول الهرب أمام عيونهم . ستشغل الجهاز لتقذف جزيئاتها إلى أرض أخرى، كلا يا (سلمى)!.. لاتخالفى القانون!.. ولكن أى قانون؟.. قانون كوكبها أم كوكبى ؟.. ثم لماذا تضعين الجهاز على المكتب، وتقرعين الأزرار باليد الأخرى ؟..

الطبيعي أن تمسكيه باليد اليسرى وتقرعى الأزرار باليمنى .. آه !.. فهمت !.. لا يا (سلمى) .. أنا لاأريد .. لا..

ـ هذا يكفى يا مدام .. هاتى الجهاز ..

ـ لحظة يا حضرة الضابط .. (ب-٣) .. ثم زرّ الإدخال ..

ـ أنا لا أمزح .. هاتى الجهاز واتركى يده ..!

فى هذه اللحظة كانت قد أمسكت الجهاز بيدها .. وبأصبع واحدة داست زرّ الإدخال بالفعل ..

وتلاشت الغرفة من حولنا ..!

★ ★ ★

الكون .. الفضاء .. النجوم ..

ـ هل أنا أحلم ؟..

ـ كلا .. أنت لاتحلم .. جزيئاتى وجزيئاتك تمتزج بالكون ذاته .. لم يعد ثمة كيان مادى لنا .. نحن طاقة .. روحان تبحران عبر الأبعاد الأربعة ..

هل تشعر به ؟.. هل تفهمه ؟..

أنا وأنت فقط فى الفضاء .. يدك فى يدى جعلتنا فى نظر الجهاز كيانا واحدا .. وهذا الكيان تلاشى !.. ، امتزجت جزيئاتنا ، وغدونا حزمة لاكيان لها ..

- إننى خائف .. قولى إنك لن تتركينى أبدا ...

- ولماذا أتركك وقد توحد مصيرانا للأبد ؟.. لن تعود لأرضك ولن أعود أنا .. سنجوب الأكوان معًا .. نرى مجرات أخرى .. ألف أرض وألف زمن .. وألف بلد ..

سنهبط فى أى مكان .. المحيط .. القطب .. زائير .. مصر .. وفى زمن لايعلمه إلا الله تعالى ..

هل يؤثـر هذا فيك ؟.. ليس لك جسد مادى لكنك ترتجف !.. أنت خائف ..

- هل ستظلين معى ؟..

- طالما ظللت أنت معى ..

- (سلمى) .. ماذا لو خلط الجهاز جزيئاتك بجزيئاتى ؟.. أى كائن سنصيره ؟.. أربعة عيون وأربعة أيدى وفمان ..!

- إنه الحلم الأزلى لكل عاشقين .. أن نصير واحدا للأبد .



— ولماذا أتركك وقد توحد مصيرانا للأبد ؟ .. لن تعود لأرضك ولن أعود أنا .. سنجوب الأكوان معًا ..

السدم النجمية تتوالى .. ألوان لاحصر لها .. ثقوب سوداء .. الكون يفصح عن أسراره لنا فقط .. أنا وأنت ..

ـ أنا وأنت روحان يجوبان الكون بلا أجنحة، نحو أرض أخرى، ربما أكثر جمالًا ورحمة ..

ـ هل تشعر بلذة الهرب !.. أن تلقى بأعبائك وأعضائك وتحلق ؟.. إننى أقترب من سر الكون .. إن الحقيقة الوحيدة هى الإله الذى أوجد كل هذا الجمال .. ونحن جزء من كل هذا الوجود الذى لايُصدق ..

نحن مجرد نمل يحيا فوق برتقالة فاسدة نتصارع .. ونحقد .. بينما الكون يردد لحنه الأعظم .. فلانصغى ..

ـ أنت لى وأنا لك .. قوليها .

ـ أنت لك وأنت لى .. هل هذا يرضيك ؟..

ـ لن أخشى شيئا بعد اللحظة .. فلتزأر العاصفة .

★ ★ ★

ـ لقد طال السفر صغيرتى .. طال ..

ـ إننا نبحر عبر المجرات .. فلا تقلق .. انظر لهذا النجم المحترق ..

يا له من حلم .. هل ترى ؟

ـ ماذا ؟..

ـ هناك !.. الكوكب (٣٢٢ـبـ٣) .. أرضنا الجديدة .. هل تراها ؟..

ـ نعم .. نفس القارات والمحيطات وكل شىء .. كأنها صورة بالقمر الصناعى لكوكب الأرض .. هل هذا حقيقى ؟.. هل أنا بالفعل وسط كل هذا الجمال ؟..

أنا بالذات ؟..

ـ اصمت .. واستعد للتجسد .

★ ★ ★

كان أول ماشاهدناه ـ عند التجسّد ـ هو .. حجرة رئيس المباحث مرة أخرى !.. ياللهول ..!.. لم يكن الضباط موجودين، وكان هو يرتدى سترته الكاملة .. وما إن رآنا حتى اكفهر وجهه .. وصرخ :

ـ من أنتما ؟.. كيف دخلتما ها هنا ؟.. (نصّار) !.. (نصّار) !

نظرت نحو (سلمى) هامسًا .

ـ كيف عدنا ها هنا مرة أخرى ؟

همست فى شىء من الفتور :

ـ ألم تفهم بعد ؟.. هذا هو رئيس مباحث قسم شرطة الكوكب (٣٢٢ـبـ٣) ..!.. إنه يرانا للمرة الأولى ..!

اندفع جندى الحراسة الريفى داخل الحجرة مذهولًا .. كيف ومتى دخلنا من الباب ؟.. على حين شرع رئيس المباحث يوبخه :

- هأنتذا واقف على الباب كالناطور ..!.. كيف دخل هذان ؟..

قالت (سلمى) فى حرج :

- نهارك حليب يا سيّدى ..

- ماذا ؟..

- أعنى صباح الخير .. كنا نريد عمل (فيش وتشبيه)، وظننا أن هذا المكتب ..

- ليس هو !.. والآن أغربا من هنا ..!

دفعنا (نصّار) الريفى الساذج إلى باب الخروج، وهو يضرب كفًا بكف من الطريقة السحرية التى مررنا بها بجواره ... ثم عاد ليتلقى توبيخه من رئيسه ..

وهكذا وجدنا أنفسنا حرّين فى الهواء الطلق .. فى هذه الأرض الجديدة !

* * *

٥ ـ أرض بلا أجداد ..

حين يمشى رواد الفضاء فوق القمر، أو يستكشفون مدن الفضاء فى قصص الخيال العلمى، يكون كل شىء مختلفا .. كل شىء ينبئ بالتباين الملحوظ ..

أما فى حالتنا هذه، فكان من المستحيل أن أبتلع فكرة أن هذه (قاهرة) أخرى .. وأن هؤلاء البشر الذين يروحون ويجيئون أمامنا، هم (كائنات فضائية) .. ومن الصعب أن أصدق أن زوجتى اللطيفة هذه، هى (مخلوق من الفضاء الخارجى) !.. إن هذا لا يُوصف ..

نفس شوارع القاهرة المزدحمة ووجوه البشر ..

فى إحباط همست لها :

- دائما نفس الاختيارات غير الموفقة يا (سلمى) .. هذه أرض مطابقة تمامًا لأرضى أنا ..

- صبرًا .. لابد من اختلافات .. حتمًا لابد من اختلافات .

ثم قالت وقد بدا عليها الإنهاك :

- إنى مُتعبة .. هلم إلى دارنا ..!

- تعنين دار نسختنا فى هذه الأرض ..؟.. لا أعتقد أن تطابق الكوكبين سيصل إلى درجة تطابق مفتاحى الشقتين .

كنا واقفين جوار إحدى محطات (الميني باص) .. وكانت جوارى بائعة سجائر عجوز تفترش الرصيف .. ، تقدم نحوها رجل يخرج ورقة نقد من جيبه ، وقد بدا على عجلة :

- علبة (بابل) ..!

- لا توجد عندى سوى سجائر (فينيقيا) ..!

انصرف الرجل باحثًا عن ضالته عند أخرى .. أما أنا فقد استرعت انتباهى تلك الأسماء غير العادية للسجائر .. والأغرب هو منظر الجنيه الذى أخرجه لها .. جنيه ليس عليه أية صورة لتماثيل فرعونية مثل جنيهاتنا ، بل نقش دقيق لتمثال (زيوس) ..

لم أصارح (سلمى) بأسئلتى ، خاصة وأن ذكرى جنيهاتنا الزرقاء لا تبرح مخيلتى .. المهم ألا يلاحظ من يأخذ نقودًا منى اختلاف العملتين ، خاصة وأنهما شديدتا التشابه ..

لاحظت أيضًا اختلافًا كبيرًا فى أسماء الشوارع والضواحى المكتوبة على الحافلات .. إن لدى نظرية ما .. لكنى أحتاج إلى إثبات ..

لمست كتف رجل يقف بجوارى ، وسألته بكياسة عن طريق الوصول إلى شارع الهرم .. لم يبد عليه أنه يعرف مكانه أو سمع عنه أصلًا ..

إن نظريتى تتضح ..

وفى كل مكان أجد ما يدعمها أكثر .. وأكثر ..

كل فندق أو شارع أو ميدان ، يحمل فى عالمى اسمًا فرعونيًا .. استبدل باسمه هنا اسمًا يونانيًا أو هنديًا أو بابليًا .. فندق (نبوخذ نصر) .. استراحة (جلجاميش) .. كافتريا (الأوليمب) .. ميدان (كونفوشيوس) .. الخ ..

ركبنا الحافلة إلى ميدان التحرير .. لحسن الحظ لم يلحظ المحصل اختلاف العملة .. أعطيته خمسة جنيهات .. وهكذا وجدت فى يدى كمًا لا بأس به من أوراق النقد لهذا الكوكب .. وكلها تحمل صور (يوليوس قيصر) و (زيوس) و (أبوللو) ..!

وفى الميدان نزلنا .. قالت (سلمى) وقد بدأت تشعر بغرابة الأمر :

- إن هذه (القاهرة) ليس بها سياح على الإطلاق !

أشرت إلى مساحة شاسعة خاوية من الميدان .. وأيدت كلامها :

- وليس بها متحف مصرى ..!

- هذا صحيح .. ولكن .. ما معنى ذلك ؟

- معناه أننا نعيش فى (قاهرة) لاتعرف الفراعنة ..!

★ ★ ★

لكن السؤال الأساسى هنا هو .. هل حقًا لم يعرف هذا العالم الفراعنة، لأنهم لم يوجدوا به، أم لأنه يجهل ذلك ؟.. لا أدرى .. لربما يتسع الوقت لقراءة كتب تاريخهم فيما بعد .. أما الآن فإن قدمىّ قد تورمتا .. وأشعر أن جسدى كله هو وتر كمان قديم أنهكه العزف .. يجب أن نستريح .. فندق ؟.. لا .. من أين لنا بالمال خاصة وأن الدفع فى الفندق لن يكون هينًا كالدفع فى الحافلة .. سيدققون فى عملاتنا وحتمًا سيلاحظون الاختلاف ..

(سلمى) أيضًا منهكة .. أعرف هذا تمامًا لأننا ننشط معًا ونتعب معًا .. نفس نسب حمض (اللاكتيك) فى عضلات ساقىّ وساقيها .. ونفس انخفاض نسبة السكر فى الدم .. ونفس استهلاك حبيبات (نيسل) فى خلايا مخى ومخها .. لأنها - كما تعرفون - أنا أخرى ..!

كنا قد وصلنا - دون أن نشعر - إلى بيتنا .. أعنى بيت نسختنا ..! وشرعنا نتأمل فى حنين المدخل المألوف .. ونباتات الظل البائسة المحتضرة فى أصصها على الجانبين .. والبواب الغافى المُنهك ..

ودخلنا ..

عند الطابق الثالث توقفنا .. وشرعنا نتأمل لوحة الاسم على الباب :

(سليمان شحاتة) .. مهندس ..

إذن هذا هو أنا - أو (سلمى) - لا أدرى بالضبط .. نفس اشتقاق الاسم الذى لايمكن أن يكون صدفة ..

رفعت إصبعى المتوتر لأقرع الجرس فأوقفنى صوت (سلمى) :

- لحظة ..!.. هل فكرت فيما ستقوله له ؟

- لا ...

- لن تقول له طبعًا .. مساء الخير ياسيدى .. نحن نسختاك الكروموسوميتان القادمتان من كوكب آخر، ونريد المبيت عندك ..!!

- بالطبع لا .. لكن ماذا أقول إذن ؟.. لقد بدأت أفهم شعورها حين جاءت مكتبى أول مرة .. من حسن حظها أننى (جنتلمان) .. أما هذا فلربما كان فظًا .. ولربما يستدعى الشرطة، أو يملأ الدنيا صراخًا ..

ابتسمت ابتسامتى المعهودة بركن فمها الأيسر .. وقالت فى حماس :

ـ اسمع .. الحل الصحيح هو أن ندخل ونتعرف عليه، ثم على ضوء انطباعنا نقرر مصارحته من عدمها ... أنا المدام حرمك وقد فقدت وعيى فجأة .. فماذا تفعل ؟.. تقرع أول جرس تصادفه طبعًا ..

ـ أو جرس فى الدور الثالث ؟

ـ وماذا فى ذلك ؟.. كنا صاعدين لعيادة الطبيب بالدور الرابع ..

ـ لا يوجد طبيب فى الدور الرابع ..

ـ سنقول له إن هذا ما عرفناه بعد أن صعدنا ..!.. والآن هيًا ..!

ودون كلمة أخرى، سقطت فوق ذراعى مغشيًا عليها .. حتى أننى شعرت بالذعر حقيقة لا تمثيلًا .. وقرعت الجرس فى هستيريا ... سمعت صوت مزلاج يتحرك .. وبرز وجه امرأة متسائلة ..

قلت لها بضع عبارات متخبطة، توحى بمدى ذعرى، وأنا أشعر برأس (سلمى) المدفون فى صدرى يهتز كاتمًا ضحكة .. لاريب أننى بدوت لها سخيفًا إلى أقصى حدّ ..



وقرعت الجرس فى هستيريا .. سمعت صوت مزلاج يتحرك .. وبرز وجه امرأة متسائلة ..

أدخلتنا المرأة .. وأجلست (سلمى) على الأريكة، وشرعت تدلك وجنتيها فى حين شرعت أتأمل الشقة الأنيقة، التى لاتمت لشقتنا فى كوكبى بصلة ..

إن (نسختنا) على هذا الكوكب ميسور الحال بلاشك .. هذا بالطبع مالم تكن هذه السيدة هى نسختى .. وإن كنت لاأجد أثرًا لكروموسوماتى فى ملامحها الأرستقراطية ..

(سلمى) تفيق .. ويا لها من ممثلة بارعة .. عيناها ذابلتان، وشعرها مبعثر ورأسها يترنح .. أما المرأة فكانت حنونًا مع شيء من الحزم ..

صوت رجل يتساءل عما هنالك .. وجواره طفل صغير يرمقنا فى شيء من الفضول ..

تأملت الرجل .. ضخم العظام .. أشيب حليق الوجه، وكان منحرف المزاج، محمر الأذنين سميكة بما يدل على أنه كان نائمًا منذ ثوان نوم العصر الكئيب المليء بالعرق والكوابيس ..!

مرة أخرى لاأجد كروموسوماتى فيه ..

صافحنى وأجلسنى، وشرع يسمع قصتى الملفقة الصغيرة، دون اكتراث حقيقى .. ثم إن زوجته نهضت وعادت لنا بصينية عليها زجاجتا مياه غازية .. نظرت إلى (سلمى)، فوجدتها ترمق الرجل بنظرة ثاقبة .. ثم تلاقت عينانا فالتوى ركن فمها الأيسر بمعنى أنها لاتفهم حقًا ..

لربما كنا مخطئين .. لربما كانت (نسختنا) لاوجود لها فى هذا العنوان، أو ربما لاوجود لها أصلًا ..

من غرفة بالداخل جاء الطفل يركض حاملًا كتابًا مدرسيًا، ويردد بعض الهتافات الطفولية المبتذلة :

ـ راجل وست .. جُم للبيت !!

نادته (سلمى) متظاهرة بالحنان .. ومررت يدها عبر شعره الخشن، ولثمت جبينه الضيق .. وسألته عن اسمه :

ـ شرريـ..يـ...يف !

ـ الله !.. اسم جميل يا شريف !.. وما هذا الكتاب ؟..

الله !.. التاريخ للصف الخامس عشر الابتدائى !!

الصف الخامس عشر الابتدائى ؟.. لايهم .. لقد اعتدت هذا الخلط منذ سمعت عن السيارة (الخوارزمى)، وعن احتلال (تايلاند) (للصين)

فتحت (سلمى) الكتاب، وشرعت تقرأ بصوت مسموع :

ـ إن (أرسطو) هو من أدخل نور الحضارة اليونانية إلى (مصر)، ولولاه لظلت (مصر) فى ظلام الجهل ..!!

ما هذا السخف ؟!

كلنا يعرف أن الفراعنة هم آباء الحضارة الحقيقيون .. ولم يكن للأخ (أرسطو) أى فضل من أى نوع علينا .. لكن من يدرى .. لربما كانت هذه هى الحقيقة على هذا الكوكب ..

والآن تشكو أم الطفل ابنها لـ (سلمى) كعادة النساء :

ـ تصورى يا مدام أنه يحب القراءة وشرب القهوة !.. تخيلى طفلًا يشرب القهوة !.. يضيع وقته مع القطط الصغيرة .. أليس كذلك يا (شريف) ؟.. هل أخبر (طانط) بالمزيد ؟.. إنه يقرأ القصص والمجلات فى الحمام ..!

ماذا ؟.. هذه العادات تبدو مألوفة !..

نظرت لـ (سلمى) فوجدتها مثبتة عينيها على وجه الطفل .. نظرت له فوجدت ما كنت أتوقعه ..

كان يبتسم بزاوية فمه اليسرى ..!!

* * *

٦ ـ صديق ..

كما هو متوقع لم نرفع أنا و (سلمى) عينينا طيلة الجلسة عن ذلك الطفل . كان مزعجًا كثير الحركة والتظرف .. وإننى لأعجب كيف تحتمله أمه .. ربما هى نفس المعجزة التى جعلت أمى تحتملنى ..، وكنت قد بدأت أتبين فى ملامح الزوجين، ملامح أبى وأمى فى صغرهما .. أما (سلمى)، فهمست فى أذنى وهى تتأمل ملامح الرجل فى اهتمام :

ـ هذا الرجل .. إنه يشبه أمى جدًا ..!!

ـ هكذا ..!.. والمرأة تشبه أباك طبعًا ؟

ـ بالفعل ..!

طالت الجلسة .. وبدأ ذلك التوتر والتململ المنذران بوجوب انتهائها بخيمان ... بالطبع لن نستطيع الاستفادة منهما أكثر ، ولن نجرؤ على طلب المبيت أو طلب نقود ..

نهضت مؤذنًا بالانصراف، فنهضت (سلمى) معى متثاقلة .. انحنيت على أذن (شريف) وقربت فمى منها وهمست :

ـ وداعًا أيها العبقرى الصغير .. عندما تكبر لا تحاول أن تسرق قصة من (هـ . ج . ويلز) ، وتقدمها للناشرين .. إذ سيفتضح أمرك على الفور ..!

لم يفهم كلامى ـ طبعًا ـ وشرع يبتسم فى بلاهة ..

شكرنا لهم حسن ضيافتهم .. وشرعنا ننزل السلم .. عند الطابق الثانى وجدنا باب جارتنا (عواطف) مفتوحًا ، وابنتها (هدى) ـ (هدى) هذه الأرض طبعًا ـ واقفة تثرثر مع صديقة لها ..

همست (سلمى) فى غلّ حقيقى :

ـ آه!.. إنها تلك السحلية الثرثارة !.. عندهم منها واحدة هنا أيضًا !.. إنها تطاردنى فى كل المجرات ..!

ـ صه !!.. هى حادة السمع أيضًا ..

★ ★ ★

هل نعود لعالم (سلمى) بعد أن أغلقت كل الأبواب دوننا ؟..إن الكون يبدو لنا الآن أضيق من سمّ إبرة الخياط .. لا صديق .. لا عون .. لا نقود ... والمشكلة أننا سنواجه نفس الشىء فى كل أرض أخرى .. إن اختلاف العملات يجعل ارتياد العوالم الموازية أمرًا شبه مستحيل .. وقد عرضت على (سلمى) أن ننهى كل هذا .. فقالت :

ـ ربما أفعل ... ولكن فى اللحظة الأخيرة قبل أن نقضى جوعًا .. !.. ليس الآن حتمًا ..

وهكذا نمضى مطوحين قامتينا مجرجرين أقدامنا فى الطريق ..

متشابهين كتوءمين .. متشابكى الأيدى كعاشقين .. حائرين كذبابتين ..

تعسين كطفلين حُرما من حيوانهما المدلل ..!

المدينة هى المدينة .. الوجوه نفس الوجوه .. الشوارعَ ذات الشوارع .. لكننا غريبان !... نعرف الجميع بينما لا أحد يعرفنا ..

ترى أية مغامرة مجنونة أقحمنا نفسينا فيها ..!

لكن ما كان يعزينا ، هو أن لدينا بابًا خلفيًا جاهزًا للهروب منه ، حين تسوء الأمور أكثر من اللازم ... قد تتكاثف السحب لكنك تعرف أن القطار ينتظرك ، وأن تذكرة الرحيل فى جيبك ... أن تهرب .. إلى أين ؟.. لا يهم .. المهم أن ترى وجوهًا أخرى وأماكن أخرى وتشم روائح جديدة ..

قالت (سلمى) وقد شعرت بما أشعر به :

ـ نعم .. أنا أيضًا أحلم مثلك .. لكننا لم نهرب (إلى) هذا الكوكب كى نهرب (منه) بعد ساعات ..!

إن هذا النوع من المفاجآت لم يعد يثير دهشتى .. إن تفكيرى وتفكيرها متزامنان ومتطابقان ، إلى حدّ مفزع .. يكفينى أن أفكر فى شىء ما ، حتى أتأكد من أنها تفكر فيه فى ذات الوقت ..

قلت فى سخرية مريرة :

ـ المشكلة هى أننى جائع ..

ـ إذن فلنأكل .. إن معك ما تبقى من نقود الحافلة ..

اشتريت بعض الساندويتشات .. ومضينا نلوكها ونرمق المارة في لامبالاة ..، أدركت أنها ـ وقد أنهت ساندويتشاتها ـ لم تزل جائعة، لأن الجوع كان يعتصر معدتى أنا .. ناولتها ساندويتشاتى .. نظرت لى فى حنان، وابتسمت ابتسامة صفراء حزينة، ثم بدأت تأكل ..

والآن أشعر أننى امتلأت ولم أعد بحاجة للمزيد ..

★ ★ ★

فجأة صرخت (سلمى) فى حماس أنها تذكر هذا الشارع تمامًا .. إنه الشارع الذى يعيش فيه (د. محمود) فى عالمها ..

ـ د. (محمود) من ؟

ـ إنه ذلك العالم .. مخترع جهاز (ناقل الجزيئات) .. هل نسيته ؟

ـ طبعًا .. كأنك حكيت لى عنه منذ قرون ..

ـ إنه رقيق الحاشية، دمث الخلق، وليس من ديدنه طرد المعتوهين الذين يزعمون أنهم من كوكب آخر .. فلماذا لانرى إن كان عندهم واحد منه هنا ؟..

قلت لها فى تؤدة :

ـ وهل تظنين أنه سيعرفك ؟.. إذا كنت أنت ـ أو أنا ـ مجرد طفل سخيف على هذا الكوكب ؛ فلماذا تفترضين أننا لن نجد عالمك هذا طفلا رضيعًا، أو لاوجود له على الإطلاق ؟!

ـ لاأعتقد أنه كان طفلا فى يوم من الأيام .. وعلى كل حال لن نخسر شيئًا ..

وشرعنا نجرّ أقدامنا المنهوكة شاعرين أن أحذيتنا هى أدوات تعذيب شيطانية، من عهود محاكم التفتيش .. مدخل البناية الرطب والسلالم .. الطابق الثانى .. ثم .. الباب ..

عندهم د. (محمود) بالفعل فى هذا الكوكب .. ويمكن لـ (سلمى) أن تسترد أنفاسها المبهورة .. لكن المشكلة هى أن اللافتة تقول إنه (خبير آثار) مما ينفى تمامًا أن يكون نفس الشخص .. لكن (سلمى) أعلنت ـ فى ثقة ـ أنه هو المقصود .. لأن (محمود بكر) فى عالمها كان يهوى الآثار إلى جانب مهنته كـ.. فيزيائى ..، إنها تلك الاختلافات البسيطة الضخمة بين الكوكبين، ولربما كان هذا الـ (محمود) يهوى الإلكترونيات هنا !!

لم أبد متحمسًا، لأننى رأيت كل هذا بلاجدوى على الإطلاق ..

انفتح الباب ـ عندما قرعنا الجرس ـ عن رأس أصلع ، ووجه كالح ، كث الشارب .. إنه هو !.. هذا واضح .. لأن (سلمى) كادت تنسى حذرها وتهلل وتقفز عند مرآه ، لولا أن طقطقت بلسانى محذرًا .. كادت تنسى ـ الحمقاء ـ أن زميل العمل العزيز هذا لم يرها فى حياته !!..

قالت فى صوت يتصنع الرزانة ، (وإن بدا متهدجًا نتيجة تأثرها) :

ـ دك .. دكتور (محمود) ؟

قال فى دماثة ورقة حاشية (لحسن الحظ) :

ـ أنا هو ..

ـ نهارك حليب ..

فتح فاه ليقول شيئًا إلا أنها بادرت بالكلام :

ـ أنا (سلمى) .. وهذا زوجى ..

هز رأسه فى رقة ، بمعنى أن ما تقوله جميل ، لكنه لا يعنيه على الإطلاق ..

ـ هـ .. هل .. يمكننا الدخول ؟

ـ لا ..!

قالها كسدادة مصوبة إلى حلقها .. دمعت عيناى ضحكًا على الرغم منى .. لكن (سلمى) لم تيئس :

ـ دعنى أتحدث لحظة .. أنت د . (محمود بكر) ..

ـ هذا اكتشاف لا بأس به ..

ـ فى طفولتك كنت تهرب من المدرسة ، وتفتش عن كنوز وهمية مدفونة فى حدائق الجيران ..

كاد الباب يُغلق فى وجهها ، لولا أن بادرت بوضع قدمها فى فرجته لتمنع غلقه .. وواصلت الكلام فى حماسة وسرعة :

ـ فى الجامعة كنت تخفى ثقبًا فى حذائك ، عن طريق السير بشكل مفتعل .. لكن صديقك كان يسخر من هذا ويسمى حذاءك (حذاء أبى القاسم) ..!

بدأت مقاومته تلين نوعًا ، حيث وقف خلف الباب ..

ـ .. وكان والدك يصرّ على أن تكون محاميًا لكنك خذلته .. و ...

وهنا كانت مقاومته قد انتهت تمامًا ..

فتح الباب ، وألف علامة استفهام ترتسم على وجهه ، وقطرات من العرق البارد تحتشد على جبينه .. وفى بطء همس :

ـ أرجوكما أن تدخلا ..!

* * *

ـ هذه هى قصتنا ..

قالت (سلمى) وهى تكوم قشور اليوسفى فى قبضتها توطئة لأن تضعها فى مطفأة السجائر أمامها .. كنا جالسين فى غرفة الصالون التقليدية المتظاهرة بالفخامة ، والتى تراها فى كل بيت مصرى حتى على هذا الكوكب .. وكانت زوجته تصب لنا الشاى بيد مرتجفة ، وهى تختلس لنا النظر .. واضح أنها لم تبتلع بعد فكرة أن تجلس مع (كائنات من الفضاء الخارجى) .. أما د . (محمود) فكان منفعلًا ومتحمسًا إلى حدّ لايُوصف ..

قال لنا وهو يهرش فى صلعته :

ـ لولا أنكما أخبرتمانى بأدق أدق أسرارى ، لما صدقت حرفًا .. كنت أظنكما نصابين ، خاصة وأن حالة ثيابكما توحى بذلك !

قالت (سلمى) وهى تقشر ثمرة يوسفى أخرى :

ـ الواقع أننى اتبعت هذا الأسلوب من قبل مع (سالم) فى لقائنا الأول ، على أننى كنت محظوظة .. لقد أخبرنى د . (محمود) فى كوكبى بالكثير عن نفسه لأنه ..

واحمرّ وجهها قليلًا .. وأردفت :

ـ .. كان يريد الزواج منى ..!

يا لها من كلمة !.. إن الموقف عجيب حقًا ، لكننى شعرت بعدائية مفاجئة تجاه د . (محمود) الجالس معنا ، برغم أنه لاذنب له فى الموضوع .. وفى عينى زوجته التمعت نظرة غيرة حاقدة ، وهى ترمق (سلمى) كأنها تقول : كيف يُعجب زوجى ـ أو حتى نسخته ـ بهذه المخلوقة ؟!

قالت (سلمى) لتزيل آثار اعترافها الأحمق :

ـ .. ولحسن الحظ أنك لم تختلف عنه كثيرًا فى هذه الذكريات ..

ـ .. فيما عدا أنه متزوج طبعًا !

كنت أنا قائل هذه العبارة حين شعرت أنها ستزيد الطين بلّة لامحالة .. وبدأت أسأله عن أحوال هذا الكوكب .. وعن الاختلافات غير العادية التى لاحظتها أنا و (سلمى) طيلة اليوم .. فماذا يعرفون عن الفراعنة ؟ ولماذا لايعترفون بفضلهم ؟..

قال لى وهو يبتسم فى ثقة العلماء المحنكين :

ـ الفراعنة ؟.. ماذا تريد معرفته عنهم ؟.. حفنة من الرعاة احتلوا وادى النيل لفترة ما .. ثم تركوه ..!!

ـ هكذا ..!.. وهل لا توجد عندكم أهرام ، أو (أبو هول) ؟

ـ لدينا بالطبع .. وما علاقة ذلك بالفراعنة ؟!..

إنها لمسات الحضارة اليونانية البارعة فى مصر ..!..

كدت أنفجر غيظًا من هذا الخلط .

- و (الكرنك) و (الدير البحرى) و (فيلة) ؟!

بدت على وجهه معالم الحيرة والغباء .. فأدركت أن الأمر فيه اختلاف فى المسميات لا أكثر .. لهذا قلت له موضحًا :

- معابد .. فى الصعيد .. جنوبًا ..

- آه !.. تعنى معابد (ديانا) و (أبوللو) الموجودة بالأقصر ؟.. لماذا لا تسميها بأسمائها ؟!

أرجو أن يمسك بى أحدكم قبل أن أهشم وجه هذا المعتوه ..!.. ألا يفهم هؤلاء القوم معنى كلمة (طراز) ؟.. ألم يلحظوا اختلافًا مابين آثار الفراعنة، وبين المعابد والتماثيل اليونانية ؟.. إن الطراز الفرعونى الأصيل لايمكن خلطه مع أى طراز آخر .. لكنه ـ كالعادة ـ كان يملك تفسيرًا مُقنعًا (له هو طبعًا) ..

- إن اليونانيين قد نجحوا فى إضفاء أكثر من نمط للطراز فى كل بلد زاروه .. وكان أسلوبهم فى (مصر)، يختلف عن أسلوبهم فى (اليونان) .. وهذا دليل آخر على عبقريتهم ..!!

- و ... وتماثيل الملوك وغيرهم ..؟

- كلها يونانية طبعًا ..!.. ألم أقل لك إنهم غيروا طباعهم لتناسب البلد ؟

- والهيروغليفية ؟.. هل هى لغة يونانية أيضًا ؟!

- إنها لغة سرية خاصة بالكهنة المصريين .. لكن لماذا نحتاج إليها طالما أن (هيرودوت)(*) لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وحكاها ؟!

هنا اعتدلت فى جلستى .. لقد بدأت أفهم ..

- هل تعنى أنكم لا تعرفون اللغة الهيروغليفية ؟!

- نعم ..

- و ... حجر (رشيد) ؟..

مرة أخرى تبدو علامات الغباء على وجهه ..، سألته عن (نابليون بونابرت)، والحملة الفرنسية على (مصر) فقال لى إن هناك (واحدًا) بهذا الاسم حاول غزو (مصر) فى أواخر القرن الثامن عشر، إلا أن الأدميرال البريطانى (نلسن) نسف أسطوله عن بكرة أبيه فى البحر الأبيض المتوسط ..

رفعت رأسى نحو (سلمى)، التى جلست تثرثر مع الزوجة فى أمور نسائية بحتة، مثل أسعار الخضر وأسماء العطور والأقمشة على هذا الكوكب .. لم تكن على استعداد لسماع ما يدور فى خلدى من خواطر ..

إن هذا الكوكب هو جنتى ..!.. حتمًا هو كذلك ..!

* * *

(*) مؤرخ يونانى عظيم .. ويطلقون عليه (أبو التاريخ) .



مرة أخرى تبدو علامات الغباء على وجهه .. سألته عن (نابليون بونابرت) ، والحملة الفرنسية على (مصر)

٧ ـ كوكب الحمقى ..

طيلة الليل ظللت أذرع غرفة الفندق كالأسد الحبيس .. أدخن سيجارة وهمية هى قلمى .. وأحدث أشخاصًا لاوجود لهم .. وأضحك من نكات لم أسمعها ... كانت الأفكار تتصارع فى رأسى ، حتى أنها ليسحق بعضها البعض .. أكثر من فكرة رائعة قضت عليها فكرة أخرى ..

إن أمامى مستقبلاً رائعًا .. رائعًا إلى حدّ أنه يثير الرعب فى نفسى ..

أما (سلمى) فكانت جالسة على الفراش ، وقد أسندت ذقنها على ركبتيها ، وضمت كفيها أمام ساقيها ترمقنى بعينين خرساوين ... ثم تكلمت بعد هنيهة :

ـ هل فقدت صوابك أخيرًا ؟.. كنت واثقة أن هذا سيحدث ..!

ـ هه ؟.. هل تريدين شيئًا يا ملاكى ..؟

ـ هل جننت ؟

توقفت عن الدوران فى الغرفة ورفعت يدى للسقف :

ـ لقد قدم لى د . (محمود) هذا هدية العمر ..

ـ لاتبالغ .. إن مبلغ المائتى جنيه هذا هو قرض للمبيت فى الفندق ... و ...

ـ كفى عن الحماقة يا (سلمى) !!.. إننى أتحدث عن مصير البشرية كلها، وأنت تفكرين فى المال .. هل سمعت ما قال ؟..

ثم إننى جلست على الأرض جوار الفراش، وشرعت أرسم على السجادة خطوطًا وهمية بإصبعى السبّابة لأؤيد كلامى :

ـ قال إن (نابليون بونابرت) لم يدخل (مصر) بتاتًا لأن (نلسن) قد دمرّ أسطوله فى البحر المتوسط ...، إن الحملة الفرنسية على (مصر) كانت حملة فاشلة تمامًا، وقد لاقت مقاومة عاتية، لكنها على الأقل نجحت فى إدخال الطباعة لـ (مصر) وإخراج كتاب (وصف مصر) .. ثم فك رموز اللغة الهيروغليفية ،اعتمادًا على الجهود الباسلة لعالم الآثار الفرنسى (شامبليون) .. وهذا هو بيت القصيد ..

وضيقت عينىّ فى غموض :

ـ والآن .. كان (بونابرت) يلعب لعبة المساكة مع الأسطول البريطانى عبر أمواج البحر المتوسط .. ووصل (مصر) .. ووجد (حجر رشيد) الذى كان هو مفتاح رموز تلك اللغة .. ورفعت إصبعى السبّابة مؤكدًا كلماتى :

ـ لو وجد (نلسن) أسطول (بونابرت) لدمّره .. ولتغير وجه التاريخ .. وهذا هو ما حدث فى هذا الكوكب ..!، دمّر (نلسن) أسطول (بونابرت) .. لم يعثر أحد على (حجر رشيد) .. لم تتكشف أسرار الهيروغليفية .. لم يفهم أحد أية حضارة هائلة كانت هنالك .. ظلّوا يعتمدون على أكاذيب المؤرخين اليونانيين .. وظلّوا يؤمنون أنهم قوم بلا حضارة ولاتاريخ ..!

بدأت علامات الاهتمام تغزو وجه (سلمى) .. وسألتنى :

ـ وما هو دورنا فى كل هذا ؟

ـ ألم تفهمى بعد ؟.. إننا نحن المحظوظان الوحيدان اللذان وقعت عليهما مسئولية إخبار هذا الكوكب بتاريخه !!.. نحن من سنهدى لهؤلاء الحمقى معرفة أجدادهم .. سيعرفون تاريخ كل الأسر الفرعونية، منذ الأسرة الأولى وحتى عهد البطالمة .. سيفهمون كل ماكتب على الجدران والمسلات وقواعد التماثيل ...، إننا ـ أنا وأنت ـ سنقود هذا الكوكب إلى المعرفة !

ـ أنا وأنت ؟

ـ أنت وأنا ..!

* * *

قال د . (محمود) وهو يجذ السير عبر أروقة ذلك المبنى :

ـ أتعشم أن تكونا قد نمتما جيدًا ..

قلت لاهثًا وأنا أحاول اللحاق به، ومئات الأسئلة تزدحم فى رأسى :

ـ رائع .. أشكرك كثيرًا ..

ـ كان الواجب أن تناما عندى، لكنكما تعرفان الظروف .. و ... لاتشكرنى.. إن هذا هو واجبى نحو صداقتنا العتيدة ـ أنا والمدام (سلمى) ـ على كوكبها !!..

وعند أحد الأبواب الجانبية دلف وأنا خلفه .. و(سلمى) خلفنا ..

كانت قاعة كبيرة مظلمة إلى حدٍ ما .. انتظرت بضع ثوان حتى اعتادت عيناى الظلام .. كان هناك عدد لا بأس به من الأشخاص الجالسين حول مائدة طويلة، تشبه موائد الاجتماعات .. وكانوا جميعًا يرمقوننى فى حدة وشك، ودخان التبغ يفعم هواء الغرفة، مما جعل الرؤية ضبابية تمامًا ..

قال لى د . (محمود) وهو يشير بلامبالاة إلى الجالسين :

ـ أقدم لك السادة الجالسين .. هذا هو الدكتور (...) من هيئة الآثار .. اللواء (...) من شرطة الآثار .. العميد (...) من كذا .. الأستاذ كذا من كذا .. الدكتور فلان .. البروفسير علان ... ألخ ...

وكنت قد نسيت كل شىء تقريبًا حين انتهى هو من تعريف آخر الجالسين، فيما عدا رجلًا واحدًا يرتدى بذلة أنيقة مدنية، ووجهه فى الظلام خارج دائرة الضوء .. قلت لـ : د . (محمود) متسائلًا :

ـ وهذا ؟.. هل هو (رقم صفر الذى لا يعرفه أحد) ؟!

لم يضحك .. ولم يضحك واحد من السادة المهمين، الملتفين حول المائدة لمحاكمتى، على شىء لا أدرى ما هو بالضبط ... إن رغبة جنونية فى الفرار تطاردنى لكن الأوان قد فات للأسف ..

ـ اجلس ..!

جلست فى حذر .. وأنا أشعر أننى نسيت كيفية الجلوس ..

ـ استرخ ..!

هكذا أمرنى سعادة اللواء الذى نسيت اسمه .. فاسترخيت على الفور ..

ـ اهدأ بالًا ..!

أمرنى بذلك أحدهم .. فهدأت بالا على الفور ..!

بدأ الرجل ذو الوجه الغامض يتحدث بنبرات رزينة واثقة .. كان يرحب بى وزوجتى فى بلدنا (مصر)، حتى وإن كان على بعد ملايين الأعوام الضوئية من بلدنا الأصلى .. وقال إنه يأمل أن يؤدى تعاوننا إلى فتح جديد فى التاريخ، لأننى ـ إن كنت صادقًا ـ سأكون شخصية القرن وسيكون وصولى لعالمهم أهم حدث منذ اكتشفوا الكهرباء .. أما إذا كنت ـ لا سمح الله ـ كاذبًا ..!

وهنا أحسست بالقشعريرة تزحف عبر عمـــودى الفقرى .. لا داعى لأن يكمل كلماته ... لم يكونوا على علم بجهاز (ناقل الجزيئات) .. كل ما كانوا يعلمون هو أننا قُذفنا بشكل ما إلى عالمهم .. وهكذا يظل عندى باب خلفى لا بأس به للهرب لو أرادوا بى سوءًا ..

ـ والآن حدثنا عن (حجر رشيد) .

ابتلعت ريقى .. وبدأت أتكلم بصوت متهدج فى البداية :

ـ إنه ذلك الحجر الذى وجدته الحملة الفرنسية قرب (رشيد) .. وكان عليه نص بثلاث لغات .. الهيروغليفية واليونانية والديموطيقية .. وقد تبين (شامبليون) العالم الفرنسى أن الفراعنة كانوا يدوّنون اسم الملك فى إطار مستطيل منحنى الجوانب، هو (الخرطوش) .. هكذا أمكنه استخلاص الأبجدية الفرعونية بمجرد المقارنة ..

خلع البروفسير (...) نظارته .. وسأل :

ـ ثم ؟...

نظرت حولى فى غباء .. ورفعت يدى :

ـ .. ثم لا شىء ..!

ـ هيه !.. لن تقول لنا إنك لا تعرف المكان الذى وجدوا فيه (حجر رشيد) فى عالمك .. أليس كذلك ؟!

ـ نعم .. وجدوه عند (رشيد)..!

ـ هذا واضح .. لكن ما هى إحداثيات المكان ؟.. إن (رشيد) ليست شجرة نحفر تحتها حين تعتلى الشمس الأفق ..

ـ لم أكن ـ طبعًا ـ مع الحملة الفرنسية حين وجدت الحجر .. .

ـ إذن أنت تعرف هذه الحروف الهيروغليفية ؟

ـ للأسف لا ...

ـ إذن ماذا نفعل ؟.. وما المساعدة التى قدمتها لنا ؟

لا شىء فى الواقع .. إن هذا درس طيب لمن يهوى السفر بين العوالم الموازية : لا تنس أن تأخذ معك قاموسًا للغة الهيروغليفية !

قال د . (محمود) فى تؤدة محاولًا تهدئة التوتر المخيم :

ـ أستاذ (سالم) .. إذا لم تستطع أن تقودنا إلى (حجر رشيد)، يمكنك على الأقل أن تخبرنا بمكان نصٍّ تعرف ترجمته .. وبالتالى يمكننا إجراء المقارنة على طريقة (شامبليون) الشهيرة هذه ..

هرشت رأسى مفكرًا .. وهنا ارتفع صوت (سلمى) للمرة الأولى :

ـ سيدى .. لقد قام (رمسيس الثانى) بكتابة اسمه على الكثير من المسلات والمعابد، حتى تلك التى لم يبنها .. ستجدون اسمه مكتوبًا مرارًا عند معبد (الكرنك) و (الدير البحرى)، أيًا ما كان اسمهما عندكم .

ـ و (تحتمس الثالث) أزال اسم والدته (حتشبسوت) من فوق آثارها، ليكتب اسمه هو ...

مضى الرجال يدونون ما قلته فى اهتمام .. وسكرتيرات قلقات يهرعن هنا وهناك، حاملات رسائل يبدو أنها هامة جدًا إلى (جهات معينة) فى مكان ما ..

وهكذا مضى الاستجواب الذى استغرق أربع ساعات أو أكثر .. كنت أنا و (سلمى) نعتصر خلايا ذهنينا، لاستخراج كل ما نذكره؛ ربما منذ دراستنا الابتدائية عن الفراعنة .. أبدًا لم نفطن لجهلنا المروع بالتاريخ الفرعونى، إلا حين وجدنا نفسينا بحاجة لتذكر ذلك التاريخ ..

كم كان عدد الأسر ؟.. أية أسرة بنت الأهرام ؟.. متى بدأت عبادة آمون ؟.. ما الاسم الأصلى لأخناتون ؟.. أين يقع وادى الملوك ؟

كم عامًا استمر كفاح (طيبة) ؟.. مَنْ من الفراعنة شيد تمثال (أبو الهول) ولماذا ؟.. من هو (بعنخى) ؟ ومن هو (سنوحى) ؟.. من هو ... متى ... لماذا ... كيف ...

كنا قد انتهينا أنا و (سلمى) .. ولو كنا قد اقترفنا جريمة ما، فإننا فى أتم حالاتنا النفسية لنعترف ..!.. إن هؤلاء السادة لا يتعبون ولا يعرفون الرحمة .. وقد استحال عقلى إلى ذبابة قد فرغ من امتصاصها عنكبوت ..

بعد أن طال التعذيب، قال الرجل غامض الوجه، وهو ينظر فى ساعته :

ـ أعتقد أن الوقت قد حان كى ننهى هذه الجلسة .. لدينا هنا كمًا لا بأس به من المعلومات، وسيستغرق أسبوعًا أو أكثر فى التحقق منه، لهذا أشكركما .. وآمل ـ لمصلحتكما ـ أن تكونا على صواب !!

★ ★ ★

قرأ المدير الأوراق الأخيرة التى حملتها له مرة تلو مرة .. ثم قال دون حماس وهو يناولها لى :

- لاأستريح كثيرًا للمجرى الجديد للأحداث .. إن القصة تتحول إلى استعراض لثقافتك الفرعونيـــة، ولا أحسب القارئ واجدًا ما يشوقه وسط هذا الحشد من الأسماء والوقائع ..

ابتلعت ريقى وقلت فى شىء من نفاد الصبر :

- صبرًا سيدى .. إن اللهو لم يبدأ بعد ..

- لهـو ؟!..

- نعم .. إن هذين الغريرين يحسبان أن مايعرفان - ويجهله هذا العالم - لكفيل بأن يجلب لهما الرغد والثراء ..

- هذا ما قلته أنت مرارًا .

استطردت فى غموض وأنا أعيد أوراقى إلى الملف :

- لكنهما سيعرفان إلى أى حد كانا مخطئين ..... سيعرفان ذلك بوضوح شديد ..!!..

* * *

٨ - شـــهـرة ..

لم تكن نعلم أنه فى الوقت الذى غفونا فيه فى فندقنا أنا و (سلمى) ، كانت هناك جيوش من علماء الآثار تعيد البحث فى معابد الصعيد .. وجيوش من المصورين تلتقط صورًا دقيقة لآلاف النقوش الجدارية المنسية .. وجيوش من خبراء الكمبيوتر ، عاكفة على تلقيم أجهزة الحاسب الآلى العملاقة فى عدة وزارات ، للتحقق من تكرارية النقوش ، وتفنيد الاحتمالات المختلفة ومقارنتها ..

وحول (رشيد) استحال الليل نهارًا ، حيث سلطت الكشافات العملاقـــة .. وشرعت البلـدوزرات تهدر كديناصورات أسطورية تلتهم التراب بحثًا عن حجر صغير يحوى سر الحضارة .

كانت اللغة الهيروغليفية تولد من جديد ، وبسرعة غير عادية .. إن البحث عن طلاسم لغة فى عهد الكمبيوتر ، يختلف - قطعًا - عن ذلك المجهود المحموم ، الذى بذله (شامبليون) وحيدًا على ضوء شمعة .

كانوا يحتاجون إلى طرف خيط ..

وقد قدمنا لهم عدة خيوط ، كلها تقود إلى نفس الشىء ..

* * *

فى الأيام التالية تكررت جلسات (الاعتصار الذهنى) إذا صح هذا التعبير ... وكان هؤلاء السادة يخصصون يومًا لكل موضوع .. قصة الهرم .. إخناتون .. كليوباترا .. حتشبسوت .. إياح حتب .. حور محب .. إلخ ..

وعرفنا أنهم ـ بعد كل استجواب ـ كانوا يشرعون فى دراسة كل حرف ثم يرسلون فريقًا من علماء الآثار للبحث عن أى نقش يؤيد ما قلناه ويحاولون فهم كل كلمة فى هذا النقش على ضوء كلامنا ..

ثم جاء اليوم السعيد ..

اليوم الذى سمحوا لصحفى أن يقابلنا فيه ..

كان شابًا ناحلاً تلتمع عيناه حماسة، وجبينه مندى بالعرق، ويداه ترتعشان وهو يسألنا عن كل شىء .. بالطبع لم أصارحه بقصة (ناقل الجزيئات)، وحاولت إعطاءه الانطباع بأننا عرافان أو ساحران، أو أى شىء من هذا القبيل ..

بعد هذا بدأت الأحاديث الصحفية لى تتوالى ... لم أعد أذكركم صحفيًا أصلع الرأس، وكم صحفية تصبغ شعرها وتلوك اللبان قد قابلت .. لكنى كنت فى كل مرة أحكى شيئًا جديدًا ..

وكان موضعنا فى أية جريدة أو مجلة مضمونًا، فى أية مرة تفتح فيها فمنا .. وغدت صورتى أنا و (سلمى) مألوفة لرجل الشارع .. لكن أحدًا لم يلحظ تشابهنا غير العادى ..

صار اسم (رمسيس) و (خوفو) يترددان فى وسائل الإعلام، وعلى المقاهى، وعرف الناس (إخناتون) داعية التوحيد .. و (سنوحى) الفلاح الفصيح ..

* * *

على أن أكثر القصص التى أثارت شغف الناس، كانت هى قصة (كليوباترا ومارك أنطونى) .. وبرغم أن المؤرخين اليونانيين حكوها، وبرغم أن (كليوباترا) لم تكن فرعونية تمامًا، فإن التفاصيل لم تكن واضحة كما حكيناها نحن ..

وسمعنا عن مسرحية بنفس الاسم، تقدمها مسارح (لندن)، ألفها شاب انجليزى واعد اسمه (ويليام شكسبير) !.. بالطبع استوحى الفكرة منا، لكنه لم يستأذننا .. اقترحت (سلمى) أن أقاضيه، لكنى ـ وقد تذكرت ماضىّ المشين ـ رأيت أنه من العدل أن أترك سارق القصص هذا وشأنه، كنوع من التكفير عن سرقاتى السابقة ..



وغدت صورتى أنا و (سلمى) مألوفة لرجل الشارع .. لكن أحدًا لم يلحظ تشابهنا غير العادى ..

ذات يوم جاء للفندق شاب وسيم تبدو فى ملامحه سمة أرستقراطية لا تخطئها العين ... وقدم لنا نفسه باسم أحمد شوقى .. شاعر ! ثم إنه طلب منى الإذن فى السماح له بكتابة مسرحية شعرية، يكون اسمها (مصرع كليوباترا) !!..

- إن هذا من حقك .. أنا لم أخترع القصة، والتاريخ ملك للجميع .. قلتها فى تواضع، وأنا أقاوم رغبة جنونية فى الصراخ فرحًا .. فى هذا العالم سيكون لى الفضل فى إلهام (أحمد شوقى) بفكرة مسرحيته الرائعة، ويا لها من مصادفة !!..

- وماذا ستقول فيها ؟

فرك كفيه فى حيرة .. وهزّ رأسه :

- لا أدرى فى الواقع .. لم أجلس لأكتبها بعد ..

هرشت رأسى فى تؤدة كأنى أفكر .. ثم قلت :

- ابدأها بالبيت التالى ..

قيامًا نشرب الخمرا على نخب كليوباترا

كرّر هو البيت ورائى، محاولًا حفظه .. ثم مط شفته السفلى فى اشمئزاز .. وغمغم :

- ليس سيئًا .. لكن يمكننى كتابة ما هو أفضل !!

قلت مقاومًا ضحكة خبيثة توشك أن تفلت منى :

- على كل حال. هذا مجرد اقتراح ... يمكنك - بعد إنهاء هذه المسرحية - أن تجرب كتابة مسرحية عن ... عن ... عن (قيس وليلى) أو (قمبيز) ملك الفرس ..

بدت نظرة عدم فهم على وجهه .. فقلت على الفور :

- هذا - بالطبع - لو كنت تعرف هؤلاء ..!

كيف لو عرف أننى أحفظ كل هذه المسرحيات عن ظهر قلب، قبل أن يخط هو حرفًا واحدًا فيها ؟!

وانصرف الشاب شاكرًا لى عطفى، دنت منى (سلمى)، وجلست أمامى حائرة .. وبعد هنيهة همست :

- (سالم) .. إن ضميرى ليس مستريحًا تمامًا .

- ولمـه ؟

- هذا الذى نفعله .. أعتقد أنه ليس أخلاقيًا تمامًا .. ثمة نوع ما من الخداع فى كل هذا .. خداع لا أستطيع تعريفه بدقة ..

ثم مرّرت يدها عبر خصلات شعرها .. وهمست :

- قل لى إنه لا غبار على هذا كله .

نظرت لها فى ثقة .. وابتسمت بزاوية فمى اليسرى :

- لا غبار يا ملاكى .. لا غبار .. فقط ثقى بى ..

★ ★ ★

هكذا ظلت أيامنا تمضى على هذه الوتيرة .. رسالة من المخرج الأمريكى (جوزف مانكوفتش) يطلب منى أن أعمل مستشارًا فى فيلمه الضخم (كليوباترا)، الذى ستقوم ببطولته ممثلة اسمها (جلوريا سميث) .. وافقت على شرط أن تقوم بالدور (اليزابث تايلور) - لو كانت عندهم واحدة - لأنها ستؤدى الدور بشكل أفضل !! شعراء يطلبون الآن فى نشر قصائد عن (كليوباترا) و (الكرنك)، وملحنون شبان يطلبون تلحينها .. وكتّاب سيناريو يطلبون كتابة سيناريو عن (إخناتون) ..

الجديد، اننى كنت أقدم قوالب جاهزة لكل هؤلاء كى يستعملوها .. حتى أن الملحن الشاب الذى عرفت أن اسمه (محمد عبد الوهاب) انبهر بشدة بالنداء المنبهر الملهوف (كليوباترا) الذى تبدأ به الأغنية التى تحمل هذا الاسم .. قال إننى عبقرى فهززت رأسى فى تواضع ..

واقترحتُ على مخرج مثقف، اسمه (شادى عبد السلام)، أن يقدم فيلمًا عن قبيلة تتعيش من سرقة المومياوات .. سألنى فى شرود عن الاسم الذى يطلقه على الفيلم ففكرت حينًا، ثم قلت :

- لا يوجد سوى اسم واحد يناسبه .. سمه (المومياء)..!!

- اسم رائع ..!.. أنت موهوب حقًا ..!

هكذا - ترون - كنت منهمكًا لأذنىَّ وسط كل هذا .. وتحولت قاعة الاستقبال فى الفندق إلى سيرك يضمّ مئات الشعراء والملحنين والرسامين والمخرجين وكتّاب القصة .. وكلهم جاءوا من أجلى ..

وتدريجيًا بدأت علاقتى تفتر بـ (سلمى) .. لم أعد أتذكرها إلا وقت النوم، حين تجلس على الفراش ترمقنى فى صمت بضع دقائق قبلما تكرّر سؤالها الخالد :

- (سالم) .. هل ضميرك مستريح ؟

فأقول وأنا أندس لاهثًا تحت الأغطية :

- جدًا ..!

لقد بدأ حسابى فى المصرف يتضخم - أخيرًا - أنا الذى لاأعرف مكان أى مصرف فى عالمى .. صحيح أنه حساب بعملة هذا الكوكب الغريبة، لكنه مال على كل حال، ويمكن - إذا أردنا الرحيل - أن نشترى به ذهبًا أو فضة أو يورانيوم (٢٧٣)، أو أية مادة يمكن استعمالها فى الكواكب الأخرى ..

- وماذا لو ذهبنا لأرض أخرى لاتعرف الذهب ؟..

هكذا تقول (سلمى) متشائمة .. فأنظر لها فى حنق وأقول :

إذن نتركها على الفور إلى كوكب آخر .. إن الكوكب الذى لايعرف الذهب، هو كوكب لايستحقنا !!

فتنظر لى فى حنان .. وتهمس :

- (سالم) .. متى نرحل ؟..

- حين .. حين ننتهى ..

- ومتى ننتهى ؟

- حين يعرفون ما نعرف ..

* * *

كانوا قد بدأوا ينقبون فى وادى الملوك، واجدين المومياء تلو المومياء لملوك الفراعنة العظام ..، وبفضل توجيهاتى، استطاع العلماء المصريون أن يجدوا مومياء (توت عنخ آمون)، منتزعين ذلك النصر من (لورد كارنافون) و (هوارد كارتر) صاحبى الكشف فى عالمى ..

وتدريجيًا تراكمت الآثار .. حتى صارت حاجتهم ملحة لبناء ذلك المبنى الشامخ الأنيق، فى ميدان (التحرير) : المتحف المصرى ..، وبدأت السياحة تنتعش .. والأسماء الفرعونية العزيزة تحتل مكان الأسماء اليونانية السخيفة .. وتاريخ (مصر) القديمة يتشكل ..

إننى عراف هذا العالم .. ولن ينتزع منى أحد ذلك المنصب ..

ولكن ..

ألا ترى معى شيئًا ما يثير الريبة فى كل هذا النجاح ؟!..

بلى ؟.. وأنا كذلك أوافقك ..

ثمة نذير شؤم يخيم على المناخ المزدهر .. إن الأمور لاتسير أبدًا بهذه البساطة والسلاسة ..

ثمة كارثة تنتظرنا .. لاجدال فى هذا ..

ولكن أين ؟.. وكيف ؟.. وهل سننجو منها ؟..

هذا ما ستعرفه بعد لحظات ..

★ ★ ★

٩ ـ الجانب المظلم من القمر ..

كنت عائدًا إلى الفندق منهكًا، بعد يوم حافل، حين استوقفني موظف استقبال الفندق (وهو بالمناسبة أبله تمامًا)، ليقول لى بابتسامة مشرقة :

ـ المدام ليست موجودة ..

ـ حقًا ؟..

ـ لقد غادرت منذ ساعة مع رجلين ضخمى الجثة !.. وقد خيل لى للحظة أن أحدهما يحمل مسدسًا مصوبًا نحوها، ويخفيه تحت معطفه، إلا أننى استبعدت هذا الاحتمال .. خاصة وأن المدام أخذت تختلس لى النظرات، وتأتى بحركات لا أفهمها بوجهها .. و...

قبل أن يكمل عبارته، كنت قد وثبت فوق (الكاونتر)، ممسكًا بياقة بذلته الحريرية .. والزبد يتساقط من فمى :

ـ ماذا قلت ؟!..

أعاد لى سرد القصة فى ارتباك، والرعب يتملكه .. يا لك من معتوه !..

لقد اختطفت زوجتى أمام عينيك .. وأنت لم تفهم حتى محاولتها لإخبارك أن هناك شيئا على غير ما يُرام ...، ولكن كيف ؟.. ومـــن ؟.. ولمـــاذا ؟.. هل تركت لك رسالة ما ؟

- نـ .. نعم .. قالت لك أن تقبع جوار التليفون ..

أطلقت سراحه ، وشرعت أثب السلالم ثلاثة ثلاثة قاصدا غرفتى .. ذهنى مضطرب كبكرة خيط لعبت بها قطة ...، ودخلت الحجرة فلم أر ما يثير الريبة .. كل شىء فى مكانه .. حتى جهاز (ناقل الجزيئات) فى موضعه تحت حشية الفراش ..

إن قرحتى تتحرك ، وآلامها تعتصرنى ..

جرس الهاتف يدق .. أجـفلت وهـرعت نحـوه كالملسوع .. سمعت صوتها العزيز عبر الأسلاك مُرهقًا خائفًا حبيبًا :

- (سالم) .. هذا أنا ...

- طبعًا .. طبعًا .. أين أنت ؟

سادت هنيهة من الصمت .. ثم عاد صوتها :

- لا أستطيع أن أقول .. إنهم شرسون يا (سالم) ، ولا يعرفون المزاح ، وهم ينذرونك إذا لم ترضخ لأوامرهم أن ...

قلت فى نفاد صبر :

- نعم .. نعم .. كالعادة .. سيرسلون لى أذنيك فى طرد ..!

- لا .. لا .. أسوأ من ذلك ..

- سينتزعون أظفارك بالكماشة ؟..

- بل أسوأ .. فهم يتمتعون بحاسة الابتكار للأسف .

وبدأت الدموع تغزو صوتها .. وأردفت منهنهة :

- سيضعون رأسى فى كيس ملىء بالفئران !

- الأوغاد !.. طريقة التعذيب الفيتنامية العتيقة !..

وهنا سمعت صوت جلبة .. وفهمت أنهم انتزعوا منها السماعة .. ثم سمعت صوتًا فظًا يقول بلكنة أجنبية :

- والآن .. كفى مزاحا .. نفذ أوامرنا وإلا ...

ثم وضع السماعة ، وساد الصمت !..

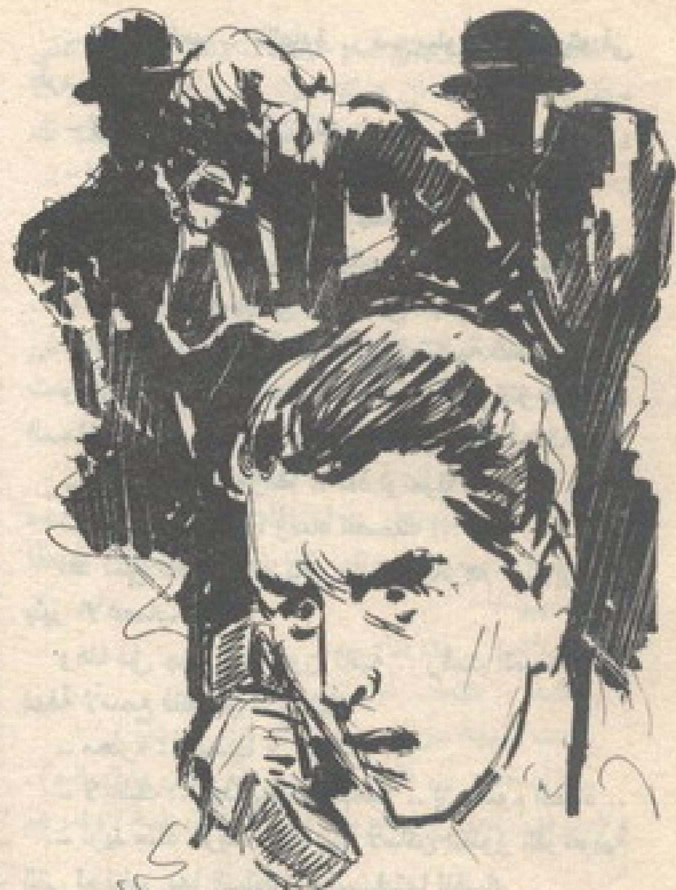
لقد نسى الحمقى أن يخبرونى بأوامرهم !!.. إن هذا يثير الأعصاب !..

وهنا دق جرس التليفون ثانية .. رفعت السماعة فى لهفة لأسمع ذلك الوغد يتكلم :

- معذرة !.. نسينا أن نوضح ..

- لا عليك .. فهذا يحدث للجميع .. إن هموم الحياة ..

- نريد منك خريطة تفصيلية لأماكن الكنوز الفرعونية التى لم تخبر بها السلطات واستبقيتها لنفسك .



وبدأت الدموع تغزو صوتها .. وأردفت منهنهة :

ــ سيضعون رأسي في كيس مليء بالفئران ! ..

ــ ومن قال إن عندى واحدة ..؟

ــ لأننا لسنا حمقى ..!.. انتظر مكالمة أخرى تحدد شروط اللقاء .. و .... كليك !

ساد الصمت مرة أخرى .. بعد ثوان عاد الجرس يدق فرفعت السماعة لأسمعه يقول فى حرج واضح :

ــ نسيت إن أحذرك ..

قلت فى نفاد صبر :

ــ طبعًا .. طبعًا .. ولا كلمة للبوليس، وإلا لن أرى زوجتى .. أليس كذلك ؟

ــ بلى .. معذرة لشرود ذهنى ..

ــ لا عليك .. عمت مساءً .. لا تؤذوها من أجلى ..

ووضعت السماعة شارد الذهن أنا الآخر .. يا لها من كارثة !

★ ★ ★

كانت أوجاع القرحة تمزقنى، لكنى لم أستطع أن أفعل شيئًا آخر، سوى أن أجلس وحيدًا فى غرفتى، أرشف فناجين القهوة، وأرمق جهاز الهاتف فى تشاؤم ..

يا لهم من حمقى ..!.. لقد ظنوا أننا نعرف عن كنوز الفراعنة أكثر مما كشفنا عنه .. وظنوا أنهم بالسيطرة علينا، يملكون مفاتيح خزائن (قارون) .. لكن جعلهم يفهمون سيكون عسيرًا بعض الشيء ..

والآن ليس لدى سوى أن أنتظر أو أبلغ الشرطة ..

الحل الأول كفيل بإصابتى بالجنون .. أما الحل الثانى فلن يزيد على محاولة تتبع خطوط الهاتف الأمر الذى لن ينقذنى من الجنون أيضًا .. ولكن .. ثمة شىء غريب ..

أشعر بالخوف لا القلق .. هناك فارق كبير بين الخوف والقلق ؛ وفى حالتى هذه المفروض أن يقتلنى القلق .. فماذا يخيفنى ؟!

أشعر بالجوع برغم أننى تناولت عشائى ..

وأشعر بالبرد برغم أن الغرفة دافئة ..

إن تفسير هذا ليس عسيرًا .. هذه ليست مشاعرى، بل هى مشاعر ذاتى الثانية - (سلمى) - فى سجنها البعيد !..

لقد ألفت هذا الخلط ولم يعد يدهشنى .. لكنه - فى هذه المرة - سيكون مفتاحى للبحث عنها ..

إنها كروموسوماتى .. وإننى لابد واجدها بشىء من الجهد لو تركت العنان لغرائزى .. إن كروموسوماتى النائمة فى خلايا جسدى، لقادرة على إيجاد كروموسوماتى النائمة فى خلايا (سلمى) ..

وسأفعل هذا وحدى دونما عون ..

* * *

الأمر عسير ..

شرعت أردد هذا لنفسى، وأنا أركب سيارتى الجديدة التى لم أحصل على رخصة قيادتها بعد ، وأجوب شوارع المدينة، مستسلمًا لشعور غامض، لا أعرف إلى أى حد هو صائب وإلى أى حد هو مزيف ..

المشكلة - قلت لنفسى - أن ما يربط بينى و (سلمى) ليس نوعًا من التخاطر (التليباثى) وإلا لغدا العثور عليها سهلًا .. إنه نوع غريب من الانتماء، كالذى يجذب الساق المبتورة نحو صاحبها، إذا كان هناك حقًا شىء كهذا ..!!

مشكلة الحضارة، هى أنها أتلفت - للأبد - غرائزنا البدائية .. وإن أى قط يحترم نفسه كان - حتمًا - سيجد زوجته، بعد ربع ساعة من اختفائها، لو كان فى مكانى .. لكننى لست قطًا للأسف !!

كنت أحمل معى جهاز (ناقل الجزيئات) والحنين والقلق يمزقاننى، حين وجدت شيئًا يدفعنى إلى السير فى ذلك الشارع الجانبى ..

* * *

كلا .. لا يمكن أن تكون هذه المدرسة هى وجهتى ..

مدرسة ابتدائية تصدع مبناها لا يمكن أن تكون هى ضالتى ..

كان الأطفال يملئون الشارع، في انتظار لحظة أن يفتح الباب الحديدي الصدئ، ليتراصوا في طابور الصباح .. ليلة كاملة انقضت عليّ في السيارة، غارقًا في حيرتي .. والآن المفروض أنني وصلت ..

كان هو الذي تعرف عليّ أولًا .. وجهه الشيطاني الأبله، ومريولته الزرقاء، والابتسامة الخبيثة بركن فمه الأيسر .. شريف !.. نسختنا الكروموسومية، التي نسينا عنها كل شيء .. يا للعنة !.. إذن فكروموسومات هذا المعتوه هي التي قادتنا إلى هنا .. وكنت أقتفي أثرًا مضللًا طيلة الوقت .

ـ أونكل !.. مرحبًا !.. رأيتك في التلفاز البارحة !!

فتحت باب السيارة، ونزلت منها .. وانحنيت على ركبتيّ جواره .. وشرعت أفكر .. إنني أمقت هذا الطفل السخيف، لكنه قد يكون ذا عون لي .. أولًا سيساعدني مجيئه معي، على التخلص من جاذبية كروموسوماته المضللة .. ثانيًا لو وحدنا غريزتينا أنا وهو، فلربما استطاعت روحه البريئة الشفافة ـ لو كان يملك واحدة ـ أن تساعدني على إيجاد كروموسومات (سلمى) ..

نظرت في عينيه .. وقلت :

ـ شريف .. أنت تذكرني و (سلمى) طبعًا ؟

ـ طبعًا .

ـ وتشعر أنك تنتمي لنا .. هل تفهم معنى (تنتمي) ؟

ـ لا ..!

ـ أعني .. تشعر أننا منك وأنك منا ؟

ـ لا ..!..

ـ يا لك من حمار ..!..

وهرشت رأسي مفكرًا .. كيف أوصل له فكرتي ؟..

قلت :

ـ حسن .. أنت شعرت بمقدمي يا (شريف) قبل أن تراني .. أليس كذلك ؟

هز رأسه أن بلى ..

ـ ثمة شيء ما يربط بيني وبينك وبين (طانط سلمى) .. هل تذكرها ؟

مرة أخرى هز رأسه أن نعم ..

فكرت في خطورة باحثًا عن الأسلوب الأمثل، لإقناع هذا الشيطان الصغير :

ـ قد خطفها اللصوص .. وسيقتلونها، وأنا بحاجة لمخبر عظيم مثلك يجدها لي .. فهلا ركبت معي ..؟

بدا عليه الحماس .. ففتحت له باب السيارة .. وأركبته جوارى، ثم أدرت المحرك، حين سمعت صيحة من سيدة صارمة الوجه، تبدو كإحدى المربيات الفضليات، وهى تشق زحام الأطفال لتلحق بنا :

ـ انت يا أستاذ !.. إلى أين تظن أنك تأخـذ هذا الصبى ؟!..

ـ معذرة يا سيدتى، فلا وقت عندى للشرح .. وانطلقت بالسيارة .. وفى المرآة الجانبية لمحتها تدون رقم سيارتى، فى وريقة أخرجتها من حقيبتها .. لا ألومها، فقد قامت بواجبها على أكمل وجه، على أننى أتحمل الآن ـ بجانب كل أعبائى ـ عبء أن أثبت للشرطة أننى لم أختطف الطفل ..!

ـ إنها أبله (اعتماد) .. الناظرة !

قالها لى مفسرًا .. وضحك فى بلاهة .. فزمجرت من بين أسنانى :

ـ هذا واضح .. وأكون شاكرًا لو أغلقت فمك يا أخ (شريف) !

* * *

هل تشعر بها ؟..هل تشعر بها ؟..

من عالمها البعيد جاءت وغدت لى ..، تعرف أسرارى وأحلامى وتتجاوز عن سخافاتى ونقاط ضعفى ..، إنها بريئة رقيقة .. فهل تشعر بها ؟..

أمسك بالمقود بيدى اليسرى، وأضغط كف الطفل الصغيرة بيدى اليمنى .. حاول أن تدوب فى خلايا كفى .. حاول أن تتوحد معى وتفكر مثلى .. إننا حتمًا واجداها ..، فقط ساعدنى ..

ـ هل نتجه يمينًا أو يسارًا ؟.. فكر أيها الطـفل السخيف .. فكر ..!

فيضع إصبعه فى فمه بحيرة .. ويهمس :

ـ لا أدرى ..

أضغط على أسنانى وأصيح بوحشية :

ـ بل أنت تدرى !.. فقط فكر ..!.. اشعر..!

فتلتمع الدموع فى عينيه .. ويسيل المخاط من أنفه .. ويهمس :

ـ يـ .. يسارًا ..

فأدير مقود السيارة إلى اليسار، وأضغط دواسة البنزين .. يجب أن أرفق بهذا البائس الصغير .. إن الخوف يعتصر قلبى، ومعنى هذا أنه خائف !.. إننى أمقت نفسى، ومعنى هذا أنه يمقتنى .. لا ريب أننى أبدو له وكأننى قد اختطفته ..، لكنى لا أملك السعة النفسية التى تسمح لى بأن أكون حنونًا حتى مع نفسى !..

وهكذا شرعنا نتحسس دربنا عبر شوارع القاهرة .. إننا نتجه نحو (حلوان) .. ويا لها من رحلة مضنية .. يمينا .. يسارًا .. يسارًا .. يمينًا .. هنا .. لا .. لا .. هناك .. بل هنا .. لاتقلق ..

والآن ها نحن أولاء نرمق ذلك البيت المنعزل، عند أطراف المدينة، حيث حملتنا غريزتانا .. إن الاحساس الغامض يتملكنى .. (سلمى) هنا ..!.. لاريب فى ذلك ..، نظرت لوجه الطفل فلمحت أنفاسه المبهورة تتلاحق من منخريه .. والحمرة تغزو خديه .. وهو لايجد ما يفسر به ذلك الشعور العجيب ..

قلت له مبللًا بلسانى شفتى السفلى :

ـ إنه هو .. هل تشعر به ؟

هز رأسه فى انبهار .. وشرع يرمق البيت ..، إنه إحساس لايوصف، ولايمكنني أن أقربه لك، وإلا لغدوت (شكسبير) هذا العصر ..، لو أنك تفهم ما تشعر به تفاحة نحو تفاحة أخرى، على نفس غصن الشجرة ؛ لو أمكنك هذا لأرحتنى من عناء الوصف !..

أدرت مقود السيارة متجهًا إلى أقرب قسم شرطة ..، وأنزلت الصبى على مسافة معقولة .. ثم أصدرت له تعليماتى :

ـ ستدخل هناك، وتخبرهم أنك قد ضللت الطريق .. وتطلعهم على اسمك وعنوانك ..، لاتذكر حرفًا عنى أو عن هذا البيت ..، إنك قد قدمت لى عونًا لن أنساه ..، يمكنك أن تثرثر كما تشاء حين تعود لدارك ..

قال فى حيرة :

ـ واللصوص ؟.. هل ستحاربهم وحدك ؟

ابتلعت ريقى .. وداعبت بأناملى شعر رأسه الخشن :

ـ سأحاول يا صغيرى .. أعدك أننى سأحاول !!

★ ★ ★

١٠ - الهرب من جديد ..

فكرة ملائمة .. فكرة ملائمة !..

إنه قدرى أن أقضى حياتى، عاصرًا خلايا ذهنى المنهكة، باحثًا عن فكرة .. إن مشكلتى الحالية ليست عسيرة .. بل هى - إلى حدّ ما - مستحيلة .. ها هو ذا البيت المكون من طابقين بجدرانه المتآكلة، التى تفوح منها رائحة القدم .. ثمة ماسورة مياه صدئة .. وبوابة حديدية مغلقة بقفل فظ، وجنزير كأنه مُنتزع من دبابة .. وداخل هذا المبنى .. زوجتى !..

والآن .. كيف أدخل ؟!..

كلا .. ليس ملائمًا أن أبلغ البوليس، لأن الأمر برمّته مجرد حدس .. ولست مولعًا برؤية ردّ فعلهم إذا ما تبين أننى معتوه ..

كلا .. ليس ملائمًا - أيضًا - أن أطرق الباب، لأننى لا أملك أية حيلة أبرر بها قدومى .. ولا أملك أية فكرة عن الوضع بالداخل .. أتسلق المواسير ؟.. لا تكن سخيفًا .. أنا لست لصًا محترفًا، ولست - بالطبع - قردًا .. لن تستفيد (سامى) شيئًا من تهشم جمجمتى ..

فكرة ملائمة .. فكرة ملائمة !

كل ما أحتاج إليه هو جزء من الثانية .. إصبع من أصابعها .. ألمسه وأضغط أى رقم على (ناقل الجزيئات)، من ثم نفرّ نهائيًا بعيدًا عن هذا العالم المشئوم .. لا أريد ما جمعت من مال .. لا أريد شيئًا .. أريد صغيرتى البائسة، التى لم أشعر بمعناها فى عالمى، إلا بعد أن فقدتها أو كدت ... فقط أعطونى فرصة لأهرب معها ..

بعيدًا .. بعيدًا ..

* * *

- هل تريد شيئًا ..؟!

كان هذا هو السؤال الذى حسم الموقف نهائيًا ... إذ بينما أنا شارد فى خواطرى الجنونية، شعرت بتلك الكف الباردة كالثلج الغليظة كالصخر تهبط على قفاى ..

التفت فى هلع، لأرى أسوأ كوابيسى، وقد غدا واقعًا ...

إنه رجل ضخم الجثة شرس المحيا، يقف خلفى ويرمقنى فى شك ..

إذن صدق حدسى .. لابد أن هذا هو مقر العصابة .. وهذا الوحش هو من كلفوه بحراسة البيت .. كيف فاتنى ذلك ؟

حاولت أن أقول شيئًا .. أن أفسر .. لكن كلامى جاء - بالطبع - مجرد دمدمة بلهاء لاتفسر شيئًا ... من الواضح تمامًا أن هذا الوغد مسلّح ..

وحتى دون سلاح، ستلعب عضلاته دورًا حاسمًا فى أى صراع محتمل ..

- قلت ماذا تفعل ؟

- مـ .. مـ .. بـ .. فـ .. لـ .. ص .. ش .. هـ .. مـ .. !

- إذن تعال معى ..!

ودون مناقشة جرّنى جرًا، وأولج مفتاحًا فى قفل الباب الغليظ، وهو يسبّ ويلعن ... ووجدت نفسى أصعد فى درجات رطبة شيطانية الرائحة، وثمة قط أجرب يرمقنى فى دهشة ..

وعند الطابق الأول مدّ يده وفتح بابًا .. دخلت خلفه إلى صالة أنيقة نسبيًا، تنم عن ذوق لا بأس به فى الأثاث ... وعلى مقاعد (أنتريه) حديث الطراز كان هناك بعض الرجال جالسين يدخنون، وقد بدا عليهم الارتباك حين رأونى .. ورمقوا حارسى فى تساؤل ..

قال الرجل مفسرًا وهو يطلق سراحى :

- كان يتسكع بالجوار .. ولم يعطنى تفسيرًا مقنعًا ..

كان الرجال يملكون عدة وجوه، لا أجد ما يدعونى لوصفها إلا إذا كنت تحب الثرثرة على غرار : رجل فى منتصف العمر نصف أصلع ضخم الجثة وله شارب !.. كانوا رجالاً وكفى ..!، فقط أحدهم بدا لى أجنبيًا إلى حدّ ما، وقوى الشخصية، مما يوحى بالزعامة ..

وهنا .. وهنا حدث ما أخشاه ..

ضاقت عيونهم فجأة شأن من يتذكر شيئًا ما .. ثم بدت عليهم علامات الفهم ..

وصاح أحدهم فى لهجة (أرشميديسية) بحتة :

- لكنه ... إنه ...

فساعده الآخر على التذكر :

- نعم .. هو .. زوجها ..!.. لقد جاء بنفسه !..

- وكيف استطاع أن ..؟

- أليس هو عرّاف العصر ؟!

وساد المكان جو من التحفز .. تصلبوا وقوفًا والتفوا من حولى ..

قلت فى حنق، وأنا أشعر أن الأمر كله قد غدا سخيفًا :

- أين زوجى ؟

أشار الأجنبى إشارة ذات معنى إلى حارسى .. ثم تأملنى بعينين زرقاوين لا تطرفان ... وقال نافثًا دخان سيجاره فى وجهى :

- إنها بخير .. بخير يا سيدى .

إنها تلك العربية ذات اللكنة الأجنبية التى سمعتها فى الهاتف ..

- أقدم لك نفسى .. (هنريكه شولتزمان) .. لص آثار محترف ...

- وشارد الذهن كذلك .....

ابتسم فى شىء من الخجل ... وأشار إلى .. إلى (سلمى) التى جاءت مع حارسها من مكان لا أعرفه .. كانت فى حال طيبة .. وقد بدا عليها الذهول حين رأتنى، ثم تبدلت نظرتها إلى ابتسامة بزاوية فمها اليسرى .. فخر الأنوثة والاطمئنان، و ... الحنين ...... كانت واثقة من أننى سأجدها ..

قال الرجل فى مودة :

- هأنتذا ترى أننا لسنا بهذه الشراسة ... وحالتها أفضل بمراحل من حالتك .. لكم تبدو مشوشًا ..!..

ثم أشار لها كى تجلس .. وعاد يرمقنى فى ثبات :

- وحدك ؟...

لم أدر كيف أجيب .. هل من الحكمة أن أتظاهر بأننى لست وحيدًا؟

أم أن هذا سيدفعهم لتصرف أحمق متعجّل ؟! على أنه وفّر علىّ عبء الإجابة ... إذ افترض مسبقًا أننى لست وحدى ..

فى رزانة مد يده إلى جيبى وشرع يعبث هنا وهناك .. ثم أخرجها ممسكة بـ .. جهاز (ناقل الجزيئات) ..

هتف أحد الواقفين فى جزع :

- هذا جهاز (تتبع) خاص بالشرطة !.. إنهم خلفه ..!

يا لك من أحمق ..!.. كنت أبدأ فى الصراخ مقسمًا لهم إنه ليس كما يظنون .. إلا أن الهر (شولتزمان) أخذ يتأمل الجهاز فى خبرة بضع ثوان ... ثم هز رأسه :

- لا أعتقد يا (حلمى) .. لقد رأيت العديد من هذه الأجهزة، ولا أحسبه واحدًا منها ... إنه أقرب للآلة الحاسبة .

تنهدت الصعداء .. لقد نجونا .!.. وهنا سمعته يواصل الكلام مناولًا الجهاز لـ (حلمى) هذا :

- لكننا لن نترك شيئًا للظروف .. خذه .. وتأكد من تحطيمه ..!

* * *

مرة أخرى يا (سلمى) تبرهنين لى أنك الأكثر ذكاء وحكمة ... كيف كانت ستخطر لى فكرة مماثلة كالتى بادر عقلك إلى ارتجالها ؟..

ما إن أمسك المدعو (حلمى) بالجهاز، قاصدًا المكان الذى يحطمون فيه الأجهزة - إن كان عندهم واحد - حتى صرخت فى هستيريا واثبة من مقعدها :

ـ أيها السفاح ..!.. إنك تقتله !!

نظر لها الرجل فى بلاهة ـ وأنا كذلك ـ فبادرت مفسرة :

ـ إنه (منظم ضربات القلب) الخاص به .. ومن دونه يتوقف قلبه خلال ثوان !!.. انظر له !.. إنه يموت !!..

منظم ضربات قلب ؟.. فكرة لا بأس بها .. أعرف شيئًا كهذا، لأن عمًا لى كان يحمل جهازًا مماثلا، ومن دونه تختلّ الإيقاعية الكهربية لعضلة قلبه .. و ... المهم الآن أن أتظاهر بأننى أصبت بنوبة قلبية .. آمل ألا يكون بينهم طبيب أمراض قلب، أو لديهم رسام قلب كهربائى ..!

لم أحتج لكثير من الجهد، لأن توتر الموقف تكفل بجعل أطرافى باردة كالثلج .. ولعاب كثير سال من شدقى .. و .... سقطت على الأرض كصخرة تهوى من قمة جبل .. وسط عويل (سلمى) :

ـ أيها الأوغاد !.. زوجى !.. أعيدوا الجهاز !!..

تكفلت (سلمى) بلعب دورها ببراعة، أغرقتهم فى بحر من الدموع والصراخ الهستيرى واللكمات، حتى لم تترك لهم فرصة للتأكد مما إذا كان فى الأمر خدعة ... لقد أصابهم الذعر الهستيرى هم أيضًا ..

صاح الأجنبى فى هلع :

ـ حسن .. حسن .. أعيدوا له الجهاز .. كفى عن الصراخ يا امرأة !

وهكذا شعرت بيد تدس الجهاز فى جيبى ... وعلى الفور بدأت علامات التحسن التدريجى تبدو علىّ !!.. وفتحت عينىّ فى إنهاك .

ـ غريب هذا ..

قالها الأجنبى وهو يهرش رأسه :

ـ أنا واثق أن (منظم الضربات) لا يبدو كهذا .. لكنى ـ على كل حال ـ متأكد من أنه ليس جهاز اقتفاء أثر ... على العموم سنخاطر .. إننى أريدك حيًا .. احتفظ بلعبتك هذه إذن .

انحنت (سلمى) فوقى وأخذت تجفف العرق البارد من على جبينى ..

همست لها وأنا ألهث :

ـ منظم ضربات ؟!.. يا لها من فكرة ..!

قالت فى حنق من بين أسنانها :

ـ لم أجد فكرة أفضل .. لماذا لم تنقذ أنت الموقف ..؟

جلس الهر (شولتزمان) على الأريكة جوارى .. وداعب بأنامله ركنى فمه كمن يفكر .. ثم قال بعد هنيهة :

- الآن يا هر (سالم) أعتقد أن تعاونك أمر مفروغ منه .. إن ذكاءك يسمح لك بتخيل ما سنفعله .. لن يتم أى نوع من الإيذاء لشخصك، بل لشخص يهمك أمره، ولن أذكر اسمه طبعًا ..!

قال أحد الجالسين فى شك :

- إننى أرجو أن يفسر لنا أولًا سر مجيئه .. قد نكون فى خطر داهم فى هذه اللحظات ..

ابتسم الهر (شولتزمان) فى ثقة، وبدأ يفسر وجهة نظره :

- لا أظن .. إن الشرطة لم تكن لتغامر بشخص شديد الأهمية مثله للبحث عن مقرنا .. على الأقل كانت سترسل مخبرًا لاستكشاف المكان، أو كانوا سيقتفونه - كالعادة - بالانتظار حتى يعرف مكان الصفقة، ويتم تتبع مندوبنا ..، إن الأمر كله لايزيد على مغامرة فردية يائسة، قام بها الهر (سالم) مستعينًا بموهبته التى نجهل عنها كل شىء، وحاسبًا نفسه بطلًا من أبطال السينما .. مثل (هنرى جيسون) ..

من هو هذا الـ (هنرى جيسون) ؟.. أعتقد أنه معادل (جيمس بوند) على هذا الكوكب ..!، على أن الثعلب قد أجاد الاستنتاج حقًا .. كل ما أريده لحظة انفراد تتيح لى معالجة أرقام الجهاز .. لحظة واحدة .. ترى متى سيقومون بسجننا ؟..

قال الهر (شولتزمان) فى تؤدة :

- على كل حال .. لا أرى ما يمنع تغيير مقرنا بأقصى سرعة ..

- رأى صائب ..

وفى هذه اللحظة ..

دوى صوت ضربات عنيدة صارمة على الباب الحديدى للبيت ..

الباب المغلق .. لحظات من التوتر .. ثم هرع أحدهم يختلس نظرة بين خصاص النافذة الخشبية .. وهتف فى هلع :

- شرطيان !!..

* * *

- يا للكارثة !

واستدارت العيون نحوى ترمقنى فى اتهام ..

لابد أنه الطفل (شريف) .. لم يحفظ وعده لى .. وفى المخفر حدثهم عن اختطافه وعنى وأشياء مريبة كثيرة، جعلتهم يصممون على زيارة البيت الذى أخذته إليه، ليعرفوا ما هنالك .. بالطبع هم يؤمنون أن الطفل يهذى بخياله الواسع .. وبالطبع هم لم يعيروا الأمر أية جدية، لكن رد فعل هؤلاء الأوغاد لن يكون سهلًا ..

التمعت عينا الأجنبى فى وحشية .. وهتف :
ـ كان حدسى خاطئًا يا هر (سالم) .. لكن دعنى أؤكد لك أن أوان المزاح قد انتهى .. أية محاولة لتحذيرهم ستكون وبالًا عليكما ..
وأشار إلى الرجل قوى البنيان، الذى ألقى القبض علىّ .. وأمره :
ـ أخفهما فى البدروم .. ثم افتح الباب وتظاهر بالبراءة .
أخرج الرجل مسدسًا قبيح الشكل فوهته أطول من اللازم مما جعلنى أدرك أنه مزود بكاتم صوت ... وفى احتراف أشار لنا كى نتقدمه إلى باب خلفى ..
باب يقود إلى درجات محطمة، تقود بدورها إلى قبو عفن ...
كانت (سلمى) ترتجف رعبًا .. أما أنا فكنت أتحرق شوقًا إلى اللحظة التى يتركنا فيها هذا الثور وحيدين، كى تتلامس يدانا .. ونضغط زر الجهاز الحبيب ..
كان قبوًا كأى قبو آخر، لايميزه سوى عمودين خشبيين لايصلحان سوى لشىء واحد ... وبالفعل تناول الرجل حبلًا ليفيًا مُلقى على الأرض .. وأشار لـ(سلمى) تجاهى .. وهتف :
ـ هيا ..... قيديه سريعًا ثم قفى لأقيدك !!

* * *


وبالفعل تناول الرجل حبلاً ليفيًا مُلقى على الأرض .. وأشار لـ (سلمى) تجاهى ..

كلا ..!.. إن الهرب يحتاج لأن تكون يداى حرّتين ..

دون أية كلمات مددت يدى لجيبى مخرجًا الجهاز وقذفته إلى (سلمى) .. ثم استدرت نحو الرجل .. سأراهن على شيء واحد .. أنه لن يطلق علينا الرصاص دون تعليمات عليًا من رئيسه ..

وهكذا ألقيت بجسدى على المسدس ووجهت فوهته بعيدًا ..

يا لقوة الرجل الكاسحة !.. كأننى أصارع جرّارًا .. الشرايين توشك أن تنفجر فى فودىّ .. لكنى سأصمد ..

الطرقات تزداد شراسة وعنفًا على الباب الحديدى الصدئ ..

- (سلمى) !.. مـ .. ماذا تنتظرين ؟..

صفعة شرسة على خدى .. لكمة مروعة مزقت شفتى .. مذاق الدم الصدئ .. فى الواقع كنت عمليًا أتدلى من المسدس بينما الثور يطوّح بى فى هواء البدروم، ويوجه لى ضربات غير آدمية .. تلاشى عقلى تمامًا مستشعرًا أننى خفاش متعلق فى ساق دابة ..

على كل حال هو لم يطلق رصاصة واحدة، مما يدلنى على أنه في حيرة من أمره .. ولم تكن قوته الكاسحة لتدع له حاجة لأن يطلق ..

- (سلمى) !.. أيتها الحمقاء..!!

الطرقات تزداد شراسة .. وعيى يتسرب منى .. أنشب أسنانى فى كفه فيسبّ ويوجه لى المزيد من اللكمات ..

- (سلمى) ..!..

- اتركه يا (سالم) !.. اتركه وإلا أخذناه معنا !!..

اتركه ؟.. يا لها من كارثة !.. إن تركه أعقد من التشبث به !.. و ... لكمة عارمة وجهها لى كانت هى فرصتى .. فتركتها تقذفنى إلى الحائط، لأسقط جوار (سلمى) .. (سلمى) التى واصلت ضغط أزرار الجهاز فى برود كأن ما يحدث لا يعنيها .. ثم فى صرامة أمسكت يدى .. وهتفت بين أسنانها :

- هيّا ..!

وضغطت زرّ الإدخال ..

فلم يحدث شيء ..!!

* * *

١١ ـ الخاتمة ..

يا للكارثة !..

لم يحدث شىء !..

بينما ذلك الثور يتقدم نحونا ، وعلى وجهه نظرة لاداعى لوصفها ..

ـ (سلمى) !.. ماذا حدث ؟

ـ لاأعرف .. ربما هى البطاريات ..

فى هذه المرة يرفع الثور مسدسه نحونا .. وينفرج ثغره عن ضحكة ذئب ..

ـ (سلمى) !.. افعلى شيئا ..!

ـ صبرًا .. ربما لو أعدت ترتيب الـ... نعم .. هكذا . الثور يتقدم .. أقسم أننى أرى الزبد يسيل من شدقيه ..

ـ (سلمى) !..

ـ حسن ..!.. امسك يدى .. هيا ..!

و ....

اختفى القبو من حولنا ..

* * *

أخيرًا ...

ها نحن أولاء ذائبان فى الزمان والمكان .. لكم قتلنى الهلع .. ما شعورى لو رأيتك جوارى محملقة العينين والدم ينز من ثقب فى جبينك ؟!..

ـ يا لك من بشع !!..

يضايقنى أننا لم نعاقب هؤلاء الأوغاد .. كلا .. لاتحسب أنهم نجوا .. فالشرطة ستجد عندهم أشياء مريبة عديدة .. حقيبتى .. فردة من حذائك ، وبقعًا من دمك فى القبو .. ثم هم لابد يخفون أشياء أخرى لايسرهم أن يجدها رجال الشرطة ..

ـ دعينا ننس كل هذا ..

دعينا نستمتع برحلتنا هذه عبر المجرات ..

ـ أنت نسيت كل شىء عنى .. أهملتنى تمامًا حين وجدت النجاح ..

ـ لقد كنت أحمق .. هذا هو كل شىء .

ـ هل ترى هذه المجرة ؟.. إنها وطننا الجديد .. الكوكب رقم .. رقم .. لقد نسيت .. ضغطت الأرقام عشوائيًا ..

لايهم .. يكفينا أننا معًا .. معًا ..

* * *

قرأ المدير الأوراق الأخيرة فانفرجت أساريره (أخيرًا) :

- لابأس يا (سالم) .. كنت أريد بعض (الضرب) .. بعض اللكمات والركلات من أجل شيء من الحيوية ... إن الفكرة لابأس بها، والآن أعتقد أنك ستستمر فى هذه السلسلة ..؟

- بالطبع يا سيدى .

- وما هى الحلقة التالية ؟

هرشت رأسى فى إرهاق .. ثم قلت :

- لم أفكر بعد يا سيدى .. أعطنى فرصة .

ضغط المدير على السيجار بأسنانه .. وغمغم :

- حسن .. لن أطبع هذه قبل أن تأتينى بعدة حلقات .. إن ما أريده هو الاستمرارية .. هذا ما يجب أن أتأكد منه ..

ونظر فى عينىّ بثبات مؤكدًا كلماته :

- الاسـ..ـتـ..ـمـ..ـر..ا..ر..يـ..ـة..!

* * *

أعدت لى (سلمى) قدحًا من القهوة، وجلست جوارى تداعب قطتنا الصغيرة، وابتسمت بزاوية فمها اليسرى :

- ألا تخشى أن ينكشف الأمر ؟!..

رشفت رشفة من فنجان القهوة .. وقلت :

- أن يعرف المدير الحقيقة ؟.. أن قصتى الجديدة عن (سلمى) القادمة من عالم موازٍ هى حقيقة واقعة ؟.. لاأظن يا ملاكى .. من الصعب أن يتخيل أحد ذلك ..!

- وماذا إذا عرف ما هو أسوأ ..؟

- أننا نحن معًا قادمان من أرض أخرى، إلى هذا العالم الموازى، باحثين عن النجاح عن طريق سرد مغامراتنا ؟.. لاأظن .. ولن يتخيل .. إنه يظن أن هذا الكوكب هو الأرض الأصلية، فى حين أن الأرض الأصلية بالنسبة لى هى الكوكب (١١٢-ب-٧٥) .. وبالنسبة لك هى الكوكب (٤١٩-أ- مجرة [تازما مالورى]) ..

- أى أن المدير نفسه يعيش فى كوكب من كواكب مغامراتنا ..!

ثم أمسكت رأسها .. وضحكت :

- سيصيبنى الدوار ..!.. أرجوك كفى !!..

ثم إنها أطلقت سراح القطة .. وتساءلت :

- ما هى قصتك التالية ؟!

وضعت فنجان القهوة ومسحت فمى :

- لتكن قصتنا مع ... مع المغول ..

- لكنها شنيعة .

- .. والمقبرة .. والمومياء المحترقة .. و ...

- هيه !.. لاتفسد القصة أرجوك .. اكتبها الآن ..!

وأنتم يا رفاق ..؟.. أريد أن أطمئن قبل أن أفارقكم .

هل ستلحقون بنا فى ..

أرض المغول ؟!!

* * *

١٢ ـ ما بعد الخاتمة ..

مرحبًا يا رفاق ..!.. مضيفكم (رفعت إسماعيل) يعود إليكم بعد انتهاء هذه القصة العجيبة التي رواها لنا (سالم) ..

لن ألقي أحكامًا على عواهنها .. ولن أزعم أنه معتوه ـ برغم أن الإغراء شديد ـ ولن أدعي أنه نصاب ـ وما أمتع أن أقولها ـ بل سأكتفي بأن أحك رأسي الأصلع، وأغمغم أن كل هذا غريب .. غريب إلى حد لا يوصف ..

إن لغزًا من أكثر الألغاز غرابة يحيط بهذا الفتى الخجول، وزوجته اللطيفة التي تشبهه ـ بالمناسبة ـ إلى حد مريب !... ومهما كان رأيكم في قصته هذه، فلا أخال أحدكم يجادلني في أنها كانت جديرة بأن أحكيها لكم ..

بصيص آخر يلتمع لعيني من عالم ما وراء الطبيعة .. عالم الألغاز التي سنموت ويموت أحفادنا قبل أن نراها، دعك من أن نجد لها تفسيرًا ..

والآن .. لقد انتهى دوري .. سأعود في القصص القادمة إلى ذكرياتي الشنيعة، التي لا أجد أرق منها كي أحكيه للأسف !.. على أنني أعدكم أن أشارككم في كل قصة جديدة، يحكيها لي هذا الزميل الغامض .

والآن أعود لعالمي الكئيب ..

كان هذا في أوائل عام ١٩٦٧، حين تبدلت مفاهيمي وآرائي في كثير من الأمور، إثر صدامي مع كائن لم أتوقع أبدًا أن له وجودًا، حتى في أشد كوابيسي شناعة ..

لكن هذه قصة أخرى !

د . رفعت إسماعيل

القاهرة ـ ١٩٩٢

* * *

روايات
مصرية للجيب

٢٢٩

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة أرض أخرى

إنه حلم .. لكنك ستعيشه كأنه واقع ... أرض أخرى تشبه أرضنا كثيرًا .. وتختلف عنها كثيرًا .. (أنت) آخر يشبهك كثيرًا .. ويختلف عنك كثيرًا ... دع له يدك كي يقودك عبر دهاليز ذلك العالم العجيب ..

إنه حلم .. ولكن هل نفيق منه حقًـــا ؟

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة لعنة الفرعون

الثمن في مصر

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



33

ما وراء الطبيعة

أسطورة أرض المغول

مقــدمة

مرحبًا بكم ..

الآن - وقد حانت الساعة السابعة - يمكننا أن نبدأ جلسة أخرى مـع الشيخ (رفعت إسماعيل) ، الذى كان بودنـا لو اعتبرنـاه شبيهًا بـ (شهـرزاد) ، لولا سعاله المزعج وتجاعيده وصلعتـه البراقـة ونحولـه الذى لا يُصدَق ..

(شــهرزاد) كـانت مضطـرة لأن تحكـى قصصًـا مسلية للأبد ؛ حتى لا يطيِّر الأخ (شـهريار) رأسـها الجميل ..

و (رفعت) مضطر لأن يحكى قصصًا يحـاول أن تكون مسلية ؛ حتى يجد سببًا واحدًا لاستمراره فى الحياة بعد الستِّين .

انتهى وقود (شهرزاد) من الحكايات بعد ألف ليلة وليـلة .. فمتـى ينتهـى وقـود (رفعت إسـماعيل) العجوز ؟ بعد قصة ؟ بعد خمسين ؟ بعد مائة ؟

مـازال فى جعبتى الكثير على كـل حـال .. وفـى الغالب سأقضى نحبى وأنا أتكلَّم ..

سألنى كثيرون منكم عما حدث لـ (هارى) بعد قراءة التعاويذ الاسكتلندية (فى رعب المستنقعات) .. وسألنى آخرون عن مصير (هارى) والدمية فى (حكايات التاروت) ..

هذه هى مشكلتى .. إننى أترك - فى زحفى للأمام - جيوبًا مطوّقة لا تنتهى .. وعلىّ أن أعود لأقضى عليها .. هكذا تقضى استراتيجية (ليدل هارت) ..

سأعود لهذين الجيبين وجيوب أخرى كثيرة فى الكتيبات القادمة ..

وهأنذا أعود لجيب قديم منسى .. (سالم وسلمى) .. لقد أرسلا لى عدة مغامرات من مغامراتهما العجيبة فى أبعاد أخرى .. وكنت قد وعدتكم بأن أقدم لكم (أرض المغول) .. وهو وعد تأخرت فى الوفاء به خمسة وعشرين كتيبًا .. وبضعة أعوام .. لكنى لن أنتظر أكثر ..

فى الصفحات القادمة أترك للأخ (سالم) الصفحات تمامًا .. وأعدكم بأن أعود فى نهاية الكتيب لأقدم رأيًا سخيفًا لا لزوم له على الإطلاق كعادتى ..

إذن اقلبوا الصفحة أو انظروا لليسار ..

وهلموا إلى (أرض المغول) ..

★ ★ ★

مقدمة أخرى

اعتاد (رفعت إسماعيل) العجوز أن يقدّم لكم فى أول صفحتين أو ثلاث من قصصه ، ملخصًا سريعًا للأجزاء السابقة .. وغالبًا ما يكتبه تحت عنوان (فلننعش ذاكرتنا) أو أى عنوان سخيف آخر ..

والحق أننى أجد فى هذا نوعًا من التعنت ، يفترض أن القارئ له ذاكرة متطايرة لا تصمد فيها التفاصيل .. ولهذا لن أضايقكم بملخص من هذا النوع ، أو - على الأقل - بهذا الطول المفرط ..

أنا (سالم شحاته) .. وزوجتى (سلمى شحاته) .. ونحن نسختان كاملتا التشابه .. لكن هذا لا يعود إلى تجارب الاستنساخ - التى يتحدّث عنها الجميع - لكن يعود إلى أننا من عالمين متشابهين فى مجرتين مختلفتين ..

و(سلمى) هى التى تملك جهاز (ناقل الجزيئات) الذى ينقلها باستمرار وسط أبعاد أخرى .. ومن قرأ الكتيب الثامن يعرف أننا غادرنا الكوكب (٣٢٢ - ب - ٣) هاربين بجلدنا من عصابة كادت تفتك بنا ..

هذا كاف جدًا .. ويمكننا أن نبدأ السرد دون تعقيدات .. أنتم الآن تعرفون قواعد اللعبة .. فلماذا لا تنطلق صفارة بدء اللعب ؟!

★ ★ ★

١ ـ أين نحن ؟

تمَ التجسد فى قبو مظلم رطب عطن الرائحة متسخ مهجور ..

برغم هذا كنا قادرين على أن يرى بعضنا البعض .. وأدركت أننا نبدأ مغامرتنا فى هذا العالم الجديد فى أسوأ حال من البعثرة و(البهدلة) .. فالدماء تسيل من شفتى ومن أنفى .. وقد فقدت فردة حذاء ، بينما شعر (سلمى) قد تحول إلى حزمة من الكتان .. وأنفها أحمر كأنف إسكافى ثمل من أبطال (تشيكوف) ..

ـ « هل أنت بخير ؟ »

وهو سؤال سخيف لأننا نشعر بذات الأشياء معًا ، بنفس الطريقة .. ومعنى أن كل عظمة من عظامى مهشمة ، هو أنها ليست أفضل حالاً ..

ـ « لقد فررنا فى الوقت المناسب .. »

ـ « دقيقة أخرى كانت ستحولنا إلى لحم مفروم .. »

ثم إنها جلست متكئة على ذراعيها المفرودتين .. وسألتنى :

ـ « قبو آخر ؟ »

ـ « هذا واضح .. إنه بدروم وكر العصابة فى هذا الكوكب .. وبالطبع يقع خارج (حلوان) هذا الكوكب .. »

وللأسف كان ضغطها على الأرقام عشوائيًا فى (ناقل الجزيئات) ، لذا صار من المستحيل أن نعرف رقم هذا الكوكب .. على كل حال لن يحدث هذا فارقًا كبيرًا .. إنها أرض أخرى وكفى .. أرض تشبه أرضنا هذه فى أكثر الأشياء وتختلف عنها فى أشياء معينة لها أثر لا يُصدق ..

ونهضنا متثاقلين .. وبالطبع نزعت فردة حذائى الباقية طلبًا للتماثل .. ثم اتجهنا إلى مخرج القبو .. كان الظلام دامسًا لكن (سلمى) ألقت ملاحظة عابرة :

ـ « يبدو أن هذه أرض بلا فئران .. »

تفكرت فى كلامها حينًا .. حقًا لم نر فأرًا واحدًا فى هذا القبو .. لكن لا معنى لهذه الملحوظة :

ـ « لا يوجد فأر هنا .. لكنى لم أر فى حياتى الفئران تقف لاستقبالى بلافتات الترحيب فى كل مكان أزوره .. لنقل إن هذا قبو نظيف .. »

تشممت الهواء وقد تقلص وجهها .. وقالت :

ـ « بالعكس .. العطن فى كل مكان .. والقاذورات .. لو لم يوجد فأر هنا فلا فئران فى هذه الأرض أساسًا .. »

وبدأنا نرقى فى درجات السُلَم المتصدعة ذات الصرير .. يوجد باب فى أعلى الدرج .. لكنه مواربَ لحسن الحظ ..

حبسنا أنفاسنا .. ومددتَ يدى إلى المقبض لأزيد مجال الرؤية حينما سمعنا أنَة .. أنَة صادرة من خلفنا لا من أمامنا ..

لقد كان هناك أحد فى القبو معنا ! تبًا لهذا الكلام .

ـ « هل سمعت ؟ »

هزَت رأسها أن نعم .. وازدادت التصاقًا بى ..

هنا لمحنا شيئًا يتوهج فى ركن القبو البعيد .. شيئًا أقرب إلى عود ثقاب يتحرك ليعانق فتيل شمعة .. ثم غدا الضوء واضحًا .. واستطعنا أن نرى امرأة ..

كانت راقدة فوق قطع من الخرق تم حشدها كيفما اتفق لتكون فراشًا بدائيًا .. وجوارها دورق ماء مكسور وشمعة وسكين ..

أما عن المرأة نفسها فلم تكن تثير الذعر لأنها

مخيفة .. بل لأنها مذعورة أكثر منا .. إنه ذلك النوع من الخوف الذى يجعل العينين تجحظان والشفتين تتقلصان .. ويغدو المرء معه مرعبًا أكثر من أى شبح ..

وأدركنا ـ برغم هلعنا ـ أنها شقراء زرقاء العينين .. وأنها مريضة .. ربما هى تحتضر .. ودون أن نعرف سببًا لذلك رحنا ننزل فى الدرج ، متشابكى اليدين ، مسحورين عاجزين عن الرحيل دون أن نفهم ..

وسمعناها تقول شيئًا بصوت مبحوح جافّ ..

ـ « بلـ .. يز .. دون كيـ .. ل .. مى ! »

احتجنا إلى بعض الوقت كى نفهم أنها تتكلم الإنجليزية .. وأنها تقول لنا ألا نقتلها من فضلنا .. لا بأس .. إنها مذعورة مثلنا .. هذا يجعلنا أدنى إلى التفاهم ..

ولكن ما سرها ؟ من وضعها هاهنا ؟ هل هى مخطوفة ؟

دنوت منها .. وركعت جوارها أكثر لأفهم وأسمع ..

ومن عينيها فهمت أنها تدنو من الجنون أو جنّت فعلًا .. مددت يدى كى أربّت على ذراعها مترفقًا .. لكن (سلمى) صاحت فى حزم :

ـ « (سالم) ! لا تفعل ! »

التفتَ لها غير فاهم .. فقالت بنفس الحزم :

ـ « ابتعد عنها ! قف هنا بجوارى .. »

تراجعت .. ووقفت حيث طلبت .. إن (سلمى) أحكم منى وأسرع تفكيرًا .. ربما لفارق السن بيننا .. لهذا عرفت أن لديها سببًا مقنعًا ..

قالت وهى تشير لأسفل :

ـ « هل ترى ؟ يوجد خراج ضخم فى خُنَ فخذها .. »

كان الغطاء منحسرًا عن رجل المرأة .. واستطعت أن أرى ما تقول (سلمى) .. يبدو لى هذا المشهد مألوفًا .. ولكن أين ؟ أين ؟ فأوضحت لى الأمر :

ـ « خراج فى خُنَ الفخذ .. وحمى .. وفئران لا وجود لها .. بالتأكيد ماتت كلها .. إن خبرتى الطبية معدومة لكن كل هذا يشير إلى .. الطاعون[*] ! »

هبطت علىَّ الكلمة كصاعقة كهربائية .. فتراجعت للوراء ..

كانت المرأة تحاول جاهدة الوصول لنا للتمسك

(*) وباء الطاعون : يبدأ بموت الفئران .. من ثم تغادر البراغيث أجسادها لتغزو أجساد البشر ..

بقدمى .. لهذا واصلت التراجع فى ذعر .. فلنغادر هذا القبو حالاً يا (سلمى) ..

ووثبنا على درجات السلم درجتين فى الوثبة .. حتى وصلنا إلى الباب ..

وهذه المرة غادرنا القبو وأوصدناه وراءنا ..

ثم وقفنا على الجانب الآخر نستجمع أنفاسنا ..

★ ★ ★

ـ « طاعون ؟ ما معنى هذا ؟ »

قلت لها وأنا أنفض ثيابى من براغيث وهمية ملأتها :

ـ « واضح أن هذه الأرض تعانى وباء الطاعون .. وهذا يعنى أن الإغراء شديد كى نضغط على مجموعة أخرى من الأزرار .. »

ـ « لحظة .. كيف تضمن أننا لم نلتقط العدوى بعد ؟ »

ـ « بـ .. بهذه السرعة ؟ »

ـ « طبعًا .. برغوث واحدٌ يثب من ثيابها إلى ثيابنا .. وهذا معناه أن ننقل العدوى إلى كوكب آخر برىء ! »

كدت أصاب بجلطة دماغية من الغيظ .. وصحت فيها :

ـ « يا سلام ! ونبقى هنا بانتظار مزيد من البراغيث ؟ فلننفض ثيابنا ونفرّ من هنا فرارنا من الأسد .. »

ـ « اصبر يا (سالم) .. لا بد من أن نفهم أولاً .. »

وللمرة الأولى رفعنا عيوننا نتأمل المكان الذى نحن فيه ..

★ ★ ★

كان البيت متواضعًا .. متواضعًا وضيقًا كجحر فأر ..

لكن أسلوب التأثيث .. والتقويم المعلق على الحائط .. وصورة مُطرب (الروك) الملصقة على الباب ..

كل هذا كان يشى بأننا لسنا فى بيت مصرى ولا عربى .. نحن فى بلد ما أجنبى ..

وبالتأكيد كانت المصادفة هى ما جعلنا نتجسد فى قبو مماثل للقبو الذى بدأنا رحلتنا منه .. ولكن أين نحن حقًا ؟

ـ « فريز ! دون موف ! »

واستدرنا فى ذعر نحو مصدر الصوت ..

كانت هناك فوهة بندقية عتيقة مصوبة إلينا ..

والبندقية تحملها عجوز شمطاء لم يبق جزء فى وجهها إلا وداست عليه دبابات الزمن .. وتأكّد ظنى أننا فى بلد ناطق بالإنجليزية .. (إنجلترا) أو (أمريكا) أو (أستراليا) أو .....

بدأ الجزء اللغوى فى عقلى يعمل .. وبدأت أسترجع اللغة الإنجليزية التى لم أستعملها منذ دراستى الجامعية .. حتى لكأنى أرى ترجمة (أنيس عبيد) على صدر العجوز التى توجه البندقية لنا عازمة على تفجير رأسينا ..

- « من أنتما ؟ »

- « نحن .. نحن صديقان .. لقد جئنا بطريق الخطأ .. »

ضيقت العجوز عينين لا تريان .. ودنت منا أكثر .. ثم غمغمت :

- « لا يبدو لى أنكما منهم .. ما هذه الملامح المتشابهة ؟ هل أنتما توءمان ؟ توءمان أجنبيان ! ماذا أتى بكما إلى (أمريكا) ؟ من أين ؟ »

كانت الإجابة هى - بالترتيب - نعم .. لا ندرى .. (مصر) ..

وعند هذا الجزء كانت قد دنت منا أكثر من اللازم .. وتخلت عن حذرها .. لهذا لم أر ما يؤذى فى أن أنتزع ماسورة البندقية من يدها بقوة ، وأضع ساقى فى طريقها فى أثناء اندفاعها .. لتسقط على الأرض ككومة العظام وقد فقدت سلاحها ..

هرعت (سلمى) لتعينها على النهوض .. وهى تعاتبنى :

- « حرام يا (سالم) ! ألا ترى أنها خائفة لا أكثر ؟ »

- « لو ضغطتْ على الزناد .. فلن يهمنى ما إذا كانت خائفة أم لا وهى تقتلنى .. إن الحالة النفسية لقاتلى لا تعزّينى كثيرًا كما تعلمين .. ثم من أدراك أن هذه المرأة غير مصابة بالطاعون ؟ »

لكنها ساعدت المرأة المرتجفة على النهوض .. فأجلستها على أريكة متداعية .. بينما اتجهت أنا لأعلق البندقية على مسمار صدئ يبرز من الحائط .. وعدت لأجلس شاعرًا بأن البراغيث تملأ ثيابى ..

متهاتفة تساءلت العجوز :

- « إذن لم تجيئا لقتلها ؟ »

- « قتل من ؟ »

- « (كارول - آن) .. إن أوامر (أوجوتاى) صارمة .. »

- « آه .. فهمت ! »

لقد اتضح كل شىء : إن (أوجوتاى) الصارم قد أمر بقتل (كارول - آن) .. هذا سهل .. ولكن من (أوجوتاى) ؟ ولماذا يريد قتل (كارول - آن) ؟

- « هل (كارول - آن) هى الموجودة بالقبو ؟ »

- « نعم .. هى ابنتى الوحيدة .. »

- « وهل رآها الأطباء ؟ »

تقلّص وجه العجوز .. وجحظت عيناها لتثير الرعب فى نفسينا .. وقالت :

- « طبعًا لا .. لو أنهم عرفوا أنه الطاعون فلن .. »

ثم ازدادت حيرة .. وفى ذهول سألتنا :

- « ألا تعرفان كل هذا ؟ قانون (بيدرا) .. كل مرضى الطاعون يُحرقون أحياء مع المنزل الذى وجدوا فيه .. »

قالت لها (سلمى) فى صبر بانجليزيتها العرجاء :

- « لنقل إننا سائحان حديثا المجىء هاهنا .. هل لهذا تخبئينها فى القبو ؟ »

- « طبعًا .. فالنار هى العلاج الوحيد الذى يعرفه الأطباء للطاعون .. »

فكّرت (سلمى) قليلاً .. وراحت تبلل شفتها السفلى بطرف لسانها ثم سألت المرأة :

- « أين نحن بالضبط ؟ »

- « ومن أنتما بالضبط ؟ »

قالتها بسؤال مماثل وهى تنقل بيننا عينين جاهزتين للأسوأ ..

قلت لها وأنا أتحاشى عينيها :

- « هذه قصة طويلة ولن تصدقى منها حرفًا على أى حال .. فلنبدأ بالإجابة على سؤالنا نحن .. ما هو هذا المكان ؟ »

- « أنتما فى (نيويورك) .. »

تبادلت النظرات مع (سلمى) .. لقد ابتعدنا كثيرًا عن (مصر) إذن .. ولم نجرؤ على سؤالها عن أى زمن هذا حتى لا تظن المرأة بنا الظنون ..

لكن التقويم المعلق على الحائط كان يشير إلى ديسمبر ١٩٩٢ ..

هنا قالت (سلمى) وهى تتخلل بأناملها خصلات شعرها :

- « هل تتوقعين مقدم رجال هذا الـ .. الـ (أوجوتاى) هنا ؟ »

- « عرباتهم تذرع الحىَّ منذ الصباح .. وأنا هنا جاهزة للأسوأ .. »

ولم أدركْ أنَّ المثل القائل (اللى يخاف من العفريت يطلع له) صادق ، إلا حين سمعت طرقات عنيفة على الباب .. طرقات بوليسية .. طرقات قوة غاشمة تعرف أن من حقها أن تتواجد حيثما تريد .. متى تريد ..

هبت المرأة واقفة .. ونظرت إلينا .. وصاحت :

- « إنهم قد جاءوا ! »

- « من هم ؟ »

- « الشرطة طبعًا .. كنت أعرف أن هذا سيحدث .. والآن ..... »

- « افتحى الباب ! »

دوّى الصوت خارج الباب بنبرة غليظة لا تدل على اللطف ..

- « هل تحملان بطاقات عبودية ؟ »

بطاقات عبودية ؟ يا له من اسم ! بالطبع لا نحمل ..

ولا نريد أن نتشرف بحمل بطاقات لها هذا الاسم الرهيب ..

الطرقات تزداد عنفًا .. واضح أنهم سيهشمون الباب سريعًا ..

هتفت المرأة وهى تتجه إلى البندقية المعلقة :

- « لو لم تكن معكما بطاقات ، فعليكما بالهرب .. إنهم يعدمون فى الحال كل من لا يملكها .. هاك ! النافذة الخلفية .. ستقودكما إلى الزقاق .. هيّا ! »

- « افتحى الباب ! »

جذبت (سلمى) من معصمها نحو مخرج الهرب .. لكنى لم أنس أن أنتزع البندقية من يد العجوز .. وقلت لها فى رفق :

- « هذا سيجعل النتائج وخيمة بالنسبة لك ! »

باحتجاج هتفت ، وهى تتشبث بالماسورة :

- « وخيمة أو غير وخيمة .. لن أدعهم يحرقون ابنتى وأنا حية .. »

كان الوقت أضيق من أن يضيع فى الجدال ..

(دبشك) البنادق ينهال على خشب الباب ، الذى يدهشنى أنه أمتن مما ظننت ..



لكنى لم أنس أن أنزع البندقية من يد العجوز ...

قالت (سلمى) بالعربية :

ـ « دعها يا (سالم) .. إنها معركتها وعليها أن تخوضها .. »

أما نحن فلنهرب ..

وحين ساعدت (سلمى) على وضع قدميها على إطار النافذة ، سمعت خشب الباب يتهشم ..

لهذا وضعت قدمى بدورى ووثبت ..

كانت النافذة فى الطابق الأرضى ، لهذا سقطنا سقطة هينة وسط علب الطعام الفارغة وأكياس القمامة .. والقطط التى تبحث عن فئران لن تجدها ..

رائحة الزقاق عفنة جدًا .. والأرض مغطاة بطبقة من مياه المجارى ..

ومن داخل الدار سمعنا المرأة تصرخ :

ـ « لا .. لا أحد يقتلها .. لا أحد .. »

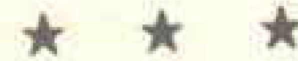
ثم طلقة رصاص واحدة خرقاء .. تلاها سيل من الطلقات من بنادق آلية كأنه يحفر نفقًا فى أعصابنا .. وشممنا رائحة البارود الطازج ..

بعد ثوان شممنا رائحة الدخان .. ورائحة الخشب

المحترق .. لقد بدءوا حرق البيت بمن فيه كما قالت المرأة لنا منذ دقائق ..

شعرت بتقلص فى معدتى .. لكن هذا لم يمنعنى من أن أهمس لـ (سلمى) :

ـ « لقد رأينا ما يكفى .. والآن اختارى كوكبًا آخر أرجوك .. »



٢ ـ أرض المغـــول ..

خرجنا من الزقاق لنجتاز عدة شوارع متقاطعة بلا عابرى سبيل ..

وكان منظرنا لا يُوصف فى أرقى لغة إلا بأنه مثير للريب .. فتاة مبعثرة الشعر ، ورجل أنفه يدمى وحافى القدمين .. والأدهى أنهما متشابهان تمامًا ..

بالطبع لم تقبل (سلمى) أن تترك الكوكب لعدة أسباب :

١ ـ ربما كنا نحمل الطاعون معنا الآن .. وهذا يعنى تلويث عالم آخر برىء ..

٢ ـ أين روح المغامرة لدىّ ؟ لماذا لا ننتظر بعض الوقت لنعرف المزيد ؟ لو اتبعنا هذا الأسلوب فإننا سننهى كل احتمالات الجهاز (ناقل الجزيئات) ، دون أن نقضى فى أى كوكب أكثر من ربع ساعة ..

٣ ـ إن الهرب متاح دومًا حين تسوء الأمور أكثر من اللازم ..

٤ ـ لا معنى لدخول عالم آخر بذات المظهر المشوش .. على الأقل يجب أن نبدو فى مظهر أكثر احترامًا ..

كانت حججها مقنعة فيما عدا الحجة الأولى طبعًا ..

وهكذا واصلنا رحلتنا دونما سبب سوى انتظار أن تسوء الأمور ..

★ ★ ★

كان الطقس باردًا .. باردًا إلى حدّ أن أفكارى تجمّدت قبل قدمىّ الحافيتين .. ولم تكن الثياب التى علينا مناسبة لهذا الصقيع ..

نبتاع ثيابًا أثقل ؟ لا يمكن .. لأننا لا نحمل دولارات ولا نحمل مالاً فى الأساس .. يبدو أنها ورطة لا خلاص منها ..

وعند الناصية سمعنا من يأمرنا بالتوقف ..

لهجة انجليزية رديئة لكنها كافية لتفزعنا ..

واستدرنا ببطء لنرى رجلاً قصير القامة يرتدى ثيابًا حمراء .. واضح أنه زىّ رسمى ما .. وعلى رأسه خوذة سوداء .. وفى يده بندقية آلية من النوع الذى يُحمل بيد واحدة كالمسدس .

أما عن ملامح وجهه فتستأهل وقفة .. إن عينيه ضيقتان مشقوقتان شقًا جانبيًا .. ووجهه مزاج من الصفرة والسمرة .. وشاربه طويل مفتول ينساب على جانبى فمه .. والوجه ـ ككل ـ يعكس شراسة لا تسرّ النفوس ..

الحق أنه يبدو كالمغول لو أن المغول لديهم رجال شرطة ..

ورأيناه يشير لنا كى ندنو منه ..

دنونا ونحن نجرّ قدمينا .. بينما هو يرمقنا بثبات من عينيه الناريتين ..

ـ « بطاقات العبودية .. بسرعة ! »

★ ★ ★

إنهم يعدمون فى الحال كل من لا يملكها .. هاك ! النافذة الخلفية ..

★ ★ ★

مددت يدى إلى جيبى بحثًا عن بطاقتى الشخصية لعلها تصلح هنا .. وهنا توتر الرجل وبلهجة منذرة هتف :

ـ « ببطء ! »

أخيرًا تنهّدت معلنًا عن استسلامى .. ورسمت ابتسامة رياضية مرحة على وجهى وقلت (إننى أعرف كيف أجتاز هذه المشاكل بدبلوماسية) :

- « الواقع أننا نسيناها فى البيت يا زميل .. ولكن .. لو أنك سمحت لنا أن .. »

- « قفا أمام الجدار ! »

- « إن السفارة المصرية قد تفسر الأمر لو .... »

- « أمام الجدار ! »

وتراجعنا ببطء .. ولحسن الحظ لم يخطر ببالنا أن الرجل سيقوم بإعدامنا .. فالأمور لا تجرى بهذه البساطة أبدًا .. لهذا تراجعنا كما طلب .. وألصقنا ظهرينا بالحائط .. لكنى لم أحبّ كثيرًا الطريقة التى عالج بها شيئًا فى مؤخرة بندقيته ثم رفعها نحونا ..

- « (سالم) .. ماذا سيفعل بالضبط ؟ »

- « لا تقلقى .. إنه سيقتادنا إلى المخفر طبعًا .. »

وبوجه صلب كالرخام هتف الشرطى :

- « بناء على تعليمات (أوجوتاى - خان) وقانون (بيدرا) رقم ١٧ - هـ ؛ سيتم إعدامكما فى الحال استنادًا للتفويض الممنوح لى ! »

- « إنه يمزح .. لا تظهرى ذعرًا حتى لا تنعشى قلبه ! »

- « أنا غير مذعورة .. فما زلت لا أفهم .. »

بوم !

طلقة واحدة مختصرة جدًا .. كل هذا المدفع من أجل طلقة تافهة كهذه ؟ لكننا رأينا الشرطى يترنح ثم يسقط على وجهه .. وبين لوحى كتفه رأينا ثقبًا أحمر ينزّ دمًا ..

وعرفنا أن أحدهم أطلق عليه الرصاص من الخلف ..

كانا رجلين .. برزا لنا من وراء صندوق قمامة كبير .. أحدهما أبيض أشقر الشعر قد عقص شعره على هيئة ذيل حصان .. أما الآخر فزنجى قد ضفّر خصلات شعره المجعّد فى ملايين الضفائر الصغيرة ، كما يفعل فى عالمى المطرب (بول مارلى) ، أو الحسناء (بو ديريك) .. هل تفهم ما أعنيه ؟

وكانا يرتديان سويترين جلديين فوق كنزات ثقيلة .. وفى يدى كل منهما قفازان .. هذا هو ما استطعت رؤيته فى الثانية الأولى ..

فى الثانية الثانية رأيتهما يهرعان إلى جثة الشرطى .. وبحركات منظمة لا تردّد فيها ولا ارتجال ،

رأيت الأشقر ينزع عن الرجل ثيابه .. والزنجى ينزع البندقية وهو يتلفت حوله فى حذر .. ثم .....

- « هلم يا رجل ! هناك من سمع هذه الطلقة حتمًا ! »

وهرعنا كالأرانب المذعورة إلى زقاق .. فزقاق أضيق .. ثم إن الزنجى تلفت حوله فى حذر .. وركع على ركبته ليرفع الغطاء عن فتحة مجرور .. ودعانا كى نهبط فيه بسرعة .. لكننى بلا حذاء !

هبط الأشقر أولاً وعلى كتفه ثياب الشرطى .. ثم (سلمى) .. فأنا .. فالزنجى الذى تأكد من غلق الفتحة ..

ونزلنا بعض درجات محفورة فى الجدار .. ثم تقدمنا - ومياه المجارى تصل لسيقاننا - فى ممرات مظلمة ، لا نتبين طريقنا إلا فى ضوء مشعل صغير يحمله الزنجى .. ولم تكن هناك فئران لحسن الحظ .. كالعادة ..

وأخيرًا كان هناك شىء صخرى مرتفع يشبه المنصة إلى حدّ ما ، أمكننا أن نتسلقه كى نجلس فوقه ، بعيدين عن المياه المتعفنة من تحتنا ..

أخرج الأشقر شمعة من ثيابه .. وأشعل فتيلها .. ثم ثبتها فى الصخر بقطرات ذائبة منها .. وعندها فقط عدنا إلى التنفس ..

والغيظ يلتمع فى عينيه الصفراوين هتف الزنجى بلهجة فظة :

- « أنتما أغبى حمارين يمكن العثور عليهما ! لا أدرى كيف يعيش الحمقى إلى هذه السنّ برغم كون الاحتمالات كلها ضدهم .. »

صعد الدم بدوره إلى رأسى .. وقلت :

- « سيدى .. إذا كنت قد أنقذتنا فأنا لك شاكر .. لكن هذا لا يعنى أن تهيننا دون سبب .. وإلا يمكنك إعادتنا إلى الزقاق وإعادة الشرطى إلى الحياة .. وانس الموضوع تمامًا .. »

قال الأشقر باسمًا وهو يحاول تخفيف الجوّ :

- « لا عليكما .. إن (تومى) لا يجيد انتقاء عباراته .. لكنه طيب القلب كجدّة عجوز .. أنتما من (الخاسرين) .. أليس كذلك ؟ »

تبادلت و (سلمى) نظرة .. هل من الحمق أن أنكر أننى من (الخاسرين) وأخبرهما بالحقيقة ؟

لا حيلة أمامى .. من يدرى ؟ لربما طالبانى بإبراز بطاقة الخاسرين ليتأكدوا من شخصيتى ..

- « نعم .. لسنا منهم .. نحن مصريان .. و..... »

- « مصريان ؟ »

قالها الزنجى فى ذهول .. ثم واصل ثورته ..

- « مصريان .. وتمشيان فى (سنترال بارك) ليلاً ؟ إن المغول لا يطيقون العرب ، ويقتلونهم قبل أن يتمكن أحدهم من لفظ (الراء) فى كلمة (عربى) .. ألم أقل لكما إنكما أحمقان ؟ »

ابتلعت ريقى وكتمت عنهما أفكارى .. طاعون ومغول و (خاسرون) .. ما هذا العالم بالضبط ؟

- « وكيف وصلتما إلى (نيويورك) ؟ »

هنا وفَّر علينا الأشقر عناء البحث عن إجابة .. وقال :

- « بالطبع جاءا مع (أبو فراس) .. إن الجرثومة لا تستطيع العبور من الحدود كما تعلم .. من حسن حظكما أننا كنا هناك بالمصادفة ، ورأينا المغولى على وشك إعدامكما .. يجب ألا تظهرا فى الطرقات قبل أن نستخرج لكما بطاقات عبودية مزوَّرة .. أى تصرف غير هذا هو انتحار .. »

قالت (سلمى) وهى تنتقى كلماتها بعسر :

- « لقد قتلوا عجوزًا وابنتها .. لأن الأخيرة مصابة بالطاعون .. »

قال الزنجى فى تهكم :

- « مرحبًا بكما فى (نيويورك) .. هذا المشهد يتكرَّر عشرين أو ثلاثين مرة كل يوم .. وهى طريقة فعالة حقًا لأن الوباء بدأ ينحسر .. »

- « ألا يوجد نوع من الأمصال أو المضادات الحيوية أو .... ؟ »

- « هذه الأشياء للأولاد الأثرياء فقط .. إن موت خمسين أو ستين ألفًا من الرعاع لن يضايق المغول فى شىء .. وهكذا يجدون للطاعون فائدة مزدوجة : القضاء على الفئران .. القضاء على الرعاع الذين تشبه حياتهم الفئران .. »

- « وأنتم ؟ كيف تحمون أنفسكم ؟ »

- « إن « أبو فراس » قد استطاع تهريب مائة جرعة من مصل (هافكين) .. وقد أجريت قرعة لمعرفة من سينجون منا .. أما الباقون فهم يكتفون بمقاومة البراغيث وتنظيف ثيابهم جيدًا .. »

ـ « إن (أبو فراس) وكل رجال منظمة (فتح) .. يمكن الاعتماد عليهم .. »

تبادلت و (سلمى) نظرة عابرة .. هو ذا الخلط المألوف بين العوالم يحدث ثانية .. ففى هذا العالم تكافح منظمة (فتح) والأمريكيون من أجل القضاء على المغول .. من الواضح أن هذين الرجلين يمثلان نوعًا من الثوار .. من المتمردين على سلطة قاهرة شمولية يمثلها المغول ..

بالنسبة لـ (سلمى) كذلك بدا الأمر غريبًا وإن كان لأسباب مختلفة .. ففى عالمها لا توجد قوة قاهرة سوى العرب أو ما تسميه (أ. ع. م) ..

قال الأشقر وهو يجمع ثياب الشرطى ويدسها فى كيس :

ـ « والآن نأخذكما إلى مقر الخاسرين .. هناك أشياء كثيرة يجب ترتيبها قبل أن تجازفا بالظهور فى الشوارع .. »

ودعانا إلى أن نتبعه ..

★ ★ ★



قال الأشقر وهو يجمع ثياب الشرطى ويدسها فى كيس !
ـ « والآن نأخذكما إلى مقر الخاسرين ..

٣ - أسئلة .. أسئلة ..

لن أحكى هنا عن شبكة الممرات شديدة التعقيد التى رحنا نمشى خلالها وسط المجارى .. إن هؤلاء القوم يحفظون المجارى كما تحفظ أنت خطوط كفك .. ومن الواضح أنهم لا يغادرونها إلا لمامًا .. ليقتلوا شرطيًا أو يفجروا عربة شرطة .. أو يكتبوا بعض عبارات السباب ضد المغول على جدار ، مستعملين علبة (سبراى) وقطعة من خشب (الأركت) المفرغة .. ثم يعودون إلى المجارى من جديد ..

أما عن مقرهم الرئيسى فى (نيويورك) فيقع تحت (سنترال بارك) .. ويشبه كهفًا عملاقًا دعمت جدرانه بألواح الخشب .. وتتدلى المصابيح الواهنة من سطحه ..

ويوجد عدد هائل من حقائب النوم على الأرض .. يتناثر عليها رجال منهكون ، منهم من ينظف سلاحه ، أو يقوم بربط الأسلاك فى عبوة ناسفة ، أو يكتفى

بعضهم بالنوم .. وثمة مدفأة كهربية تحاول جاهدة أن تجعل المكان رحبًا ..

وكانت هناك أربع أو خمس فتيات لا بأس بجمالهن ، لكن وجوههن اكتست بطبقة مريعة من الصرامة والجدية .. ربما التوحش .. وهن يعملن كما يعمل الرجال ويتحملن ما يتحملون .. ويبصقن كما يبصقون ..

بالإضافة لهذا توجد بعض المنشورات ملصقة على الجدار ، وورشة خراطة لتصنيع أسلحة بدائية ، وبعض صناديق الديناميت التى لم تُبذل أية محاولة لتفادى شرّها كأنها تحوى بعض البسكويت ..

قال الأشقر الذى عرفنا أن اسمه (كالاهان) ، بعد ما التقط لنا صورة :

- « سيتم إعداد بطاقتى عبودية لكما .. لكن هذا يحتاج إلى بعض الوقت .. »

ومن فراشه الأرضى نهض عملاق زنجى أصلع .. كأنه ديناصور يفيق من سبات طويل .. كان عارى الجذع يكشف عن أضخم مجموعة من العضلات اللامعة بالعرق رأيتها فى حياتى ..

تقدَّم نحونا وهو يزمجر من منخريه الواسعين ، حتى ظننت أن هذا مشهد من فيلم (كينج كونج) .. ثم قال بصوت لا يقل رقة عن مظهره :

- « من هذان يا (كالاهان) ؟ »

- « إنهما مصريان يا (ماك - جورج) .. »

- « ومن قال إنهما ليسا جاسوسين لعينيْن ؟ »

- « إن شرطيًا مغوليًا كان على وشك إعدامهما منذ ساعتين .. »

تأملنا فى شك بعض الوقت ، حتى كدت أصرخ وأعترف .. أعترف بأى شىء ؟! لست واثقًا فى الحقيقة ..

ثم إنه غمغم من بين أسنانه :

- « حسن .. لكن كن حذرًا .. ولو رأيت ما يريب قُل لى فحسب ! »

وعاد يكوّم جسده الضخم على الحشية ..

عاد (كالاهان) يطلب منا أن نستريح بعض الوقت ، إلى أن يفرغوا من تزوير البطاقتين لنا .. وجلب لنا بعض الشطائر ، وعلب مياه غازية اسمها (منغوليا) وطعمها ليس أفضل من اسمها !

- « الآن حان الوقت .. »

قلتها لـ (سلمى) همسًا ، وكانت تفهم تمامًا ما أريد قوله .. حان الوقت للهرب من هذا العالم .. فقد رأينا ما يكفى .. إن بدء المغامرة فى عالم يصطرع فيه المغول مع الثوار ، ويُقتل العرب قبل لفظ حرف (الراء) ؛ لهو دليل كاف على نهايتها .. وكانت موافقة تمامًا هذه المرة ..

جلست على حشية ، وأخرجت (ناقل الجزيئات) .. بينما أمسكتُ يدها اليسرى فى حرص .. لا أريد أن أتركها ترحل لأعيش أنا هاهنا مدى الحياة ..

ها هى ذى تضغط عشوائيًا .. (٢٠٠ - د - .....) ..

فى اللحظة التالية وجدت نفسى فى ركن القاعة ، وثلاث فوهات مدافع مدفونة فى عنقى .. و(سلمى) تقف فى الركن الآخر تقول شيئًا ما .. بينما العملاق الزنجى يتفحص الجهاز فى ريبة ..

- « قلت لكم إنهما جاسوسان .. لكنكم تظاهرتم بالعبقرية .. »

قالت فتاة شقراء ، صوتها كصوت رجل مصاب بسرطان الحنجرة :

- « ربما هما انتحاريان .. يحاولان تفجير شحنة من الديناميت .. »

- « أو هو جهاز إرسال يبلغ مكاننا للشرطة .. »

مرة أخرى يتكرّر هذا الموقف السخيف ..

قلت محاولاً أن أجد مسافة تتحرك فيها حنجرتى :

- « لا هذا ولا ذاك .. هذه آلة حاسبة لا أكثر ولا أقل .. »

تفحصها العملاق بضع دقائق .. وداعب بعض الأزرار فيها ليتأمل الحروف على شاشتها ..

★ ★ ★

من القائل : لو أنك أعطيت قردًا آلة كاتبة ، وتركته يعبث مليون سنة .. لربما وجدت أنه قد كتب قصيدة لـ (شكسبير) ؟

★ ★ ★

لحسن الحظ لم يحدث هذا .. لم يكن قردًا ولم يُمنح مليون سنة يجرب فيها .. فقط جرّب الأزرار مرتين .. ثم هزّ رأسه :

- « إنها أقرب إلى مفكرة إلكترونية .. على كل حال سأبقيها معى ! »

هتفت الفتاة وهى تسلك أسنانها بطرف خنجر ..

- « وماذا لو كانت جهازًا لاقتفاء الأثر ؟ »

- « لا يوجد جهاز اقتفاء أثر مزوّد بمفاتيح رقمية .. وكذلك القنابل .. »

ثم دسّ الجهاز فى حزامه .. وعاد يرمقنا فى شك .. فحولنا عينينا عنه ..

نحن محبوسان هنا إلى أن يقرّر إعطاءنا الجهاز ، أو أتحوّل أنا إلى (أرنولد شوارزنجر) أو - على الأقل - (الشحات مبروك) .. كى أثب لأوجه له لكمتين يفقد وعيه بعدهما .. وانتزع الجهاز من حزامه .

بدأ الجمع يتفرّق .. وبدا أنهم نسوا أمرنا مؤقتًا ..

فعدت و (سلمى) إلى افتراش الحشيّة ، وفى رأسينا من الخواطر السوداء ما لا داعى لذكره ..

- « لم يكن هذا خطئى .. »

قالتها ردًا على اللوم الذى وجهته لها فى سرّى ..

كانت هناك بعض الكتب متراصة على رفّ من المعدن الذى لا يصدأ .. وكانت على بعد ذراعين منى ، فمددت يدى ومررت إصبعى على الهوامش :

دائرة المعارف البريطانيـة - تاريخ العالم - أساليب حرب العصابات ..

انتزعت كتـاب (تـاريخ العـالم) مـن موضعـه ، ورحت أقلّب فى صفحاته النظيفة ناصعة البياض (فلا أحدًا يقرأ هنا على الأرجح) ..

★ ★ ★

(سيف الديـن قطـز) .. (الظـاهر بيـبرس) .. موقعة (عين جالوت) ..

لا شىء .. هوووور ! هذا غريب ..

★ ★ ★

تدنى (سلمى) رأسها الصغير من رأسى ، وتصغى لترجمتى لما هو مدوّن بالإنجليزية فـى مجلد (تـاريخ العالم) :

الأبطـال

فـى عـام واحـد بتقويمنـا العظيـم ، وعـام ١١٦٢ ميلادية بتقويم النصارى ، ولد مرشدنا وقائدنا العظيم (تيموجيـن خـان) الـذى سـمى بعـد ذلـك باسـم (جنكيزخان) أى سيد الحكام(★) ..

(★) كل المعلومات التالية حقيقية .

كان الخان العظيم يؤمن بالدم ، ويؤمن بأن رجولـة الرجال لا تنضج إلا على وهج النيران ونصال السيوف ..

وفى الثالثة عشرة من عمره استطاع أن يقـود جيوشنا ، ويوحّـد قبائلنـا التـى أنهكتهـا الصراعـات والحروب الأهلية ..

انظر أيها العالم ! انظرى أيتها الشعوب السقيمة .. أيها اليهود والنصارى والمسلمون .. هى ذى قـوات الخـان التى لا تهاب المـوت ، سنابك خيولها تنهـب الوديان والفلوات .. وصرخات محاربيها الأشدّاء تصمّ آذان الشعوب التى أوهنها السلام ..

ها نحن أولاء نتجه إلى (الصين) .. لقد سمّانا الصينيون باسم (شعب الخنازير) .. وبنوا لنـا سـور الصين العظيـم حاسـبين أنهـم بهـذا يـردون أمـواج غزواتنا ..

لكـن الخـان العظيـم اسـتطاع أن يقتحـم السـور ، ويحتل (الصين) ، وينال بلاد (الترك) بكل بكواتهـا وسلاطينها المتخمين .. وينال (روسيا) ..

وتوفى الخـان فـى عـام ٦٥ مـن تاريخنـا و ١٢٢٧ بتقويم النصارى .. وتلاه ابنه (أوجوتاى خان) الذى

واصل فتوح أبيه العظمى ، بجنده الذين يقاتلون كالأبالسة ، ويلتهمون اللحم النيىء ، ولا يستحمون أبدًا لأنهم طاهرون ..

ثم جاء (باتوخان) ليواصل الفتوح .. ودانت لنا (بولندا) و(ألمانيا) ..

ثم انطلق (هولاكو) العظيم ليظفر ببلاد العرب كلها .. ويحتل (أوروبا) التى لم تر الهول منذ عهد (أتيلا) ملك الهون(*) ..

فى القرون التالية ، استطاع جندنا العظام أن يفتحوا أكثر (إفريقيا) و(آسيا) .. وتمكن فاتحنا العظيم (أميرجى خان) من عبور الأطلنطى فوجد هناك شعبًا من الهنود الحُمر .. واستطاع أن يحتلَّ بلادهم ، ويرسل لها جيشًا من المغول وألوفًا من عبيدنا البيض الأوروبيين .. وصار اسمها (أمريكا) تيمنًا بحروف اسمه ..

لقد تفرغ رجالنا العظام للحرب .. بينما تفرغ عبيدنا الصفر والحمر والسود والبيض للزراعة والاختراع من أجل منفعة أمة المغول العظيمة ..

(*) كل المعلومات التالية غير حقيقية .

وكذا تمكن عبد إيطالى من اختراع اللاسلكى .. وعبد أمريكى من اختراع الكهرباء .. وعبد ألمانى من اكتشاف القنبلة الذرية .. وعبد فرنسى من اختراع آلة العرض السينمائية التى ترى الناس أمجادنا .. وغزا العبيد الروس الفضاء ، لكننا ظللنا هاهنا ننتظر حتى يلقوا هناك شعوبًا تستحق أن نغزوها ونعمل فيها الذبح والتقتيل ..

المجد للمغول ! فهم الأقوى والأشجع والأذكى ..

ومنذ عهود فرساننا العظام الذين تركوا الشمس وراء ظهورهم ، وراحوا بجيادهم ينهبون الأرض نهبًا ، تاركين وراءهم خطًا من الدخان الأسود واللهب ..

حتى فرساننا العظام الذين ألقوا قنابلهم النووية فوق (موسكو) من طائراتهم الـ(خان ـ ١٩) .. نجد أن روح المغول لم تتغيَّر .. وما زالوا بنفوس متوثبة يقاتلون فى كل مكان .. ويشربون لبن الفرس المختمر فى جماجم أعدائهم بعد كل نصر ..

فإن لم يجدوا حروبًا على الأرض ، أرسلوا المكوكات الفضائية تبحث فى الفضاء البعيد عن دماء يسفكونها ..

المجد للمغول ! والويل كل الويل لمن يجرؤ على مقاومة إرادتهم السامية ، التى هى إرادة الكون ذاته ..

★ ★ ★

أنهيت قراءة هذا الجزء من الكتاب .. ووجدت أنه يحوى ـ عدا ذلك ـ آلاف الأسماء للحروب التى تنتهى كلها بـ (حرق القرى وذبح الرجال ودفن الأطفال وبقر بطون الحوامل) .. تاريخ طويل يبدأ من القرن الثانى عشر وحتى القرن العشرين .. وآلاف (الخانات) العظام الذين لا يكفون عن حرق أعدائهم أحياء ..

والمثير هنا أن الكتاب كان دراسيًا .. وكان موجهًا لتلاميذ الصف الرابع الأولى .. أتمنى أن أرى وجه الصبى الذى سيفرغ من قراءة كتاب كهذا .. لا بد أنه سيقضى بقية حياته فى مستشفى الأمراض العقلية ، مصابًا بالعته الذهولى ..

تبادلت و (سلمى) نظرة واضحة المعنى ..

لقد اخترنا أسوأ عالم ممكن .. كما هو ظاهر لكل ذى عينين ..

★ ★ ★

سألتنى همسًا :

ـ « ماذا تستنتج من كل هذا ؟ »

قلت لها وأنا أتأكد من أن أحدًا لا يراقبنا :

ـ « الأمر واضح .. هذا العالم يحكمه المغول بألعن حكم عسكرى ممكن .. ومن الواضح ـ كذلك ـ أن الثورات لم تنجح ضدهم .. بدليل أنهم يتمتعون بسيطرة كاملة بعد ثمانية قرون .. »

ـ « لكن كل أقطار العالم تحتفظ بأسمائها التى نعرفها .. »

ـ « حقًا .. لكنها ليست بلدانًا مستقلة .. إنها أقرب إلى الولايات أو المحافظات التى يسيطر عليها حاكم واحد .. لست واثقًا مما إذا كان (أوجوتاى) هذا حاكم (العالم) أم حاكم (الولايات المتحدة) .. لكنه مرعب بما يكفى على كل حال .. »

عادت تسألنى كأننى حكيم الأزمان :

ـ « وما سرّ الاختلاف الذى جعلهم يسيطرون على الأرض ؟ »

ابتسمتُ .. فلم أتصوّر أنها لم تلحظ ..

ـ « لأنه لا يوجد (قطز) فى هذا العالم .. ألم تفهمنى بعد ؟ »

★ ★ ★

٤ ـ فلنذب وسط الزحام ..

- « لا أفهم .. »

قلت لها فى صبر :

- « الأمر واضح .. لقد كان (سيف الدين قطز) ثالث ملوك دولة المماليك البحرية .. »

- « بحرية ؟ »

- « يسمونها هكذا .. ولا أعرف السبب(*) .. وحين هاجم التتار بقيادة (كتبغا) غزة ، تعاون مع مملوكى آخرهو (بيبرس البند قدارى) لمحاربتهم .. لقد تمكن (قطز) من مطاردة التتار حتى نهر العاصى .. ثم تمت الموقعة الشهيرة المسماة (عين جالوت) ما بين (بيسان) و(نابلس) .. حين صاح صيحته الشهيرة (واإسلاماه !) .. وانتصر على جحافلهم المروعة .. لقد خلّد (على أحمد باكثير) هذه المعركة فى روايته (واإسلاماه) .. هل عندكم مثله ؟ »

(*) يقال إن السبب هو أنهم استقروا فى جزيرة (الروضة) وسط النيل .

- « لا .. فشأن التتار لم يكن ذا بال فى عالمى .. »

- حسن .. يرى كثيرون من المؤرخين أن (عين جالوت) هى نقطة التحول فى تاريخ التتار .. ودون غرور أو مبالغة يمكن القول إن (قطز) قد استطاع أن ينقذ العالم إلى حدٍّ ما .. »

قطبت وجهها غير مصدقة .. وغمغمت :

- « إلى هذه الدرجة ؟! »

- « كما أن معركة (واترلو) قد أنهت أمجاد وحش يُدعى (بونابرت) ، و(ستالينجراد) قد حطمت أحلام مخبول يُدعى (هتلر) .. ولو لم تكن (ستالينجراد) لكان النازيون يحكمون عالمى الآن .. »

هنا ـ وكان الحديث قد استغرقنا ـ دنا منا الفتى الأشقر ذو الضفيرة ، الذى عرفنا أن اسمه (كالاهان) ، فجلس القرفصاء جوارنا .. وابتسم .. ثم ناولنا بطاقتين مغلفتين رهيبتى الشكل .. وقال :

- « مرحبًا بكما فى (نيويورك) .. »

أمسكت البطاقة الأولى .. وكانت عليها صورتى أبتسم ببلاهة .. والبيانات تقول إننى (لوتشيو أماريللو) ... عامل بناء .. مكسيكى ..

أما بطاقة (سلمى) فتقول إنها (ماريا أماريللو) .. خادمة .. مكسيكية ..

أولاً : لم اخترت لنا الجنسية المكسيكية ؟

- « لأنها تسمح بأن تكون أسمر البشرة ذا ملامح عربية .. لقد رأيت فرنسيين يبدون كاليابانيين .. وأمريكيين يبدون كالأفارقة .. فلن يجد المغول شيئًا مريبًا فى ملامح وجهيكما .. »

ثانيًا : لماذا اخترت لنا مهنًا يدوية بائسة ؟ لم لا أكون طبيبًا وهى رسَّامة ؟

- « لأن هذا هو نوع المهن التى يمكن لمهاجر مكسيكى أن يجيدها .. كنت سأختار لك مهنة عامل مجارى .. ولها مهنة راقصة .. لكنكما لا تبدوان لى من أهل ذلك ! »

وأضاف فى تفلسف :

- « وعلى كل حال .. لا توجد مهنة يدوية بائسة .. أنت تعمل إذن أنت محترم .. »

ثالثًا : ما سر تشابه اسمينا ؟ هل تعنى أننا زوج وزوجة ؟

- لا .. إن تشابه وجهيكما مريب .. لذا أوثر أن تكونا توءمين غير متماثلين .. فالأزواج قلما يتشابهون

على هذا النحو إلا بعد ثلاثين عامًا من الحياة الهانئة .. ولا توجد حياة هانئة فى هذه الأرض .. »

لقد أقنعتنا يا أخ (كالاهان) ..

بعد هذا مدّ يده لنا بحفنة من الدولارات غريبة المظهر .. كلها تحمل وجه (جنكيزخان) بدلاً من (جورج واشنجتون) .. مع شعار (دماء .. دماء) بدلاً من شعار (بالله نؤمن) الشهير ..

- « دولارات مغولية .. مزورة بالطبع .. لكن اكتشافها شبه مستحيل .. »

وناولنا كيسين يحوى كل منهما مجموعة من الثياب .. وحذاءين لحسن الحظ وطلب منا أن ننتحى جانبًا لنرتديها ..

سألته وأنا أحمل ثيابى وأنهض :

- « لكننا لا نعرف حرفًا من الأسبانية .. »

- « كذلك المغول .. فلو ضبطك أحدهم اكتف بترديد أية كلمات تنتهى بحرف (الواو) أو (الياء) .. ولا تنس أن تضع يديك على صدرك وتلوح بهما طيلة الوقت .. ومن آن لآخر قل (سنيورى) .. فهذا كاف .. »

ثم هتف بلغة أسبانية مزيفة يمكنها خداع الحمقى جميعًا :



بعد هذا مدّ يده لنا بحفنة من الدولارات غريبة المظهر .. كلها تحمل وجه (چنكيز خان) ..

- « سنيورى داسفيدا ماتريو سوكيرى ماريا ! »
- « ما معنى هذا ؟ »
- « لا معنى له .. لكنه جيد كما ترى .. »
- « وما هو برنامج حياتنا بعد ترك هذا المكان ؟ »

ابتسم .. وقال وهو يبصق ويدارى البصقة بحذائه :

- « لا شىء .. عليكما البقاء حيين أطول وقت ممكن ! »

★ ★ ★

بطاقة عبودية

اسم العبد : لوتشيو أماريللو كاريداس .

السّن : ٣٠ سنة .

المهنة : عامل بناء .

الولاية : المكسيك .

تاريخ القدوم إلى نيويورك : بيلاس ـ ٨٢٦ (أكتوبر ١٩٩٣م)

عيوب : إسهال ـ غازات بطن .. قدم مسطحة .

شخصيته : خنوع ـ جبان ـ متردد ـ أحمق ـ إمّعه .

صحت فى احتجاج بعد ما قرأت بطاقتى بعناية :

- « كل هذه السلبيات ؟ ولماذا لم تضفها فى خانة العيوب ؟ »

قال (كالاهان) وهو يرتّب سترتى كى تبدو أكثر إهمالاً :

- « بل هى مزاياك .. الخنوع الجبان الأحمق هو العبد المفضل عند المغول .. أما عن عيوبك فهم لا يريدون سوى الجسدية منها .. وعلى كل حال بطاقة عبوديتى أنا تقول إننى : خنزير - دنىء - نذل - معتوه .. »

صافحته فى حرارة .. وحييت الباقين .. وإن لم أستطع كثيرًا أن أحبَ (ماك - جورج) الذى يضع فى جيبه أثمن ما أملك ..

- « شكرًا يا (كالاهان) .. فلولاك .... »

- « لا عليك .. إنها تعليمات (أبو فراس) الصارمة .. علينا العناية بالعرب بالذات ، وتوفير سبل الراحة والتنكر لهم .. »

ورحنا نعبر شبكة المجارى المعقدة ..

همست (سلمى) فى أذنى :

- « والجهاز ؟ »

- « وماذا عن جهازنا يا (كالاهان) ؟ »

قال وهو يتحسس مواضع خطواته ، مستعينًا بمشعل صغير :

- « سيبقى مع (ماك - جورج) لفترة حتى يعرف كنهه .. وعلى كل حال لا تقلقا .. فهو فى أمان .... »

ثم توقف وأشار بالمشعل إلى أعلى .. كان النور يدخل من طاقة معدنية فى سقف المكان ..

- « ستصعدان من هنا إلى شارع جانبى .. تأكدا من غلق الفتحة ثم عيشا حياتيكما .. يوجد فندق رخيص على بعد خطوات .. كما أن هناك مكتب توظيف على الناصية .. والآن وداعًا .. »

وراح ينتظرنا حتى تسلقنا الدرجات المعدنية ، التى توصلنا إلى غطاء المجرور .. أزحتها بيدى .. ورفعت جسدى حتى خرجت من الفتحة ، ثم مددت يدى أعين (سلمى) على الخروج ، وسرعان ما ابتلعتنا المدينة المنهكة العجوز ...

★ ★ ★

كان الجليد ينهمر فى رقة .. وبدأ الشارع يتخذ لونًا أبيض حزينًا كأحلام ملاك ، وقد بدأت أشجار عيد الميلاد تتناثر فى الطرقات .. وأمام أبواب المحلات .. وبعض دُمى حزينة لـ (سانتاكلوز) - بابا (نويل) كما نسميه - تقف على استحياء وراء واجهات المتاجر ..

ومرّت جوارنا عربة تشبه عربات المطافئ بسرعة جنونية ..

على ظهرها وقف رجال ذوو ملامح مغولية ، يرتدون معاطف جلدية حمراء ، وقد ثبت كل منهم خزّانًا على ظهره .. خزانًا يشبه قاذفات اللهب التى نراها فى السينما ..

كانت ملامحهم صارمة تشى بالشرّ .. لابل تشى بما هو أقسى وأبرد من الشرّ .. وعرفت أن هذه فرقة إبادة مرضى الطاعون ، ذاهبة لحرق بيت آخر فى الناحية .. أتمنى لهم التوفيق !

فما إن ابتعدت السيارة حتى همست (سلمى) وهى تتأبط ذراعى ، ويدها ترتجف فى عصبية حول ساعدى :

- لقد صرت أكثر اقتناعًا بمغادرة هذا العالم .. نحن لن نترك جهازنا مع هؤلاء المتمردين لمجرد أنهم أقوى وأكثر عددًا .. كان يجب أن تصرّ على استرداد الجهاز .. »

- الإصرار كان سيجعلهم يرتابون أكثر .. ويصممون على فتحه لمعرفة ما به ... »

- « ولكن كيف نسترده ؟ »

- « سنعود لهم بعد يوم قائلين إننا بحاجة إليه .. وسيكونون هم قد تأكدوا من أنه ليس قنبلة أو جهاز تصنت .. »

بدا عليها عدم الاقتناع .. لكن ما كان بوسعها أن تجد حلاً آخر ..

لافتات فى كل مكان عليها صورة واحدة لوجه مغولى شرس يحاول أن يرسم ضحكة مشرقة على ثغره ، وتحتها تعليقات من نوع (تذكر أن أوجوتاى فى كل مكان) و(أوجوتاى صديقك حين تخضع له .. وعدوك حين تعصاه) .. و(لا نريد مزيدًا من دمائكم .. فساعدونا) ..

وفى كل ناصية يقف رجل شرطة مغولى بثيابه الحمراء المميزة ، يرمق المارة فى شك ويده على مدفعه الرشاش الشبيه بالمسدس ..

واستوقفنا واحد .. وطلب منا بطاقات العبودية .. فناولتها إياه وقلبى يخفق كالطبل .. تفحصها وتفحصنا .. ثم تفحصها فتفحصها .. ثم عاد يتفحصنا ويتفحصها .. ثم سمح لنا بالانصراف وقد بدت عليه خيبة الأمل .

على الأقل البطاقات تؤدى عملها كما يجب ...

قرحتى بدأت تصحو وآلام لا تطاق تمزقنى ، لا بد أن قرحة (سلمى) تفعل نفس الشىء .. إنه التوتر الدائم والجو البوليسى المرهق للأعصاب ..

صوت طلقات رصاص من الشارع المجاور ..

ثم سمعنا صراخًا .. ورأينا اثنين من المغول يجرّان جثة مزقها الرصاص ، ليلقيا بها فى عرض الطريق فوق الثلج .. ثم يعودان إلى جولتهما ..

وتجمع المارة حول الجثة .. المفزع ها هنا هو أن الأمر بدا روتينيًا لا يثير الذعر فى نفس أحد سوانا .. إن هذا يحدث كل يوم كما هو واضح ...

وسمعنا الناس يقولون عبارات عديدة :

- « مسكين ! »

- « يبدو أنه يابانى أو صينى .. »

- « الأحمق لم يحمل بطاقة عبودية .. »

- « لقد أعدماه فورًا .. »

ابتعدنا ونحن نقاوم رغبة عارمة فى الركض كالأرانب .. وأقدامنا لينة ترتجف كأعواد المكرونة المسلوقة ..

ومن بعيد نلمح لافتة (فندق) .. فنهرع إلى هناك ..

كان متوسط النظافة لكنه ليس حظيرة أبقار على كل حال .. وكان موظف الاستقبال يضع عوينات سميكة ويقف تحت صورة هائلة الحجم للزميل (أوجوتاى) .. رحبَ بنا .. ثم تفحص بطاقتينا .. ومدَ أنامله يضغط على أزرار جهاز (كمبيوتر) على المنضدة .. وقطب جبينه إذ نظر إلى الشاشة ..

سألته (سلمى) فى قلق وهى تمدَ رأسها محاولة معرفة ما هنالك :

- « هل ثمة مشكلة ما ؟ »

- « كلا يا سيدتى .. إنه إجراء روتينى حسب قانون (بيدرا) .. يجب إخطار الشرطة بكل صاحب جنسية أجنبية يطلب مسكنًا .. »

وابتسم ابتسامة مفتعلة ..

فشكرناه .. واقتادنا خادم آسيوى إلى غرفتنا بالطابق الثالث .. وهى غرفة لا بأس بها .. نظيفة نوعًا ، خالية من البراغيث ..

اتجهت (سلمى) إلى النافذة ، فأزاحت ستائرها جانبًا ، ووقفت ترمق الشارع .. على حين نقدت

الخادم بعض قطع العملة .. وأحسنت غلق الباب .. ثم عدت لأجدها ما زالت هناك عند النافذة ..

قالت دون أن تلتفت :

- « (سالم) .. سيبلغون رجال الشرطة عنا ! »

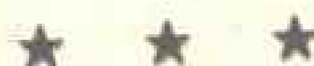
هززت رأسى فى حيرة :

- « طبعًا يا ملاكى .. هو قال هذا .. إنه قانون (بيدرا) .. »

- « لا أعنى بلاغًا روتينيًا .. بل سيبلغ الشرطة أننا مثيران للشك .. ولن تلبث عرباتهم أن تصل إلى هنا خلال ثلاث دقائق .. »

- « وما الذى يدعوك إلى افتراض الأسوأ ؟ »

- « كانت نظراته مريبة .. وفى زجاج عويناته رأيت انعكاس شاشة الكمبيوتر .. لقد كان عليها رسمان لا بأس بهما لوجهينا ...! »



٥ - فلنذب وسط الزحام .. (من جديد)

كان علينا التفكير السريع ، واتخاذ قرار خلال دقيقة ..

سألتها وأنا أثب على قدمى :

- « صـ .. صورتنا ؟ وكيف حصلوا عليها ؟ »

- « ربما لم تكن صورتنا .. ربما هى صورة رجل وامرأة آخرين .. لكن المؤكد أنهم يبحثون عنهما جاهدين ، وقد عمموا الصورة فى كل مكان كى يبلغ أحدهم عن صاحبيها .. »

- « ولكن من ؟ »

قالت وهى تذرع الغرفة جيئة وذهابًا :

- « من يدرى ؟ ربما لم يمت الشرطى .. أو كان هناك شهود ، استطاعوا أن يحددوا ملامحنا بالاستعانة برسّامى الشرطة .. وربما كان هناك خونة بين المتمردين وقد أبلغوا عنا .. »

قلت لها :

- « استبعد الاحتمال الأخير .. وإلا لكانت صورتنا الفوتوغرافية عند الشرطة .. بلا أى داع للاستعانة بصورة مرسومة .. والآن .. هل نهرب ؟ »

- « طبعًا .. »

صورة الجثة التى مزقها الرصاص على قارعة الطريق لا تفارق ذهنى ...

يوجد حلّ واحد للفرار .. هو أن نفرّ بسرعة .. بسرعة تفوق كل توقعات هؤلاء القوم .. فلا أحد يفرّ من فندق دخله منذ خمس دقائق ..

وقد خطرت الفكرة لنا فى ذات اللحظة .. فانطلقنا لا نلوى على شىء ..

ثم وثبنا درجات السلم ثلاثًا فثلاثًا .. وكالرصاصة انطلقنا أمام عينى الموظف الذى كان يتكلم فى الهاتف فلم يجد وقتًا كافيًا ليرانا ..

واصطدمنا بثلاثة رجال يدلفون من الباب .. فلم يجدوا وقتًا للاحتجاج ..

وتعثرت امرأة داست (سلمى) على حذائها ..

وبعد ثانيتين كنا فى الشارع المزدحم من جديد ..

فلو أن المغول يملكون شيئًا من الخيال ، لبحثوا عن سحابتين من البخار الأبيض تخرجان من رئاتنا .. ونحن نلهث كقاطرة ....

وأشارت (سلمى) فى ثقة إلى المشهد الذى تتوقعه ..

سيارة شرطة حمراء اللون تتوقف أمام مدخل الفندق .. ليخرج منها ستة رجال من المغول يحملون أسلحة تكفى لاحتلال (موسكو) لو أرادوا .. وهم يركضون كالذئاب المسعورة إلى الداخل ..

ابتعدنا أكثر فأكثر نادمين على أننا لا نملك طاقية الإخفاء ..

معنى هذا أن الطرقات غير آمنة بالمرة .. وبطاقات العبودية لن تحمينا إن لم تؤذنا .. فكل شرطة (نيويورك) تعرف اسمينا المستعارين الآن ..

الحلّ الوحيد هو أن نرجع إلى (الخاسرين) ، ونخبرهم أننا فى مأزق .. وأننا سنموت ما لم يعيدوا لنا الجهاز ..

ولكن .. أى مجرور بالضبط يقود لهم ؟

قالت (سلمى) وهى تنظر إلى الوراء :

- كان هناك شارع جانبى يقود إلى الشارع الذى فيه الفندق .. وعلى ناصيته متجر (بيتزا) صغير .. والشارع نفسه شبه مهجور .. »

- « هذا جميل .. وماذا عن شبكة المجارى المرعبة ؟ »

- أعتقد أننى عددت المنحنيات .. ثم إننا سنصرخ منادين (كالاهان) ..

لا بد أن آذان هؤلاء القوم مرهفة .

لكن الوقت غير مناسب بالطبع ..

لا بد من الانتظار حتى يجنّ الليل من جديد ...

★ ★ ★

إن دور السينما مناسبة دائمًا للاختباء ..

كانت خطانا قد قادتنا إلى حىّ ملىء بالملاهى والمسارح ودور السينما .. وأنا لم أر (نيويورك) من قبل .. لكنى أعرف أن حيًا بهذه الصفات لا يمكن سوى أن يكون حىّ (برودواى) ..

الأضواء الملونة الزاهية تتوهج فى كل مكان .. والموسيقا تتسرب فى الهواء كعطر قوى ..

وكانت هناك عدة دور سينما تعرض أفلامًا أمريكية ، ميزت بعضها .. لكنى وجدت دارين تعرضان أفلامًا

لها اسماء منغولية .. وكتبت أسماؤها بحروفهم الشبيهة بديدان تتلوى ..

- « ما رأيك ؟ »

- « أخشى أن تكون هذه الدار للمغول فقط .. »

لكنى وجدت أسرًا عادية تدخل .. أمريكيون يتأبطون أذرع فتياتهم ويدخلون .. لِمَ لا ؟ تعالى نر نوع الفنّ الذى يقدمه هؤلاء الرعاة ..

واتجهت إلى شباك التذاكر ، وطلبت من العاملة الشقراء أن تعطينى تذكرتين .. وأخرجت ورقة بعشرة دولارات .. لكنها بدت مندهشة ..

وببرود قالت وقد أدركت أننى أجنبى :

- « لا نقود .. الأفلام المغولية مجانية ! »

ولما رأت البلاهة على وجهى ، قالت فى سأم :

- « إنه الغزو الإعلامى يا صغيرى ! »

وتقدمت مع (سلمى) إلى الداخل لنمرّ وسط حشد من موظفى السينما يقفون على الصفين .. إذن ما أهمية التذاكر ؟ ما دام الدخول متاحًا لكل من هبّ ودبّ ؟ لكنهم تفحصوا تذكرتينا مرارًا ...

وفى النهاية جلسنا فى القاعة المظلمة المكيفة

ـ مكيفة بالتدفئة طبعًا ـ وكان عدد الجلوس قليلاً .. يبدو أن الأفلام المغولية غير محبوبة لهذا الحدّ ..

همست (سلمى) وهى تنظر حولها :

ـ « لهذا التذاكر مجانية .. »

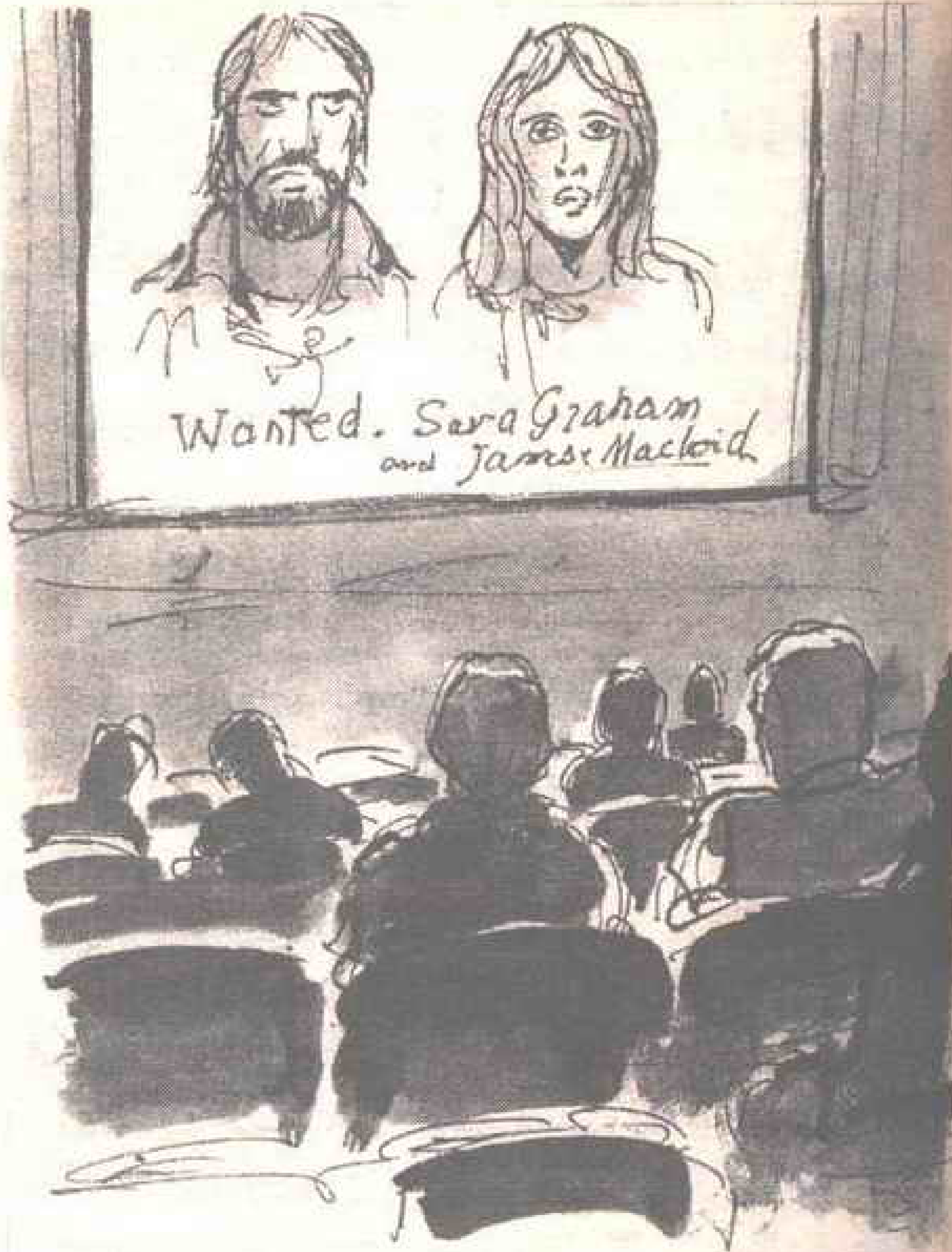
قلت لها هامسًا :

ـ « لا أحد يرغب فى مشاهدة فيلم صنعه قاهروه .. فالدكتاتورية لا تجيد صنع الأفلام .. وقد حدث أن صنع الروس فيلمًا عظيمًا اسمه (المدرعة بوتمكين) لمخرج اسمه (إيزنشتاين) .. وظلّ (هتلر) طوال الحرب العالمية الثانية يصرخ فى مخرجيه ووزير دعايته ، كى يصنعوا له فيلمًا مماثلاً له هذا التأثير فى النفوس .. لكنهم عجزوا عن ذلك .. لأن الدكتاتورية ـ كما قلت لك ـ لا تجيد خلق الفنون .. »

وانطلق شعاع الضوء يرتمى على الشاشة الفضية ..

وهنا رأينا صورة لوجهين : وجه رجل ووجه امرأة .. تمّ رسمهما باللون الأسود .. وقد كتب تحتها :

ـ « مطلوب القبض على (ساره جراهام) و (جيمس ماكلويد) ـ التهمة هى السخرية من النظام ـ اطلب رقم الهاتف 99ø .. كل من يتستر عليهما يعاقب بالإعدام الفورى وغرامة مائة ألف دولار ! »



وهنا رأينا صورة لوجهين : وجه رجل ووجه إمرأة ..

ثم اختفت الصورة وبدأ عرض الفيلم ..

ملت على (سلمى) .. وسألتها همسًا :

ـ « هل هذان هما الوجهان اللذان رأيتهما على الشاشة ؟ »

ـ « أظن هذا .. إذن لم يكن البحث جاريًا عنا ! »

وتنهدت فى ارتياح .. لقد تمَ تعميم صورة هذين البائسين فى كل مكان .. وعلى كل شاشات (الكمبيوتر) والتلفزيون والسينما .. ومن الواضح أنهم سيجدونهما .. حتمًا سيفعلون ..

سألتها :

ـ « هل نخاطر بالعودة إلى الفندق هذا المساء ؟ »

ـ « لا .. سنخاطر بالعودة إلى المجارى باحثين عن جهازنا .. »

ثم همست وهى ترتجف :

ـ « لو لم نكن نحن اليوم على هذه الشاشة .. فسنكون هناك غدًا ! »

هنا دوَى صوت من مكبر صوت يقول بحزم :

ـ « العبد والعبدة الجالسان فى المقعدين رقم (٥٤) و(٥٥) ! ممنوع الكلام نهائيًا فى أثناء عرض الفيلم التثقيفى ! »

تبادلنا النظرات فى هلع .. إذن هم يسمعوننا ! هل فهموا ما نقول ؟ لا أظن .. مستحيل أن يستعدوا بمترجم للعربية تحسبًا لدخول أحدنا دار السينما ..

ولكن .. ربما عرفوا أننا نتحدث العربية ! من السهل أن تعرف الاسبانية والعربية والألمانية والعبرية والفرنسية حين تسمعها ، حتى ولو لم تفهم منها حرفًا واحدًا .. فهل يعرفون الآن أننا عربيان ؟

★ ★ ★

حاولت التركيز فى أحداث الفيلم ..

كان مترجمًا إلى الانجليزية لحسن حظى أو سوئه .. فقد كان أسوأ فيلم رأيته فى حياتى باستثناء بعض أفلام مخرجنا الأستاذ (...) ..

الفيلم يدور حول أسرة أمريكية متدينة طيبة .. لكن لها ابنًا وغدًا شريرًا زنيمًا .. هذا الوغد يدخن المخدرات ويلهو مع الفتيات .. ثم يحرق سيارة شرطة مغولية .. الأب العجوز الطيب ينصح الفتى مرارًا بأن يتعقل ويهتدى إلى الصواب .. لكن الفتى الفاسد يتمادى فى غيّه .. وينتهى الأمر بأن تهاجم الشرطة المغولية البيت ..

هنا يتمهل الفيلم ليرينا عملية سلخ جلد الأب العجوز حيًا .. وحرق الأم .. وتمزيق أوصال الأخت .. حتى توشك الدماء أن تسيل من على الشاشة لتغرقنا نحن المشاهدين ...

ثم يقول قائد المغول للفتى الأرعن : « هذا هو ماجنيته على أهلك .. إن طاعة المغول - يا أحمق - هى من طاعة الربَّ .. »

ثم يلقى الفتى عقابًا لا داعى لوصفه حتى لا أرهق أعصاب القارئ .. وينتهى الفيلم بالمغول يعاملون المواطنين المسالمين فى تهذيب ورقة ..

هنا سمعت (سلمى) تتحشرج استعدادًا للقىء .. إن معدتها لم تتحمل كل هذا الدمَ الذى ابتلعته على الشاشة ..

- « لا تفعلى يا (سلمى) ! تماسكى يا حمقاء ! »

لكنها لم تستطع .. وأفرغت معدتها محدثة ضوضاء لا بأس بها ..

هنا دوّى الصوت من المكبر يقول :

- « العبدة فى المقعد (٥٥) ! هل هناك ما لم يرق لك فى الفيلم ؟ »

يا للكارثة !

وقفت صائحًا أخاطب لا أحد :

- « إنها .. إنها التهمت طعامًا فاسدًا فى مطعم .. هذا كل شىء .. »

قلتها بالإنجليزية طبعًا ..

هنا دوّى الصوت من جديد :

- « نريد اسم المطعم ! فصاحبه يجب أن يُجلد ! »

يا للمصيبة ! انهم لا يتركون أية تفاصيل .. عدت أصيح :

- « نسيت اسمه إنه فى (بروكلين) .. لا توجد مشكلة »

- « إن صحة العبيد لمن صميم أمن النظام .. حاول أن تتذكر ! »

- « حقًا لا أستطيع .. كانت عربة مقانق عابرة ! »

ساد الصمت برهة .. ثم قال الصوت :

- « حسن .. اجلس يا عبد .. سنبدأ الأسئلة حالاً ! »

أسئلة ؟ ما هو الموضوع ؟ ماذا يريدون ؟

- « المقعد رقم (١١٨) .. ما اسم الصبى الرقيع فى الفيلم ؟! »

هنا نهض كهل وقور الشكل من المقعد (١١٨) .. وفى تردّد قال :

- « اسمه (جيمى) ؟ »

- « الإجابة خطأ ! ستتلقى عشر جلدات حالاً ! »

وتقدم شرطى يرتدى زيًّا أحمر ، ويحمل سوطًا ، كى يقتاد الكهل إلى باب خلفى .. وسمعنا صوت الصراخ وصوت ضربات السوط !

همست فى أذن (سلمى) مذهولاً :

- « يا نهار أسود ! »

هنا دوّى الصوت :

- « المقعد رقم (٢٠) .. من هو مخرج الفيلم ؟ ومن مصوّره ؟ »

نهضت شابة حسناء من مقعدها .. وبثقة صاحت :

- « المخرج هو المغولى العظيم (كيشنجا) والمصوّر هو المغولى العبقرى (نيسابو) .. »

- « أحسنت ! واستطعت الفوز بحقنة من لقاح الطاعون ! »

هللت الفتاة فى حماس .. وهرعت إلى الباب الخلفى ..

فهمت ! هذا هو المبرر الوحيد الذى يغرى الناس بدخول السينما :

أملهم فى جرعة من لقاح الطاعون تحميهم من الموت .. ولو خسروا فلن يكون الأمر أسوأ من بعض جلدات ..

وهم - المغول - يرغبون فى التأكد من أن الناس رأوا الفيلم كاملاً .. فلم يشردوا ولم يثرثروا فى أثناء العرض .. لهذا يعقدون هذا الامتحان بعد العرض للتأكد من أن الرسالة (التثقيفية) قد بلغت الناس كاملة ..

المشكلة هى أننى ظللت شارد الذهن طيلة عرض الفيلم .. فلم أر سوى خطته العامة ..

هنا دوّى الصوت من جديد :

- « المقعد (٥٤) ! »

ارتجفت ساقاى .. واستعدت الشعور القديم الذى تركته ورائى فى المدرسة الابتدائية ، حين كنت أسمع اسمى ينادينى به معلم الحساب !

ورفعت رأسى لأسمع الصوت يسألنى :

- « ما هو رقم سيارة الشرطة التى أحرقها الصبى الرقيع فى الفيلم ؟! »

بدا مظهرى كأكثر التلاميذ فشلاً وغباء .. وأنا أبحث فى ذهنى عن معلومة أعرف أنه لا وجود لها أصلاً ..

هنا سمعت صوتًا هامسًا يفحَ من خلفى (وكان رفيعًا ناعمًا) :

ـ « (١١٧ ـ ب) يا أحمق ! »

ودون أن أنظر خلفى ، التقطت الكرة وصحت :

ـ « (١١٧ ـ ب) ! رقمها كان (١١٧ ـ ب) ! »

هنا حدث شىء غريب ....

★ ★ ★

٦ - هل هو الأمل ؟

فى هذه المرّة لم يكن هناك لقاح ولا جَلد ...

لقد تقدم رجل الشرطة الأحمر إياه عبر الصالة ، حتى وصل لموضعى ثم انحنى ليرمقنى فى حدّة .. وأخرج مفكرة صغيرة ..

وبإنجليزية بشعة سألنى :

ـ « أين بطاقة عبوديتك ؟ »

مددت يدًا مرتجفة وقدمتها له .. لا بد أن الأمر يتعلق بالذبح هذه المرّة .. ورأيته يدوّن ما فيها فى مفكرته .. ثم أعادها لى وعاد يسأل :

ـ « أين تقيم الآن ؟ »

ـ فندق (العبيد السعداء) .. غرفة ٢١٨ .. »

أعاد المفكرة إلى جيبه وقال :

ـ « سنتصل بك ! »

وانصرف تاركًا إياى فى حيرة لا تصدّق .. و(سلمى) مثلى ..

ودوّى صوت صفارة عميقة ، فنهض المشاهدون .. إذن لا بد أن الامتحان قد انتهى .. نهضت مع (سلمى) وأنا أقسم فى سرّى ألا أدخل دور السينما بعد اليوم حتى لو لم تكن مغولية ..

وشممنا هواء الشارع البارد .. وداست أقدامنا على الثلج فشعرنا براحة غامرة .. دسست كفى فى جيبى سترتى ، بينما أحكمت (سلمى) لف كوفيتها على عنقها .. وسألتنى :

ـ « ما معنى هذا ؟ »

ـ « لا أدرى .. »

هنا سمعت من يقول بالعربية بصوت خافت :

ـ « معناه أنك تصلح لتكون بصاصًا لهم ! »

التفتّ فى دهشة .. لأرى رجلاً فى منتصف العمر له شعر فاحم السواد وشارب كثّ ناعم .. يرتدى معطفًا رماديًا ، ويمسك بيده يد صبى فى العاشرة من عمره .. ويشبهه إلى حدّ ما ..

وعندها عرفت سرّ اللهجة التى لفظ بها الرجل عبارته .. فمظهره يوحى بأنه من الشام .. أو ربما أبعد .. ربما هو تركى يتكلم العربية ..

تظاهرت بالغباء .. ونظرت له فى عدم فهم .. لكنه قال :

ـ « لا تحاول التمثيل .. أعرف أنك عربى .. ربما مصرى كذلك ..

ولا تخش منى فأنا مثلك أحمل بطاقة تقول إننى هندى .. »

ومدّ يده ليصافحنى .. كان قويًا موحيًا بالثقة ..

قال باسمًا :

ـ « أنا تركى أُدعى (قاسم) .. وهذا هو ابنى (سيف) وكنت قد دخلت معه السينما أملاً فى الفوز بجرعة من لقاح الطاعون له .. هلم صافح عمك يا بنىّ .. »

مدّ لى الصبى الجميل ذو العينين الذكيتين يده مصافحًا .. وابتسم برقة ..

قال الرجل :

ـ « والآن .. هيا نجد مكانًا هادئًا نتكلم فيه .. فليس من المستحبّ أن نقف ها هنا نتكلم بالعربية .. وإلا كان من الأفضل لو علقنا لافتة تعلن جنسيتنا »

ومشينا نحن الأربعة حتى وجدنا متنزهًا شبه خال من الناس ..

كانت هناك أشجار يكسوها الجليد .. ومقاعد متناثرة .. فاخترنا أحدها وجلسنا .. وأشار الرجل للصبى كى يبتعد ليلهو قليلاً .. ثم قال وهو يخرج لفافة تبغ من علبته ويشعلها ، بينما الليل يغلف المكان :

- « إن (سيف) هو منقذك الخفى الذى تكلم فى ظلام السينما .. إنه جمّ الذكاء ذو ذاكرة فوتوغرافية . ولا أعتقد أن أحدًا كان يستطيع تذكر رقم السيارة سواه .. »

سألته وأنا أنحنى للأمام كى لا أترك كلمة تفلت منه :

- « لماذا أخذوا بطاقتى ؟ وما معنى كلامك ؟ »

ابتسم بثقة .. وقال :

- « لقد انبهروا بقوة ملاحظتك .. ووجدوا أنك تصلح جاسوسًا لهم وهو شرف - لو تعلمون - كبير .. سيتيح لك هذا مزايا مدنية أكثر :

راتب مرتفع - حصة تموينية أعلى - لقاح الطاعون والدرن .. إلخ .. ولن يكون عليك سوى إبلاغهم بكل ما يريب .. »

- « مثل ! »

- مثل رجل شرطة يضع حذاءين مدنيين .. مثل رجل يزعم أنه هندى - على غرارى - ويلتهم شطيرة من اللحم البقرى .. مثل يابانى لا ينحنى عندما يحييك .. مثل انتفاخ وراء سترة مدنى يوحى بوجود سلاح .. »

- « وإذا رفضت ؟ »

- « لا ترفض ولا تقبل .. أنت حرّ .. كل ما يمكنك زعمه هو أنك لم تر ما يريب .. المشكلة الوحيدة هنا هى أنهم سيبحثون عنك ! »

- يبحثون عنى ! »

- « طبعًا .. »

ونفث دخان التبغ فى الهواء .. وأضاف :

- « سيبحث (أوجوتاى) فى ذاكرته الإلكترونية عن أى معلومات تشير إلى دخولك البلاد فلن يجد .. عندها ستدق الطبول ! »

هنا تكلمت (سلمى) للمرة الأولى :

- « (أوجاتاى) هو جهاز حاسوب ؟ »

- « تعنين (كمبيوتر) ؟ طبعًا .. إنه الحاكم العامّ للولايات .. إن الصورة التى ترينها جوار اسمه

لا تعنى شيئًا .. هى مجرد محاولة لجعله شيئًا ملموسًا للعامة .. أما العالم فيسيطر عليه (كمبيوتر) عملاق اسمه (هولاكو) .. وما زلت أرى أنكما فى مأزق .. كان عليكما التصرف بحذر أكثر ما دامت بطاقتاكما مزوّرتين .. »

ورحنا نتأمل المرج المغطى بالجليد .. وفى ذهن كل منا من الأفكار السوداء ما يكفيه .. لم نكن فى خطر حين دخلنا دار السينما وإن حسبنا ذلك .. أما الآن فنحن فى خطر لا شك فيه .. وقد صارت العودة إلى الفندق مجازفة حقيقية ..

وهنا تذكرت الفيلم السخيف فقلت للرجل :

ـ « تبًا لها من دعاية فجّة ! ما الذى يدعو هؤلاء الوحوش لمحاولة تقديم فيلم سينمائى ؟ ظننتهم لا يبالون بالتأثير الإعلامى .. »

ـ « هم كذلك .. لكن المستعمر يحتاج دومًا إلى هذا التأثير .. فهم ـ مهما بلغ عددهم ـ لا يستطيعون امتلاك عدد كاف لاحتلال العالم والسيطرة عليه .. لا بد من إرهاب الناس وغسل عقولهم .. والسينما والتلفزيون يقدمان هذه الخدمة بشكل جيد .. والمشكلة هى أنهم محاربون وليسوا فنانين ! »

عدت أسأله :

ـ « وماذا جاء بك إلى هنا ؟ »

ـ هربًا مما هو أسوأ .. إنهم يقومون بحملة إبادة شرسة فى غرب وجنوب آسيا .. جئت إلى هنا حيث لا يتوقعون أن يروا عربًا أو مسلمين .. وقد ساعدنى (أبو فراس) على التسلل .. »

سألته (سلمى) وهى تطوّق عنق الصبى بذراعيها :

ـ « ما سرّ تعصبهم المجنون ضد المسلمين والعرب عامة ؟ »

تنهد .. وألقى ببقايا لفافة التبغ بعيدًا .. وقال :

ـ « لقد قام الكمبيوتر العملاق (هولاكو) بحسابات معقدة ، وإجراءات (سيبرنية) لا يمكن وضعها .. فى النهاية افترض أن الخطر الذى يهدد إمبراطورية المغول سيكون خطرًا إسلاميًا .. وربما عربيًا ..

« النتيجة : صار على المغول أن يتأكدوا من إفناء كل ما هو إسلامى أو عربى .. والعرب المسيحيون يلقون معاملة لا تقل سوءًا على كل حال .. فهم عرب قبل كل شىء ... »

تبادلت و(سلمى) نظرة فهم ...

لم يكن الكمبيوتر مخطئًا على الاطلاق .. ومن الواضح أن مصممه عبقرى ..

ـ « هل المغول هم من صمموه ؟ »

ـ « بالطبع لا .. فهم لا يجيدون سوى حرق المدن .. لقد صنعه اليابانيون لهم تحت تهديد السلاح .. واليوم يوجد الكمبيوتر (هولاكو) فى عاصمة المغول فى (سيبيريا) فوق قمم الثلوج .. ومن هناك يرى ويسمع ويعرف كل ما يجرى فى العالم .. »

كان الصبى قد ابتعد كثيرًا .. فصاح الرجل يهيب به أن يعود إلينا .. لكن الطفل كان يلهو فوق الجليد .. يلهو بحركات أقرب إلى رياضة (الكونج ـ فو) .. وقد أبدى رشاقة وخفة غير مألوفتين ..

قلت للتركى :

ـ « صبى جميل ذكى .. »

فى فخر غمغم :

ـ « بل ويجيد استخدام (الكمبيوتر) .. ويجيد أكثر الرياضات .. إننى لأتساءل عما سيكونه بعد عشرين عامًا .. من يدرى ؟ ربما لن يعيش لهذا الحد ! »

طقطقت بلسانى .. وأصدرت (سلمى) آهة استنكار .. وقالت :

ـ « أعوذ بالله ! لم هذا التشاؤم ؟ »

قال وقد اكتسى وجهه بقناع من الجهامة :

ـ « فى عالم كهذا يغدو كل شىء ممكنًا .. لقد رأيت مصرع أمه بعينى .. »

ـ « آسفه ... »

ـ « لو مات ـ وهو وحيدى ـ لكانت نهاية أسرة (قطز) كلها ! »

(قطز) ؟!

وتبادلت و(سلمى) نظرات الذهول ...

* * *

٧ ـ الغـــــارة ..

ارتجفت .. لكنى حاولت التماسك وسألته :

ـ « هل (سيف) .. هو (سيف الدين) ؟ »

ابتسم ساخرًا وقال :

ـ « طبعًا .. أنتم العرب أدرى بذلك .. »

ـ « أى أن اسمه هو (سيف الدين قطز) ؟ »

ـ « طبعًا .. لكن اسمه فى بطاقة العبودية هو (رام سادجاهى) .. من (بومباى) .. هندوسى الديانة .. »

ثم نهض معلنًا رغبته فى الانصراف ..

وقال لنا وهو يمسك بيد الصبى ، ويشير لنا إلى الشارع القصىّ :

ـ « ستتجهان إلى هناك .. إن الظلام قد توغل بما يكفى .. يوجد هناك متجر للحيوانات الأليفة .. اسألا عن (جيمى) وقولا له إنكما من طرف (قطز) .. سيدبّر لكما سبيل الاختفاء .. »

ولوحَ بيده مودعًا :

ـ « أراكما على خير .. »

وابتعد بالصبى .. والظلام يغلفهما حتى لم نر منهما سوى علامتى تعجب غير متماثلتى الطول ، تبتعدان فى بطء عن عيوننا الحيرى ...

همست (سلمى) وهى ترمقهما :

ـ « إنه هو ! »

ـ « حتمًا هو .. »

ـ « إنها صفات قائد .. ذكى سريع الملاحظة رياضى الجسد .. »

ـ « والمغول لا يعرفون ... »

ـ « إنهم لا يستطيعون التنبؤ .. ولن يفعلوا كما فعل فرعون (مصر) حين ارتقب ظهور سيدنا (موسى) .. »

ـ « حسن .. هذا العالم يسير فى الطريق الصحيح .. »

ـ « حقًّا ... »

ونهضنا متجهين إلى متجر الحيوانات الأليفة ..

★ ★ ★

بالإضافة إلى القطط والكلاب والسلاحف ـ وهى أشياء معتادة جدًا ـ كان هناك ببر حديث السنَ وسحلية (إجوانا) .. .

برز لنا شاب يحلق رأسه بأسلوب (الباتك) الشهير .. وقال لنا حين رأى دهشتنا :

ـ « لا يثير هذا دهشة أحد منا .. فالسادة المغول يحبون هذه الحيوانات لأنها تذكرهم بموطنهم .. هل لى أن أقدم لكما خدمة ؟ »

كانت (سلمى) مشغولة فى تأمل القطط الصغيرة التى تهيم بها حبًا ، بينما قلت وأنا أتحاشى نظرات السحلية المزعجة فى قفصها الزجاجى :

ـ « نبحث عن (جيمى) .. »

ـ « أنا هو ... »

ـ « جئنا من طرف (قطز) .. »

تلفت حوله فى ذعر حين سمع الاسم .. ثم ابتلع ريقه وصاح :

ـ « بحق السماء ! لا داعى لإذاعة هذا فى المذياع .. تعاليا ! »

وهرع إلى باب خلفى ففتحه لنا .. وكدسنا بالداخل ..

ثم تلفت حوله من جديد وهرع ينضم لنا فى مخزن خبيث الرائحة سائلاً :

ـ « ماذا هناك ؟ »

ـ « مخبأ .. إنهم يبحثون عنا .. »

ـ « هل أنتما من (الخاسرين) ؟ »

ـ « نريد الاتصال بهم .. »

ـ « مائتا دولار ! »

تبادلت و(سلمى) نظرات الارتباك .. كنت أظن الوغد ثوريًا فاتضح أنه مجرد تاجر فى سلع ممنوعة .. ثم من أين لى بالمال ؟

قال مبتسمًا :

ـ « لا تقلق .. فأنا أقبل الدولارات المزيفة ! مائتا دولار مزيف أو خمسون دولارًا أصيلاً .. »

ـ « لا بأس .. »

كان (الخاسرون) قد أعطونا زهاء ألف دولار .. ولا ننوى البقاء حتى تنفد .. فلن أعمل عامل بناء فى أرض المغول هذه أبدًا ..

★ ★ ★



وهرع ينضم لنا فى مخزن خبيث الرائحة سائلاً :

ـ « ماذا هناك ؟ »

نحن الآن فى شقة (جيمى) الواقعة خلف المحل ..

كانت حقًا شقة ثائر متمرد .. وشقة تاجر سوق سوداء .. وشقة لص .. وشقة عزب يحرق شمعة حياته من طرفيها ..

زجاجات فى كل مكان .. بقايا طعام .. صناديق ملأى بسلع ممنوعة .. جوارب مكوّرة فى كل صوب .. أحمر شفاه .. أعقاب سجائر ..

وفى ركن الصالة كان هناك أكبر جهاز تلفزيون رأيته فى حياتى .. ربما هو ٢٠٠ بوصة لو كان هناك شىء كهذا ..

ـ « مرحبًا بكما .. الليلة تبيتان هنا .. وغدًا يراكما (الخاسرون) .. »

وكان قد ابتاع بعض (البيتزا) بالأنشوجة .. فوضع شريحة أمام كل منا ثم صبّ لى كأسًا من (الهباب) إياه .. لكنى رفضت ..

فتح جهاز التلفزيون ليسلينا ..

وعلى الشاشة العملاقة رأينا مشهدًا مهولاً ..

كانت طائرات غريبة الشكل ـ لا بد أنها (خان ـ ١٩) ـ تحلق فى تشكيلات متوالية فوق مدينة لم أميزها جيدًا ..

ـ « هذه (طهران) .. »

قالها (جيمى) مفسرًا وأراح ساقيه على أريكة قرب مجلسه ..

وعلى الشاشة راحت الطائرات سربًا وراء سرب تلقى عبواتها الحارقة وقذائفها على المدينة ، التى استحالت كتلة من اللهب والدخان الأسود ..

ثم تقدمت طائرة هائلة الحجم وحدها .. لتلقى بقنبلة غريبة الشكل بدورها .. عندها تصاعدت سحابة عشّ الغراب الشهيرة ، المميزة للانفجار النووى ..

قال (جيمى) باستمتاع كمن يرى فيلمًا مسليًا :

ـ « هذه قنبلة (زيترو) .. لقد ألقوا عشرًا منها على آسيا الشهر الماضى .. »

هنا سألته (سلمى) سؤالاً غير معتاد كدأبها :

ـ « من يلتقط هذه الصور ؟ »

ـ « الألمان طبعًا ! فالمغول لا يغامرون بإرسال مصورين مغول إلى هذا الجحيم .. لهذا لديهم فريق تصوير من العبيد الألمان .. »

سألته بدورى :

ـ « وماذا فعل الايرانيون ؟ هل هى ثورة يقمعها المغول ؟ »

نظر لى وضحك حتى سال الدمع من عينيه :

ـ « ماذا بك ؟ تبدو كأنك من عالم آخر .. بالطبع لم يفعل الإيرانيون شيئًا .. إنها حملة إبادة وكفى .. مثلما تقوم أنت بتطهير مطبخك من الصراصير لا أكثر .. إن المغول يعتبرون كل شعب آخر نوعًا من الحشرات لا لزوم لوجوده أصلاً .. »

وعلى الشاشة ظهر الجرحى والأسرى .. وهم طبعًا من البلاد المتاخمة لـ (طهران) .. كانوا فى أسوأ حال والحق يقال ...

وعلى الشاشة بدت مذيعة مغولية ربع حسناء .. تقول بلغة إنجليزية جيدة :

ـ « وهكذا تمكن فرساننا الأبطال بخيولهم النفاثة من إزالة (طهران) من على وجه الأرض ! ترى أين يكونون غدًا ؟ فى (إسلام آباد) ؟ فى (القاهرة) ؟ فى (دكا) ؟ لا أحد يدرى ... »

وتعالت موسيقا فاخرة ربما هى افتتاحية السيوف لـ (خاتشوبريان) ..

ثم ظهرت صورة لموكب طويل يحمل أفراده الهدايا .. وقد بدا عليهم الانكسار والذل .. وتعالى صوت المذيعة يقول :

ـ « ها هى ذى وفود الأمم تقدم هداياها إلى قائد جيش المغول العظيم .. وكلهم خضوع وانكسار .. »

هنا دوّى صوت مغنية (آبا) تغنى : الفائز يأخذ كل شىء ..

إخراج جيد مؤثر لا أظن المغول قادرين عليه .. فلا بد أنهم استعانوا بمخرج إيطالى عبقرى ليصنع لهم هذا ...

سألت (سلمى) مضيفنا :

ـ « هل التلفزيون لا يقدم إلا هذا السخُف ؟ »

ـ « أحيانًا يقدم منوعات مغولية .. أو أفلامًا .. لكن هذا نادر .. »

ـ « إذن فلننعمْ بالصمت .. »

وأطفأ جهاز التلفزيون .. ثم دعانا إلى النوم ، وقال إن لديه أريكة تصلح فراشًا .. ولسوف يستعملها للنوم تاركًا فراشه لنا .. وفى الصباح يمكننا أن نلحق بالخاسرين الذين سيزوّرون لنا بطاقتى عبودية جديدة ..

والأهم ها هنا أننا سنحاول استرداد جهازنا من (ماك ـ جورج) هذا .. وعندئذ يكون الفرار .. الفرار الجميل ..

ـ « مساؤك حليب .. »

قالتها لى (سلمى) همسًا فى الظلام .. وكنت قد فشلت تمامًا فى تعليمها أن تقول (مساء الخير) مثلنا .. فمن العبث أن أقول لها أين الصواب .. فلا صواب هنالك والأمور كلها نسبية بين العوالم .. لذا قلت :

ـ « مساؤك حليب .. »

ونمت بقلب مثقل ..

★ ★ ★

دخلنا شبكة المجارى من جديد .. وعبر ممرات أكثر تعقيدًا قادنا (جيمى) إلى المكان الذى كنا فيه فى البداية ..

ومن جديد رأينا الثوار يفعلون ذات الأشياء .. ومازال بعضهم نائمًا حتى العاشرة صباحًا وقد بدا عليه إرهاق مريع .. إنهم ليسوا كسالى بل وطاويط .. يقضون ليلتهم فى عمليات التخريب واقتناص المغول ،

ثم يعودون ليأكلوا وجبة خفيفة ، وينامو ا حتى الظهر ..

كان (كالاهان) عاكفًا على تنظيف بندقية آلية سرقها من الشرطة ، حين رآنا .. فنظر لنا نظرة عابرة وواصل ما يقوم به ، وهو يقول :

- « المصريان ؟ مرحبًا .. هل أبليتما بلاء حسنًا ؟ »

تولّى (جيمى) الردّ :

- « إن الشرطة تقلب الأحجار كلها بحثًا عنهما ! »

- « بهذه السرعة ؟ »

وهنا ظهر الغول الآدمى (متاك - جورج) وهو يصدر خوار الثيران ، ويلتهم فخذ خنزير على سبيل الإفطار .. فما إن رآنا حتى تكدر مزاجه ..

صاحت (سلمى) فى كياسة :

- « مرحبًا يا سيد (ماك - جورج) .. أما وقد تأكدت من سلامة طويتنا أرجو أن تعيد لى الجهاز .. »

اتسعت عيناه فبدا صفارهما واضحًا .. وقال :

- « أى جهاز ؟ »

- « الجهاز الذى أخذته منا بقوة العضلات منذ يومين .. »

بصق على الأرض .. وقال وهو يقضم شريحة أخرى :

- « آه ! ذلك الجهاز القذر ؟ إنه ليس معى ! »

- « وأين هو ؟ »

- « عند (لارى هولدن) أو (الجميل) كما نسميه .. إنه يحب هذه الأشياء .. »

- « وأين (لارى هولدن) ؟ »

- « إنه لم يعد بعد .. لقد ذهب أمس لتفجير مركز الاتصالات ، ويبدو أن المغول قد التهموه حيًّا ! والآن كفى ثرثرة فأنتم تفسدون عملية الهضم ! »

تبادلت و(سلمى) نظرات ذاهلة ..

كنت أعرف أن شيئًا كهذا سيحدث .. لكن ما كان بوسعى منعه .. لهذا لم يعد يعنينى أى شىء سوى التعبير عن حنقى الشديد ..

صحت فى غلّ :

- « أنت برميل ملىء بالأوحال ! »

- « هه ؟ »

وتدلت شفته السفلى فى غباء .. قطعة لحم تساقطت من فيه وهو لا يصدق أن أحدًا يشتمه .. لابد أن هذا لم يحدث منذ ثلاثين عامًا ..

عدت أقول وأنا أحاول تذكر الشتائم الإنجليزية التى كنت أسمعها بكثرة فى الأفلام فى عالمى :

ـ « أنت أحمق ! كيس من القاذورات .. لا أكثر ! »

هنا بدأ يفهم .. فتقدم نحوى .. وانحنى مترًا كى يقرب رأسه من رأسى ..

ثم وجدت نفسى أطير إلى الحائط لأصدمه .. وأنفى لا ينزف لأن أوعيته الدموية تهشمت مع عظامه ..

وطار ستة من الرجال كى يتعلقوا بالرجل محاولين تهدئته ، مرددين عبارات على غرار (خليك كبير) و(امسحها فىَّ ..) ..

أما هو فراح يزمجر .. لم يكن يسبّ أو يلعن .. بل يطلق زمجرة دبّ ثائر .. واللعاب يتطاير من شدقيه ..

ساعدتنى (سلمى) على النهوض . وكان وجهى قد تحول إلى قطعة من (الهامبورجر) المصنوع فى المنزل .. لكننى كنت مستعدًّا للتمادى ..

وبدأ الثور يهدأ .. لكنه ظل يصوّب إلىَّ نظرات نارية نووية ..

صاحت (سلمى) وهى تحاول إصلاح شفتى الممزقة :

ـ « هل جننت ؟ كل هذا من لكمة واحدة وجهها لك .. وبرغم هذا تريد المزيد ؟ »

ـ « لقد استفزنى الوغـ .. الوغد .. وكان عليه أن يتـ .. يتقى شرّ الحليم إذا غضب .. ضب .. ضب ! »

لقد صار علينا أن نبقى ها هنا للأبد !

يا لحماقتك يا (سلمى) ، ويا لديكتاتوريتك) ! لو لم تتمسكى برأيك لكنا الآن بعيدًا فى عالم آخر ربما هو إلى الجنة أقرب ..

يجب أن نجد (لارى هولدن) حالاً ...



٨ ـ أنقـــذوه !

من الحمق أن أفترض أن هذا الحشد من الثوار لا يضمّ جاسوسين أو أكثر من جواسيس المغول ..

الأمر سهل ويقينى .. لكنه يبدو عسير التصديق حين ترى هذه الوجوه الجادّة المصممة على الانتقام .. من الصعب أن أتصوّر هذه الفتاة التى امتلأ وجهها بالتجاعيد والمقت ، وهى تعالج شحنة ديناميت .. من الصعب أن أتصور أنها تمثل دورًا محبوكًا .. ومن العسير أن أتصور هذا عن الوحش (ماك ـ جورج) أو (كالاهان) الودود .. كلهم يبدون صادقين كالصدق ذاته ..

لكنى أعرف ذلك الآن جيدًا .. وكان يجب أن أصدقه ..

★ ★ ★

حينما برز لنا من النفق رجل له شعر ناعم وشارب كثّ .. وكان يحمل بين ذراعيه جسدًا صغيرًا يلفه بمعطفه ..

عندها عرفت أن هذا هو (قاسم) التركى .. وأدركت من وجهه أن هناك كارثة ما .. كارثة لا جدال حولها ..

كان ملهوفًا .. لكنه تقدم وسط الرجال المندهشين ، وأرقد الصبى على إحدى الحشايا المتناثرة .. ثم ركع جواره وقال :

ـ « إنه محموم .. يهذى منذ ساعات .. »

يا لعاطفة الأب !

لقد هوت به من عليائه التى كان فيها شديد الثقة والكبرياء إلى حضيض الانهيار النفسى والمعنوى .. كأنه يفتش عن قدم إنسان يلثمها مقابل أن يعود ابنه سالمًا ..

قال (جيمى) مفسرًا للمجتمعين :

ـ « هذا (قاسم) .. أو (سارو سمادهى) حسب بطاقة العبودية .. »

ـ « نعلم .. »

وجثا أحدهم على ركبتيه جوار الصبى .. وتحسس عنقه .. وشفتيه اللتين غطتهما قشرة بيضاء لزجة .. وقال :

- « التشخيص واضح يا (قاسم) .. وأنت تعرفه كما نعرفه ! »

اتسعت عينا الأب .. وتلفت حوله كأنه يبعد اتهامًا مريرًا :

- « لا ! إن (سيف) نظيف جدًا .. ولن يصاب بالـ .. بالـ .. »

- « إن برغوثًا واحدًا يكفى كما تعلم .. »

قال (ماك جورج) بصوته الغليظ :

- « نحن لن نسمح ببقاء حالة طاعون دملى ها هنا ! »

صاح الأب فى توحش وعيناه تدمعان كمدًا :

- « لكن إذا عدت به لدارى سيموت بالطاعون .. أو بنيران فرقة التطهير المغولية .. وهو .. هو لا يطيق الحرّ ! »

وسال الدمع ليغرق خدّيه .. لكن (ماك - جورج) قال :

- « هذا قدرك .. إن مصلحة المجموع أهم من مصلحة الفرد .. »

- « لن أفعل ! »

- « لا مجال للاختيار .. »

- « أيها الدبّ الفظ ! أنا أستطيع أن .... »

واندفع ليضرب العملاق الزنجى .. وهو خطأ يتكرر كثيرًا هذه الأيام .. وبعينى رأيت كيف كنت أحمق ضعيفًا عندما فعلت الشىء ذاته منذ ساعات .. إن مهاجمة الدبّ الأشهب بيدك العارية يجعلك لا تدرى ما يحدث لك حقًا ..

وراحت (سلمى) تجفف الدماء عن وجه الرجل وثيابه ..

بينما مشيت أنا لأقف أمام (ماك - جورج) .. لقد صار هذا الفتى مصدر كدرٍ دائمٍ لى .. وكان علىّ أن أتكلم ..

قلت لهم بصوت متحشرج :

- « اسمعوا يا حمقى .. لن أدخل فى التفاصيل .. لكنى أقول لكم إن هذا الصبى المريض .. هذا الغلام المحتضر .. هو أملكم الأخير فى الخلاص من المغول ! لقد تأخر فى الظهور سبعة قرون كاملة ، لهذا سيطر المغول عليكم .. لكنه قد ظهور الآن .. وهو الذى سيكسر شوكة هؤلاء الرعاة المفترسين .. لكنكم - بغباء - تتركونه يموت .. »

اتسعت العيون تلتمع بنظرات عدم التصديق .. بل الاستعداد لتمزيقى ..

وسمعت من يقول :

ـ « ها ! إنها نبوءات العرافين إذن ! من أنت يا فتى ؟ (إيليا) ؟ »

ـ « لا تصغوا لهذا الهراء ! »

قلت بنبرة أقوى :

ـ « أنا أعرف ما أقول فلا تنتظروا حتى يموت الصبى وتزعموا أننى كاذب .. إننى أؤكد بكل أمانة أن من سينقذ هذا العالم يُدعى (قطز) .. (سيف الدين قطز) .. ولا أعرف واحدًا آخر بهذا الاسم سوى الصبى .. »

ـ « والدليل ؟ »

ـ « لا دليل سوى كلامى .. لكن كمبيوتر المغول ـ ماذا كان اسمه ؟ ـ قد استنتج شيئًا مماثلاً .. لهذا تعليمات المغول تقضى بإبادة العرب والمسلمين عن بكرة أبيهم .. وغارة (طهران) التى وقعت أمس تقول إننى صادق .. »

ورفعت أصبعى السبابة مؤكدًا :

ـ « حسابات التنبؤ المستقبلية للكمبيوتر تقول إن

الخطر القادم عربى أو مسلم .. وأنا ـ بمصادرى التى لن أعلن عنها ـ أقول إن الخطر القادم هو صبى من أصل تركى يدعى (سيف الدين قطز) .. فهل مازلتم مصرين على الإنكار ؟ »

تبادلوا النظرات .. واضح أن الشك بدأ يغزو نفوسهم ..

وقال (كالاهان) وهو يتأمل الصبى :

ـ « لماذا لانحاول إنقاذه يا (ماك ـ جورج) ؟ من الخسارة أن يموت ملاك صغير كهذا .. »

ظلّ الثور الأسود صامتًا يفكر ..

ثم ـ بعد برهة ـ أشار بيده إلى ممر جانبى .. وغمغم :

ـ « ليكن .. لكن احرص على عزله عن الآخرين ... »

وحمل الأب ابنه إلى المكان المقصود ..

كانت هناك حشية على الأرض .. ومصباح (كيروسين) .. ولا شىء آخر سوى رائحة المجارى القوية ..

شمرت (سلمى) عن ذراعيها .. وصاحت :



وراحت تضع الكمادات للصبى مستعملة دلوًا مليئًا بثلج مجروش من الشارع ..

ـ « سأعنى به .. أعرف أننى أستطيع العناية به .. »

وقمنا بتجريد الصبى من ثيابه ، وأحرقناها بعناية .. ثم تخلصنا من ثيابنا أيضًا وارتدينا ثيابًا نظيفة ، ووضعت (سلمى) قناعًا صغيرًا على أنفها .. وراحت تضع الكمادات للصبى مستعملة دلوًا مليئًا بثلج مجروش من الشارع ..

ـ « نحن بحاجة إلى مخفضات حرارة .. وبعض (الستربتوماسين) .. »

سألتها فى دهشة :

ـ « من أين تعرفين ما ينبغى عمله ؟ »

ـ « إنك تقرأ هذه الأشياء أحيانًا .. »

المشكلة هى أن الدواء لا يُصرف فى هذا العالم إلا بتذكرة طبية .. ولا يمكن الحصول على واحدة إلا فى وجود طبيب .. والطبيب سيبلغ فرق الحرق وإلا احترق هو شخصيًا ..

قال (كالاهان) وقد بدا الأمر يثير اهتمامه :

ـ « إن (أبو فراس) قد جلب لنا بعض المعونات الطبية .. ربما وجدنا بينها ما يصلح .. »

واقتاد (سلمى) إلى ثلاثة صناديق متراصة ملأى بالأدوية .. ولم تكن الأسماء التجارية معروفة لنا لكننا رحنا نتهجى الحروف حتى وجدنا كلمة (ستربتوماسين) .. وبعملية حسابية بسيطة عرفنا الجرعة الملائمة للصبى ..

كان المسكين يهذى .. وقد تحشرج صوته ، فلم نعد نفهم شيئًا مما يقول .. وحين عرَت (سلمى) فخذه وجدنا العلامة المشئومة إياها ..

الخراج الساخن الأحمر الثائر ..

ـ « ثمة فرصة لا بأس بها فى أن ينجح فتح الخراج فى إنقاذه .. »

ـ « وكيف تعرفين هذا ؟ »

ـ « قرأت عندكم تاريخ الحملة الفرنسية فى (عكا) .. وعرفت ما كان أطباء (نابليون) يفعلونه لإنقاذ مرضى الطاعون الفرنسيين .. »

ـ « والعدوى ؟ »

ـ « لن تحدث .. لقد قطع (ديجنت) طبيب الحملة الفرنسية فخذه بمبضع ملوث بصديد من جندى فرنسى يحتضر .. ولم يحدث له شىء .. »

وطلبتُ خنجرًا .. فكان عندها خمسة منها .. وسرعان ما بدأت تمارس مهمتها البشعة .. رباه ! لقد كانت (سلمى) ثابتة الجنان حقًا ..

★ ★ ★

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، دخلتُ (المستشفى) الصغير الذى أوجدته لنا .. فوجدتها تواصل وضع الكمادات .. بينما أبو الصبى يحاول إقناعه بتجرع بعض الحليب ..

ـ « كيف الحال ؟ »

ابتسمتْ .. وكانت عيناها حمراوين بلون الدم إرهاقًا .. وأرخت قناعها :

ـ « الحرارة تنخفض .. لكن الخطر لم يتزحزح .. »

لكن وجه الصبى كان أقل احتقانًا ...

وعرفت أننا ـ حتى هذه اللحظة ـ قد بدأنا نربح معركتنا المرتجلة مع الموت .. ونربحها بماذا ؟ بوسائل تثير ضحك أى طبيب فى أحقر وحدة ريفية معدومة الإمكانيات ..

الخطر لم يتزحزح ..

لكنه لم يعد واثقًا من نفسه إلى هذا الحدّ ...

★ ★ ★

ليلة الكريسماس ...

خرجنا من المجارى لنلقى نظرة على المدينة ..

فأنا لم أر (الكريسماس) فى بلد أجنبى قط .. ومن الغريب أننى أراه حين أراه فى بلد أجنبى فى كوكب آخر .. ووسط طغيان المغول .. وخطر الطاعون ..

رأيت ذلك الطابع الساحر الحزين للجليد والبرد وأغانى عيد الميلاد ، والأضواء التى تلتمع متلألئة بمئات الألوان ، فوق الأشجار التى كساها الثلج .. والمزود بأبقاره وخرافه .. وتماثيل العذراء ووليدها ..

كان العبيد يحاولون أن يستمتعوا بحياتهم ، ناسين - أو متناسين - الطاعون والمغول وصوت الطلقات التى تدوى فى الأحياء الخلفية ..

لكن المغول ما كانوا ليتركوا لحظات كهذه ...

كان التلفزيون ينقل باستمرار المذابح التى يقومون بها فى دول الشرق الأوسط .. ثم - فى السابعة مساءً - أعلنت المذيعة بوقار عن الانتقال إلى (مقبرة الجدود) لنقل طقوس (عيد المومياء) ...

- « عيد المومياء ؟ »

- « طبعًا .. لقد اختاروا أن يكون هذا العيد ليلة

الكريسماس لإفساد متعة المحتفلين فى كل مكان .. »

وكانت مقبرة الجدود مبهجة حقًا ..

مومياوات معلقة من خطاطيف فى كل صوب وعلى كل جدار .. وقد راحت الكاميرا تجول بينهم مع تنويه عن اسم كل مومياء نراها .. والأمجاد التى قامت بها ...

كنا نشاهد هذه السهرة الممتعة فى وكر (الخاسرين) تحت الأرض ، وبالطبع لم أجرؤ على إظهار دهشتى أو تقززى لأن ما يدور كان روتينيًا بالنسبة للجالسين جميعًا ..

وبعين لا تصدق رأيت المغول يسكبون الكيروسين على ثلاث أو أربع مومياوات .. ثم يشعلون فيها النار ..

وراحت الجذوة الرهيبة تزداد توهجًا .. والضوء الأصفر المقيت يغمر الوجوه .. فيما المغول ينشدون بصوت رهيب أنشودة ما .. لا بد أنها نوع من الحنين لأمجاد الماضى ...

قال (كالاهان) ويده على ذقنه .. وقد أحس بحاجة إلى التعليق :

ـ « إن الأوغاد يقدسون النار حقًا .. وهم بهذا يمنحون التكريم الأعظم لأجدادهم ... »

ثم ابتسم بخبث .. وأردف :

ـ « لكن الحرق ينتهى بنبوءة دائمًا .. دعنا نسمع ما يُقال .. »

لم تعد معالم المومياوات ظاهرة .. فقد تحولت إلى نوع من الفحم الأسود .. والدخان يزداد كثافة ..

ـ « تبًا ! يا له من حفل منوعات ! »

وإذا بمغولى أشيب اللحية ، يرتدى ثيابًا تقليدية كالتى ارتداها المغول يومًا وهم يفارقون ثلوج (منغوليا) ، يتقدم فى تؤدة نحو المومياوات المحترقة .. وينحنى .. ويصغى ..

هنا دوّى صوت رهيب يقول أشياء لا أعرف كنهها ..

ورفع الكاهن ـ لا بد أنه كاهن ـ عقيرته يردد ذات الكلام...

وهنا بدأ المرح .. الصياح .. آلاف المغول يرقصون حول المومياوات المحترقة .. يلوحون بالسيوف .. يجرعون الخمر حتى الامتلاء ..

بينما نحن نرمق كل هذا فى غيظ غبى .. أو غباء مغتاظ ..

التفت أحد الثوار إلى (كالاهان) يسأله :

ـ « ما رأيك ؟ »

ـ « الأمر واضح .. »

وتنهد فى استسلام ..

سألته ـ وقد أدركت أنه يجيد اللغة المنغولية ـ عما هنالك .. فقال :

ـ « لقد تكلمت الأرواح .. قالت لهم إن الخطر الذى يهدد أمة المغول مريض الآن تحت الأرض .. فى إحدى مدن (أمريكا) .. وأنه حتمًا ميت .. فلا خوف على المحاربين الشجعان .. »

وهنا سمعت صرخة (سلمى) .....

صرخة لم يسمعها سواى .....

★ ★ ★

٩ - أحــدهم بيننـــا ..

هرعت إلى المستشفى المرتجل متوقعًا أننى سأجد الصبى ينظر للسقف بعينين لا تريـان ، و(سـلمى) تولول ، والأب فاقد الوعى أو يولول بدوره ..

حمدًا للّه لم أر شيئًا من هذا ..

فقط كانت (سلمى) واقفة فى منتصف القاعة ، ويدها اليمنى فى خاصرتها ، ويدها اليسرى تمسك بزجاجة حقن ، وعلى وجهها تعبير اتهام لا يمكـن وصفه .. وحين رأتنى ارتفع حاجب الشك الأيسر وقالت :

- « (سـالم) .. لقـد كنت موشكة على إعطـاء الصبى حقنة المضاد الحيوى ، حين اكتشفت أنهـا تحوى هذا الشئ ! »

تقدمت فى خطوات مترددة ، وأمسـكت بزجاجـة الـ (ستربتوماسين) التى فى يدها .. وتأملتها فى نور المصباح ..

كان الأمر أخطر - إلى حدّ ما - من انتهاء تاريخ الصلاحية .. لقد تم إلصاق ورقة مزيفة على الزجاجة التى يعلم اللّه وحده ما تحتويه ..

قلت لها وأنا ألقى بالزجاجة فى أحد الأركان :

- خطـأ قاتـل .. ولا بـد أن هنـاك من عبث بهـذه المعونات .. إن هذه الأشياء تحدث .. »

قالت بنفس صيغة الاتهام :

- « تحدث كثيرًا جدًا .. لأننى وجدت ذات التلاعب فى زجاجة مخفّض الحرارة أمس .. ثم اكتشفت أن مسحوق اللبن الذى كنت أقدمه له لا يذوب فى المـاء جيدًا .. وقد أجريت تجربة صغيرة على متطوع رضـى بأن يذوق بضعة ملليجرامات من المسـحوق .. مجرد جزء صغير من طـرف الملعقـة .. وكـانت النتيجـة حاسمة .. »

عندها عرفت سرّ هـذه الكتلة من الثياب المكوّمة فـى ركـن القاعـة .. لقـد كـان هـذا هـو (قاسـم) - المتطوع - الذى تمدد على الأرض ، غارقًا فى القئ والأنين .. لقد لمحته بطرف عينى ولم أدر ما هو ..

كان حيًا لكنه يتألم إلى حدّ يجعله يتمنى لو لم يكن ...

تساءلت فى غباء :

- « وما معنى هذا ؟ »

- « معناه أن هناك من يحاول جاهدًا الخلاص من (قطز) الصغير .. وبالتالى هو عميل للمغول .. »

- جلست على الأرض محاولاً أن استجمع أعصابى .. وقلت :

- « ولكن لماذا ؟ »

ردّت وهى تتناول زجاجة حقن جديدة وتتأكد من مظهرها :

- « لأنك كنت مقتنعًا فى خطبتك البليغة .. ويبدو أن هناك من اقتنع بها أكثر من سواه .. »

- « لا أعتقد هذا .. فالمغول - لو علموا مقرّ الثوار - لقادرون على اقتحام المكان وحرقه قبل أن يرتدّ إليك طرفك .. ويمكنهم التخلص من الصبى وأبى الصبى وأجداده ، دون حاجة إلى هذه الألاعيب التى تنم عن ضعف وجبن ..»

قالت وهى تملأ المحقن :

- « بالعكس .. إن عميلهم هنا يجعلهم على علم تام بأسماء الثوار وتحركاتهم .. فهم يمارسون

ما يقوم به رجال المخابرات حين يتركون جاسوسًا (تحت السيطرة) .. فيتمتع بحريته كاملة لأن حريته تقدم لهم من المعلومات ما هو أكثر قيمه من القبض عليه .. ولا بد أن عميلنا الهمام قد تلقى أمرًا بالخلاص من الصبى على سبيل الاحتياط .. »

- « وبالطبع لو مات الصبى فالطاعون هو المتهم الوحيد .. »

قالت وهى تفرغ المحقن فى فخذ المريض :

- « أو أكون أنا السبب لأننى جاهلة بالطبّ .. »

هنا قلت وقد تذكرت شيئًا :

- لقد فاتك منذ ثوان احتفال المغول بحرق المومياوات على شاشة التلفزيون .. كانت هناك نبوءة بصدد هذا الصبى .. »

- « بالطبع هى نبوءة صادقة جدًا .. لأنها تقرير مخابرات وليست نبوءة .. وهذا يعطى مصداقية لكهنتهم النصابين .. »

غطيت وجهى بيدى .. وهمست :

- « رباه ! أنا خائف ! »

هرعت لتجلس جوارى على الأرض وطوقت عنقى بساعدها ..

ـ « خائف يا حبيبى الصغير ؟ »
ـ « إننى لا أحتمل جو الأخطار والمؤامرات هذا .. فأنا رقيق الإحساس .. ربما جبان كذلك .. »
ـ « كلا .. لست جبانًا .. فقط أنت لا تخجل من الاعتراف بالخوف .. »
كانت رقتها تغمرنى ..
وتذكرت ـ فى زحام الهموم ـ أننى أحبها كثيرًا .. فقط لم أجد وقتًا كافيًا للتعبير عن ذلك أو لاستعادته ...
وهناك إذ جلسنا على الأرض نرمق جسد الصبى النائم ـ والذى بدأ يتحسن بشكل واضح ـ كان السؤال الذى يؤرقنا هو ..
من هو ؟ من هو ؟

★ ★ ★

بالطبع هو (ماك ـ جورج) الدبّ الأسود الفظّ ..
قالت (سلمى) باسمة :
ـ « لا أظن .. أنت تكرهه مثلى لكن ذكاءه المحدود لا يتيح له أن يلعب دور العميل .. إننى أفكر فى آخر واحد يمكن التفكير فيه .. (كالاهان) .. إن الأشخاص شديدى المودة يكونون هم الجناة دومًا فى القصص البوليسية التى على غرار (من فعلها ؟) .. »

ـ « وماذا عن (جيمى) النصاب ؟ »
ـ « وماذا عن باقى الثوار ؟ إن الاحتمالات كثيرة جدًا .. لكن يجب أن نثق بواحد .. »
ـ « أنا أعرف ! »
كان هذا هو الأب التركى الذى تحامل على نفسه ليجلس .. وهزّ رأسه ليتخلص من الدوار المزعج .. وراح يجفف ما على وجهه من عرق ، وما على شفتيه من قئ ...
قالت (سلمى) فى سرور :
ـ « يسرنى أنك لم تمت بعد .. »
قال وهو غير مستعدّ للردّ على دعابتها :
ـ « (أبو فراس) .. سنذهب إليه .. إنه يعرف ما يجب عمله .. »
ـ « ولكن ..... »
ـ « البقاء هنا لا يعنى سوى موت الصبى .. فى هذه المرة لن يكون الطاعون هو السبب ... »
وراح يجمع زجاجات الدواء المبعثرة والسرنجات فى كيس بلاستيكى .. ثم طلب منى أن أحمل الصبى لأنه لا يقدر على ذلك .. أنا ؟ أحمل بين ذراعى مريض طاعون ؟ إن الرجل يبالغ حقًا ..

همست (سلمى) وقد فهمت ما يدور بخلدى :

ـ « هلم .. لقد فعلها (بونابرت) مع مريض طاعون فى (عكا) .. ولم يكن هناك علاج للمرض وقتها .. »

ـ « يا سلام ! لقد فعلها (بونابرت) كى يزيل مخاوف الأطباء من المرض ويضرب لهم مثلاً شجاعًا .. وربما فعلها تظاهرًا كى يتحدث عنه التاريخ بإعجاب .. لكن ماذا أحاول إثباته أنا ؟ »

تنهدت فى صبر .. وقالت :

ـ « (سالم) ! احمل الصبى ! »

وعلى كل حال فعلتُ ما طلبته منى حرفيًّا ...

وفى هذه المرة لم نخرج إلى القاعة الرئيسية حيث الثوار ، بل قادنا الأب إلى ممر جانبى متعرج مظلم .. ورحنا نركض لاهثين .. ومياه المجارى تتناثر تحت أقدامنا ..

طراش ش ! دوّى هذا الصوت أكثر من مرة حين كان أحدنا يتعثر أو يوشك على ذلك .. لكننا واصلنا ركضنا هاربين من المكان ...

وحينما فتح غطاء المجرور ؛ لم نكن نعرف أهذا ليل أم نهار .. فكل الأوقات تتشابه تحت الأرض ..



ورحنا نركض لاهثين .. ومياه المجارى تتناثر تحت أقدامنا ..

لكننا لمحنا اللون الأسود .. والأضواء الخافتة القصية ، فعرفنا أننا ليلاً ..

بل فى منتصف الليل على وجه الدقة ..

الجليد يغطى الأرض .. ومن بعيد تسمع أناشيد الكريسماس .. وتسمع جلبة المحتفلين .. لكننا هنا نحاول أن نعيد غطاء المجرور إلى مكانه ، ونهيل الثلج عليه ليبدو غير مختلف عما حوله ..

واجتزنا بضعة أزقة من تلك التى لم نر سواها فى (نيويورك) ..

وعند قارعة الطريق رأينا الشرطى المغولى ..

وكان يشير نحونا بفوهة بندقيته الآلية .. وسمعناه يهتف :

ـ « تعالوا ! »

★ ★ ★

فى رعب تقدمنا .. لكن الأب كان أكثرنا جرأة ..

رأيته يدنو من الشرطى .. ينحنى ليدنى فمه من أذنه ويهمس بشىء ما .. هنا ابتسم الشرطى وتأملنا قليلاً ..

ثم ـ بعربية واضحة ـ سمعته يقول :

ـ « مرحبًا بكما .. أنتما فى أمان الآن ! »

ـ هتفت (سلمى) فى ذهول :

ـ « أنت ؟ »

ـ « نعم أنا (أبو فراس) .. إن نوبة حراستى هنا دائمًا .. والجميع يعرف أين يجدنى .. »

قلت أنا منبهرًا :

ـ « تنكر متقن حقًا ! »

ـ « إنه كذلك .. ولا يكلف كثيرًا سوى إطالة شاربيك ، وإجراء جراحة تجميل لجعل عينيك مشدودتين ضيقتين .. لم يستطع أحد أن يشك فىّ على مدى خمسة أعوام .. »

ـ ثم دعانا إلى وكره .. وهو بيت صغير من القرميد الأحمر على بعد مائة متر من المكان الذى قابلناه فيه ..

أوقد النار فى مدفأة صغيرة ، وأعدّ لنا بعض الشاى ، ثم مسح بيده على جبين الصبى .. وقال :

ـ « أرى أنه يتحسن .. ما اسمه ؟ »

ـ « (سيف) .. »

ولم أرد أن أوضح أكثر .. فمن يدرى ؟

قال الأب :

ـ « نريد تهريبه خارج البلاد باسم مستعار .. نريد بلدًا آمنًا يترعرع فيه فى سلام .. ربما (نيوزلندا) أو (أستراليا) .. »

ـ « هل لى أن أعرف السبب ؟! »

صمت الأب مفكرًا .. ومن الواضح أنه قرر أن يخفى أوراقه لأسباب مشابهة لأسبابى .. لم يعد من الممكن الثقة بأحد فى هذا العالم ..

هنا نظر (أبو فراس) لى و(سلمى) .. وقال :

ـ « والآن هل لى أن أتشرف باسمكما .. وكيف دخلتما البلاد ؟ »

قال الأب وهو يرشف الشاى :

ـ « كيف لا تعرفهما يا (أبو فراس) ؟ ما من عربى يدخل البلاد من دون عونك »

ـ « لهذا أسأل .. ربما أنسى الأسماء لكنى لا أنسى الوجوه .. »

وابتسم ابتسامة قاسية .. وأردف :

ـ « وعليهما أن يثبتا لى أنهما ليسا جاسوسين للمغول .. »

★ ★ ★

١٠ ـ الفــرار ..

فى هذه المرة كان لا بد من أن نحكى كل شىء بالتفصيل ..

بدا الأمر لـ (أبو فراس) كإحدى قصص الخيال العلمى .. وفى الغالب لم يصدق حرفًا .. لكنه افترض كذلك أننا معتوهان ولسنا جاسوسين لدى المغول ..

★ ★ ★

وحينما وصلت بقصتى إلى الدواء المغشوش بدا الاهتمام على وجهه ، الذى تمكن جراحو التجميل من جعله وجهًا مغوليًا شرسًا ..

وقال وقد بدأ يفهم :

ـ « لا بد من وجود جاسوس .. هذا طبيعى .. لكنى الآن أعرف من هو .. إنه (كالاهان) طبعًا .. فهو الوحيد الذى يتعامل مع صناديق المعونات الطبية والألبان .. ثم إنه ضالع فى تدبير كل خطة فاشلة قام بها (الخاسرون) .. عندما يتجه خمسة منهم لتفجير مخزن سلاح ، ويجدون المغول بانتظارهم .. من صاحب الخطة ؟

(ستيفن) و (كالاهان) .. عندما نخطط لنسف (أوجوتاى) ونجد المغول قد نقلوا كابلاته .. من صاحب الخطة ؟ (ماك - جورج) و (كالاهان) .. »

قلت مفسرًا :

- « أى أن (كالاهان) هو المضاعف المشترك الأصغر فى كل هذا .. »

- « لكن إثبات هذا عسير فى مهنة خطرة بطبيعتها .. أنتما الآن تقدمان لى برهانًا لا يحتمل الخطأ .. »

ثم نظر إلى الصبى وقال :

- « سنقوم بترحيله إلى مصر بمجرد مايستعيد قدرته على المشى .. »

صحت فى احتجاج :

- « مصر ؟ إن البلاد العربية كلها غير آمنة فى هذه الفترة .. فالمغول يتوقعون الخطر منها .. »

قال فى ثقة :

- « سنعرف كيف نخفيه هناك بين الفلاحين أو سواهم .. لا بد من أن يترعرع (قطز) فى مصر إذا كانت النبوءة صادقة .. وبهذا لن نترك احتمالاً للفشل .. »

قلت له وقد تذكرت مشكلتنا الخاصة :

- « ثمة نقطة أخرى .. إن جهاز نقل الجزيئات الآن فى حوزة واحد من الخاسرين يُدعى (لارى هولدن) .. وقد ذهب فى مهمة لم يعد منها حتى الآن .. فهل عندك فكرة عن ؟ »

- « إن (لارى) قد خرج لنسف مركز اتصالات الـ (إيثرنِت) الخاص بالمغول .. والخطة من تدبير (كالاهان) .. أعتقد أنه سيلاقى مفاجأة غير سارة إن كان لى أن أعتمد على حدسى .. إن العثور على جهازكما شبه مستحيل .. لكن عندى أملاً واهيًا .. »

ثم نظر إلى الأب .. وسأله :

- « هل هناك جثث جديدة فى (سنترال بارك) ؟ »

- يبدو أن هناك اثنتين .. »

قال لى وهو يحشو مسدسًا ويدسه فى حزامه .. ويتأكد من وجود الرشاش والقنابل اليدوية :

- « إن المغول يعلقون قتلاهم فى (سنترال بارك) كالذبائح .. ويمنعون دفنهم .. نحتاج إلى حظ غير عادى كى نجد (لارى) هناك ، ونجد الجهاز فى جيبه .. فلنأمل أن المغول لم يفتشوا جثته .. »

قال الأب مؤمنًا :

ـ « ولنأمل أن طلقاتهم لم تهشم الجهاز ! »

بدا لى الأمل واهيًا كأمل أن تمزق طلقة رصاص قلبك وتبقى حيًا .. لكنى تمسكت به على كل حال ..

ـ « هيا بنا ... »

وحمل الأب صغيره بين ذراعيه .. وأمسكت بـ (سلمى) من ذراعها .. واتجهنا نحو باب المخبأ .. كانت هناك دراجة بخارية خاصة بـ (أبو فراس) من دراجات الشرطة .. لكننا صرنا مضطرين للمشى ..

سألته ونحن نخترق الشوارع الخلفية لاهثين :

ـ « ما هى خطتك لتهريب الصبى ؟ »

قال وهو يتلفت حوله فى حذر :

ـ هناك طيار روسى يدعى (أنطون إيزاروفيتش) .. هو الذى يتولى هذه الأمور .. فالروس هم الذين اخترعوا دفاعات الرادار للمغول ، وهم الذين اخترعوا طائرات قادرة على اختراق هذه الدفاعات ! لقد قدموا للمغول السجن ، وقدموا للثوار المفتاح ! لذا أستطيع الدخول والخروج بحرية تامة .. »

ـ « أنت رائع يا (أبو فراس) ! »

ـ « هذا صحيح .. أنا (بابا نويل) العرب ها هنا .. وكلهم يعرفون أننى سأنقذهم من أى خطر .. »

ـ « نحن مدينون لك .. »

قال وهو يلهث فى ركضه وقد سبقنى ببضعة أمتار :

ـ « أنا كذلك مدين لكم .. فأنا فى الخامسة والأربعين من عمرى ، وقد صار الكفاح مهنة مرهقة لى .. عشرون عامًا أركض فى الشوارع الخلفية ، وأهرب السلاح ، وأطلق النار على المغول .. ثم ... »

ثم التفت للوراء والتمعت عيناه .. وأردف ... »

ـ « ثم جئتما لتقولا لى إن هناك أملاً .. بعدما ظننت أنه لا أمل هنالك ، وأن المغول باقون حتى تقوم الساعة .. من يدرى ؟ ربما لو عشت عشرة أعوام أخرى لصرت من قادة (قطز) .. لربما وقفت بجانبه فى تلك المعركة .. قلتم لى ما اسمها ؟ »

ـ « (عين جالوت ..... »

ـ « (عين جا ..... »

ولم يكمل حروف الكلمة .. لأن الليل استحال نهارًا .. ورأينا عشرات الكشافات مصوبة نحونا من كل الاتجاهات .. كأن الشموس قد تحالفت علينا ..

ودوت طلقات الرصاص كالسيل المنهمر ..

بصعوبة عرفت أن هذا هو صوت الرصاص ، وأن هذه الطلقات موجهة نحونا .. فقد بدا الأمر كحلم ملون غريب ..

ـ « اللعنة ! »

قالها وألقى بقنبلة انتزعها من حزامه .. وراح يركض نحو الجدار المجاور لنا .. فهرعنا نركض وراءه .. وشعرت بألم حاد فى كعب حذائى ، لا .. بل فى كعب قدمى .. لكنى لم أكف عن الركض ....

وحين نظرت لحظة إلى الوراء رأيت المكان قد استحال إلى ضباب كثيف عجزت الكشافات عن اختراقه ..

كانت قنبلة دخان ..

وتوارينا فى الفراغ ما بين بنايتين .. فراغ ضيق لكنه يسمح له بإطلاق الرصاص بغزارة ولا يسمح لمحاصرينا بالدنو .. لكنه مصيدة فئران لعينة لا يمكن البقاء فيها أكثر من دقائق ..

وسمعته يقول وهو يشهر بندقيته الآلية :

ـ « إنه (كالاهان) .. لقد أبلغهم بمقرى .. اللعنة ! إنهم يخشوننا حقًا ، وقد دفعهم الخوف إلى التخلى عن مراقبتهم الحذرة .. »

ثم نظر إلى الأب المذعور وقال له بلهجة لا تقبل المناقشة :

ـ « ستذهب إلى (جيمى) .. هو يعرف أين يقودك .. ولسوف يقوم (إيزاروفتش) بالفرار بك هذه الليلة .. »

وداعب وجه الصبى السقيم بسبابته .. وقال :

ـ « وداعًا أيها القائد (قطز) .. لا ترفق بهم .. واذكرنى بالخير فى كتب التاريخ التى ستصف مجدك .. يجب أن تدمّر الكمبيوتر (هولاكو) فى (سيبيريا) قبل أن تقارع جيوش (كتبغا) فى (عين جالوت) .. لا تنس هذا ! »

ثم نظر لى و(سلمى) وهتف بذات اللهجة :

ـ « أما أنتما فتذهبان إلى (سنترال بارك) وحدكما .. وإن لم تجدا الجهاز فاذهبا إلى (جيمى) طالبين العون .. وداعًا ! وخذا هذا معكما .. »

هتفت (سلمى) وهى ترمق المسدس الذى فى قبضتى :

ـ « سنبقى معك ! »

ـ « هل تمزحان ؟ لا بد من أن أغطى هروبكما بستار من النيران .. ثم إنهم سيحضرون قاذفات

اللهب حالاً .. وهى كفيلة بتحويل هذا المكان إلى سقر .. أسرعا ! »

واندفعنا نركض بين البنايتين قاصدين الجهة الأخرى غير المحاصرة .. ونحن لا نزال نسمع صيحته : (أسرعوا) ..

بعدها انطلق وابل من النيران من بندقيته الآلية ..

★ ★ ★

لم يكن هناك سوى الظلام عند نهاية الفراغ بين البنايتين ..

رحنا نركض فى المساحة الخالية المكشوفة ، ولحسن الحظ كانت هناك سيارتا أجرة تقفان بعيدًا ، وقد وقف سائقاها خارجًا يثرثران ويدخنان ..

وعلى الفور وثب الأب وابنه فى واحدة ، ووثبت و(سلمى) فى الأخرى .. ونظر السائقان لنا فى دهشة .. ثمة اتجه كل منهما إلى سيارته ..

أخرجت رأسى من النافذة ولوحت للأب ..

ربما لن يرى أحدنا الآخر ، لكنى أعرف أنه سيذكرنا طويلاً جدًا كما سنذكره .. هذا إن بقى أحدنا حيًا ..

هتف الأب بالإنجليزية :

ـ « سننجح .. اطمئن علينا .. المشكلة الحقيقية هى مشكلتكما ! »

ثم أردف بالعربية والسيارة تتحرك (حتى لا يفهم السائق كلامه) :

ـ « لا تتوقفا أبدًا حين ترونهم .. فهم لن ينذروكما أو يقبضوا عليكما أو يستجوبوكما .. بل سيطلقون الرصاص على الفور ! »

وتحركت السيارة بعيدًا عن عيوننا ...

وهنا رأينا لسان النار يخرج من الشقّ الذى كنا فيه بين البنايتين وعرفنا أن (أبو فراس) كان صادقًا ...

رحمه الله .. لقد كان رجلاً شجاعًا !

ـ « (سنترال بارك) بأقصى سرعة .. »

قلتها للسائق الزنجى .. فسألنى بأسلوب الزنوج المميز فى الكلام :

ـ « هل عندك مشاكل مع المغول يا رجل ؟ أنا لا أريد مشاكل ! »

ـ « لا تقلق .. فقط تحرك سريعًا .. »

وانطلق السائق ينهب الشوارع نهبًا .. الشوارع المظلمة الكئيبة التى كساها الجليد .. وعلى الرغم منى خرجت أنّة من بين أسنانى ..

- « هل أصبت ؟ »

- « نعم .. فى كعبى .. ولكن لا داعى للهستيريا .. الأشياء المهمة أولاً .. »

وهنا لمحنا الأضواء من ورائنا .. ودوت سرينة عربات الشرطة تولول منذرة بهلاكنا التام وموتنا الزؤام ..

قال الزنجى وهو يرمق المرآة :

- « اللعنة يا رجل ! انتما هاربان ! سأتوقف ! »

- « لا يا غبى .. فهم لا يتناقشون .. »

- « وأنا لا أريد مشاكل لعينة .. إنهم يعرفون رقم سيارتى الآن ! »

وأدار المقود ليقف إلى جانب الطريق ..

وداس الفرملة .. عندها جذبت يد (سلمى) وفتحت الباب الجانبى ووثبنا منه .. وأطلقنا ساقينا للريح ..

كان هناك زقاق ضيق .. فاندفعنا نجرى فيه .. واخترنا أول منعطف لليسار ثم ثانى منعطف لليسار ..

* * *

إنهم لن ينذروكما أو يقبضوا عليكما أو يستجوبوكما .. بل سيطلقون الرصاص على الفور ...

* * *

(سنترال بارك) ..

الحديقة الأسطورية تغفو فى الظلام وقد أشعرها الجليد ببرد شديد ..

إنها مكان غير مأمون فى عالمى .. يؤمه اللصوص وتجار المخدرات ، ولا يمكن المشى فيه ليلاً إلا بمطواة مفتوحة ..

لكنها - فى عالم القهر هذا - مكان مأمون .. من الغريب أن البلطجية فى هذا العالم وجدوا أنفسهم مرغمين على لعب دور الثوار ..

الخطر الوحيد هنا يأتى من الشرطة .. لا من أعدائها !

كنا نركض لاهثين ...

البخار يتصاعد من ثغرينا .. وآذاننا تصفر ..

ثمة إحساس يغمرنى بأن هذه هى نهاية الفيلم ..

ترى هل يكون المخرج من التقليديين فينهى فيلمه نهاية سعيدة ، أم يكون ثائرًا من تلاميذ الواقعية الإيطالية فينهى الفيلم بموتنا شر ميتة ؟

إننى أفضل المخرج الثانى حين أذهب للسينما ..
لكنى فى الحياة أفضل بالتأكيد المخرج الأول ..
هه ! هه ! المزيد من البخار ...

وهناك ـ على ضوء مصابيح الصوديوم الخافت ـ استطعت أنْ أرى الأجساد المعلقة .. كل جسد معلق على عمود إضاءة ..

★ ★ ★

ودنونا بحذر من مشهد الهول هذا ..

كانت ستة أجساد .. اثنان منها بلا رأس ..

وقد تدلت الأجساد بحبال غليظة ربطت إلى السيقان .. وفى الضوء الخافت كان بوسعنا أن نرى الثقوب الدامية فى الأجساد .. فى الرءوس .. فى الأعناق .. فى العيون ...

مدّت (سلمى) عنقها إلى الأمام وشهقت ..

ثم إنها أفرغت معدتها .. وعندها استطاعت أن تتنفس ..

ـ « يا للهول ! »

كان هناك جسدان انتفخا وفاحت رائحة العفن منهما .. يمكننا إذن أن نستثنيهما .. فالأجساد

لا تتعفن بهذه السرعة فى الشتاء .. و(لارى هولدن) ـ لو كان قد مات ـ لا يمكن أن يكون قد مضى عليه أكثر من يومين .. وكانت هاتان هما الجثتان عديمتا الرأس ..

بقيت أربعة أجساد ..

اتجهت إلى العمود الأول .. ورحت أتسلق المعدن البارد ببطء شديد وتأملت الوجه الغائب فى سرّ الأسرار ..

كان أقبح من رأيت فى حياتى ..

مددت جسدى محاولاً الوصول إلى جيبه .. لكنه كان بعيدًا عن متناول يدى .. رحت أحاول مرارًا ..

هنا صاحت (سلمى) وهى تنظر لأعلى نحوى :

ـ « (سالم) .. لا تضيّع وقتك .. اختر أكثر الجثث وسامة فلا بد أنه هو ! ألم يقولوا إن كنيته هى (الجميل) ؟! »

حقًا يا (سلمى) .. أنت ذكية حقًا ...

ورحت ـ وقد عدت إلى الأرض ـ أفتش عن أكثر الجثث جمالاً ..

يا لها من مهمة سخيفة ! إن الجثث كلها تتشابه ..

قناع الموت يشوه الوجوه كلها ، أكانت لـ (مارلين مونرو) أو أحدب (النوتردام) .. كان هناك فتى أشقر الشعر أزرق العينين .. ربما هو وسيم كذلك ..

وفى هذه المرة كان تصرفى إيجابيًّا .. أخرجت المسدس وأحكمت التصويب على الحبل الغليظ و .. بوم !

ووم ! ووم ! ووم ! راح الصدى يردد الطلقة عشرات المرات ، وعلى الأرض تمددت جثة الفتى والجليد يتناثر حولها ..

ـ « هل جننت يا (سالم) ؟ »

ـ هذه هى الطريقة الوحيدة لفحص الجيوب .. »

ـ « لكن الموتى سيسمعوننا ! »

ـ « إن المغول آتون هنا على كل حال .. فسائق سيارة الأجرة قد أخبرهم بكل شىء حتى اسم زوج خالته .. »

كنت أتكلم وأنا أبحث فى الجيوب ملهوفًا .. الدم المتجمد يلوث يدىّ ، وشعور حقير بأننى سارق جثث ..

لكنى تغلبت على تقززى وواصلت البحث ..

لاشىء ..

ونهضت باحثًا عن عمود آخر عليه جثة حسنة المظهر ..

كانت جثة شاب أسود الشعر .. ويبدو أنه لاقى عناء كبيرًا فى الموت فأتعبوه وأتعبهم ..

بوم ! سقطت الجثة وسط الثلوج .. ورحت أنقب فى جيوبها ..

لا شىء ...

وهنا خطرت لى فكرة .. لم لا يكون الـ ......

وهنا رأينا الطائرة قادمة ....

★ ★ ★

إنهم لن ينذروكما .. أو يقبضوا عليكما .. أو يستجوبوكما .. بل سيطلقون الرصاص على الفور ...

★ ★ ★

راتاتاتاتاتاه !

ورأيت خطًّا من طلقات الرصاص يرتسم على الجليد فى اتجاهنا .. ومرّ الخط على بعد مترين منا .. ولمحت وجه (سلمى) يلتمع فى ضوء الكشاف القوى وهى تصرخ ، بينما الجليد يتناثر فى كل صوب ..

وحين ابتعدت الطائرة لتقوم بدورة أخرى ،

استطعت أن أعرف أنها طائرة عمودية .. وأن (مترليوز) هائل الحجم يخرج من بابها ..

- « (سالم) ! فلنهرب ! »

نعم .. هذا حق .. ولكن لأين ؟

ورأيتها ترجع لتعيد الكرّة .. فأمرت (سلمى) بالاحتماء خلف عمود .. وصوبت المسدس فى دقة .. وكتمت أنفاسى ..

إن الطائرة دانية جدًا .. سأكون أحمق لو لم أصبها .. سأكون أحمق لو لم أرسلها إلى جهنم ..

وفى اللحظة التالية أطلقت الرصاص مرتين ..

ولم تنفجر الطائرة .. لكنى رأيت شيئًا يهوى منها كجوال ثقيل .. وسمعت صرخة مكتومة ورأيت الجليد يتصاعد كسحابة من طبشور ...

لقد سقط القناص ....

دارت الطائرة دورة أخيرة ثم ابتعدت ...

طبعًا لتحضر المزيد من الطائرات وعربات الشرطة وقاذفات اللهب .. يجب استغلال الثوانى الباقية لنا ...

عندى فكرة لا بأس بها ..

إنهم يسمون (لارى هولدن) باسم (الجميل) ..

قد تكون هذه دعابة فظة من التى يمارسها الرعاع أحيانًا .. بل نمارسها نحن حين نسمى طفلاً بائسًا

فقيرًا باسم (البرنس) .. أو نطلق على المصاب باللعثمة لقب (الفصيح) ...

ربما كان (لارى هولدن) هذا قبيحًا جدًا .. وكانوا يتهكمون عليه ..

ومن أقبح من صاحب الجثة الأولى ؟

اتجهت نحو العمود وأطلقت طلقة واحدة - ربما هى الأخيرة فلم أعد أذكر - ورأيت جثته تهوى فوق الثلوج ..

صاحت (سلمى) محتجة :

- « لكن .. لكنه قبيح ! »

لكنى رحت أفتش جيوبه بعناية .. لحسن الحظ أن الطلقة التى قتلته كانت فى رأسه .. لكن .. لا يوجد جهاز ! لا يوجد شىء !

هنا شعرت بشىء بارز فى أسفل بطنه .. شىء حشرة هو بين جدار البطن وبين حزامه ...

دعوت الله ألا يكون هذا مسدسًا .. ألا يكون مليون دولار من دولارات المغول .. ألا يكون أى شىء سوى ......

وبعد لحظة خرج جهاز ناقل الجزيئات فى يدى !

كان سليمًا كالكمان ..

وبدا لى أروع شىء رأيته فى حياتى ...



هنا شعرت بشىء بارز فى أسفل بطنه .. شىء حشره هو بين جدار البطن وبين حزامه ..

ـ « (سلمي) ! إنه هنا ! »

ـ « حمدًا لله ! »

ودوّى هدير محركات طائرات المغول وسيارات المغول .. وسمعنا طلقاتهم تمزق الهواء من حولنا ...

جريت كما لم أجر من قبل (إن كعبى يقتلنى) ..

وجرت (سلمى) كما لم تجر من قبل .. وتلامس جسدانا ...

تشبثت بذراعها .. وتركتها تضغط الأزرار ، بينما الكشافات تسلط علينا من كل صوب .. ودنت طائرتان منا أكثر فأكثر ...

.. ٥٢٠ ـ ج ـ ٧٧ ..

اضغطى زرّ الإدخال يا (سلمى) بسرعة ..

طلقة مرّت على بعد متر منا واصطدمت بالثلوج ..

لن يتخاذل الجهاز .. أعرف أنه لن يتخاذل .. فلا وقت للمزاح ها هنا ..

هيا ... !

وتلاشت أرض المغول من حولنا .

ومن جديد اختلطت جزيئاتنا بجزيئات الكون ذاته ..

ولم يعد هناك قبل ولا بعد ....

★ ★ ★

خاتمة

مرحبًا .. أنا د. (رفعت إسماعيل) يعود لكم ..

لقد فرغت من مطالعة خطاب (سالم) ووجدته مسليًا بحق .. ربما هو بشع إلى حد ما .. ينبو عن الذوق أحيانًا .. مقبض دائمًا .. لكنه مسلٍّ ...

أنا - عن نفسى - أمقت المومياوات المشتعلة ، والجثث مقطوعة الرأس ، والطاعون بخراريجه الملأى بالصديد ..

لكن البعض يحبون هذه الأشياء .. وإننى لن أفهمهم أبدًا ..

يقولون إن مخرج الرعب الشهير (جون كاربنتر) قد تشاجر مع أحد المنتجين ، وطالبه الأخير بإعادة إخراج أحد أفلامه ، ليضيف له مزيدًا من الدماء والأطراف المبتورة (حتى لا يخيب أمل الشباب) !

لا بد أن هذا المنتج كان سيحب قصة (أرض المغول) كثيرًا ..

لكنى - برغم هذا - أجدها قصة جيدة عن القمع الوحشى .. ومحاولة الثورة ضد طغيان أعمى .. وخبال أحلام السيطرة لدى كل (ديكتاتور) رأته أرضنا التعسة هذه ..

إن الشعوب لا تموت .. والأمل لا يفنى ..

وبعد .....

كانت هذه هى القصة الثانية لـ (سالم وسلمى) ، والتى تأخرت دهرًا حتى قدمتها لكم .. وثمة قصة ثالثة - ربما تروق لكم - سأقدمها قريبًا جدًّا هى (أسطورة أرض العظايا) .. وقصة رابعة هى (أسطورة أرض الظلام) .. وهى آخر ما لدىّ حاليًا من قصصهما ...

والآن نعود لعالمى اللطيف الرقيق ..

سأحدثكم عن مصاصى الدماء !

إننا لم نتحدث عنهم من فترة طويلة جدًّا .. وإننى لمندهش لأننى أهملت هذه القصة المحببة لدىّ كل هذا الوقت ..

إن الشاحبين يختلفون عن الآخرين ، لهذا يفضلون الوحدة .. ربما كان جارك منهم ، لكنك لن تعرف ذلك أبدًا ..

لكن إذا انقلبت الآية ووجدت نفسك وحيدًا فى مجتمع من الشاحبين .... عندئذ ....

ولكن هذه قصة أخرى ..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة



ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة أرض المغول

فى ارض المغول يغدو الغد ضربًا من أحلام اليقظة .. فى ارض المغول يصير الموت نشاطًا يوميًا على قارعة الطريق لايثير اهتمام أحد .. فى ارض المغول لاتوجد سوى لعبة واحدة هى البقاء حيًا ، ورياضة واحدة هى الهرب ، وامنية واحدة .. هى أن تطيش الرصاصة القادمة بعيدًا عنك !

٦٢٥٨٩



د. أحمد خالد توفيق

الثمن فى مصر ١٥٠ ص
ومايعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم :
أسطورة الشاحبين

الناشر
…ة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



روايات مصرية للجيب

58

أسطورة أرض العظايا

ما وراء الطبيعة

د. أحمد خالد توفيق

مقدمة المقدمة

هناك ذلك الظل الذى تراه أمامك .. ثم تنظر للوراء فلا ترى أحدًا ..

هناك ذلك الحفيف الذى يضايق العصبيين ، والذى لا مصدر له ..

هناك تلك الغمغمة التى تقسم إنها ضحكة ساخرة ، لكن لا أحد يضحك ضحكات ساخرة ..

هناك الخوف من المجهول .. هناك التوجس .. هناك المفارقة الدرامية ، حين تعرف أن الخطر ينتظر هنالك خلف الباب الموصد ، لكن صوتك لا يصل ـ ولن يصل ـ إلى الأحمق الذى يوشك على فتح الباب ..

هناك الخوف من الغد .. وهو ـ لَعَمرِى ـ أشد أنواع الرعب شناعة ..

لماذا لا يكتبون على ملصقات الأفلام التى تناقش الخوف من الغد عبارة (ممنوع لأقل من ١٦ سنة) ؟

أنا العجوز الأحمق (رفعت إسماعيل) الذى يحاول مراوغة

الموت .. للدقة أكثر : مراوغة التفكير فى الموت ، وهذا عن طريق حكاية قصص مسلية لكم .. قصص تتمسّح بالرعب .. تدنو منه أو تبتعد .. تتأبّط ذراع الظواهر الخارقة أحيانًا .. تلبس عباءة الغرائب أحيانًا أخرى ..

لكنها قصص لعوب .. خبيثة .. تحاول بأية طريقة كانت أن تلفت النظر لنفسها ، وهى فى سبيل ذلك تفعل أى شىء ..

عم نتكلم اليوم ؟

هل حكيت لكم قصة (المقبرة) ؟ نعم ؟ لم أستكملها بعد ؟ غريب هذا .. خيل لى أننى أكملتها .. لكنى سأطلب منكم معروفًا .. لقد تأهبت لحكاية أرض العظايا .. منذ أعوام وأنا أتوق لأرض العظايا .. القصة مكتوبة بخط الأخ (سالم) ولن تحتاج منى إلى جهد غير القراءة .. مع تصحيح بعض أخطاء القواعد ، التى يمارسها بدقة غريبة كأنها هى القواعد ذاتها ..

اتفقنا ؟ سأفسح المجال لـ (سالم وسلمى) على أن نلتقى على خير فى المرة القادمة ، ونكمل قصة المقبرة ..

لماذا أفعل هذا ؟

لأنكم اعتدتم نزوات (رفعت إسماعيل) ، وعرفتم أنه لا يفعل شيئًا أبدًا كما يفعله السادة المهذبون الآخرون .. يبدأ من النهاية ، ويتوقف فى الوسط ، ويخرج من النوافذ ، ويشمُّ الهواء من الأبواب ..

فلنصغَ إذن لـ (سالم وسلمى) ..

ملحوظة مهمة : أكثر المصطلحات والأسماء الغربية الواردة هنا قمت بكتابتها بالإنجليزية ، والسبب ليس التحذلق ولكن لأن بعض الأصدقاء طالبونى بهذا مرارًا ، ليسهل عليهم معرفة الهجاء الصحيح ، فالبحث عن المزيد من التفاصيل فى الإنترنت إذا أرادوا .. هذا مطلب عادل مهم .. ولسوف أحاول الالتزام به فى كل ما أكتبه فيما بعد إن شاء الله ..

مقدمة

أنتم تعرفوننا جيدًا .. أنا (سالم) وهى (سلمى) .. الدليلان الحيان على وجود ما يعرف بالعوالم الموازية ، وهو دليل لا يمكن إذاعته للأسف ..

هى (سلمى) وأنا (سالم) .. صحيح أننا زوجان لكننا كذلك نوشك على أن نكون الشخص ذاته ، وهذا يسبب لنا الكثير من الضيق والهم .. سؤال الفلاسفة الأزلى : هل تشابه الطباع أفضل أم توافقها ؟ كيف تستطيع المشى لو كانت كلا قدميك يمنى ؟ لو رأت عيناك الشىء ذاته لفقدت القدرة على التجسيم ..

نحن نجول فى العوالم التى تشبه الأرض مع اختلاف بسيط .. مرة نحن فى عالم لم يعرف بعد اللغة الهيروغليفية ، ومرة نحن فى عالم لم يظهر فيه (قطز) قط ..

إن مغامراتنا حقيقية .. أؤكد لك هذا .. لكن كتاب الأرض يكتبون نوعًا من الأدب يشبه ما نمر به ، ويطلقون عليه اسم (التاريخ البديل) أو Allohistory .. وقد يطلقون عليه مصطلحات مثل (الخيال المضاد Counterfactuals) أو قصص (ماذا إذا ؟) أو (الأوكرونيات Uchronias) ..

على كل حال لن أطيل عليكم .. إن المصطلحات هى الشىء الذى يجعل الماء شيئًا مستحيل الشرب أو الفهم ..

أنا وزوجتى ضيفان هنا ، وقد عرفتمونا فى (أسطورة أرض أخرى) و(أرض المغول) .. لماذا لا تعرفوننا من جديد فى (أرض العطايا) ؟

لامزيد من التفاصيل ، ولن أضيع أربع صفحات فى تلخيص القصتين السابقتين كما يفعل (رفعت إسماعيل) .. إنه يملك الكثير من الوقت والكلمات ، بينما نحن نعانى حالة مزمنة من الشح فيهما ..

هل نبدأ ؟

فلنبدأ ..

* * *

١ ـ أرض أخرى ..

لا أعرف السبب فى أن كل مغامرة جديدة لنا تبدأ ونحن فى أسوأ حال ممكن ..

٢٥٠ ـ ٧٧ ..

هذا هو المكان والزمن الذى حملنا إليه الجهاز .. لو كان لى أن أحكم بالحدس فإن هذا الكوكب بهيج .. أنا مولع بالكواكب التى تبدأ برقم ٢٥٠ كما تعرفون ..

كان كعبى يوشك على قتلى .. من قرءوا المغامرة السابقة يعرفون أننى تلقيت رصاصة فيه ، ولا أعرف إن كانت قد غادرته أم لا .. يداى غارقتان فى دماء متجمدة لا أعرف إن كانت تخصنى أم تخص الجثث التى قمت بسرقتها كالضباع .. أضف لهذا أن يدى نفسها متجمدة من الجليد ..

٢٥٠ ـ ج ـ ٧٧ ..

(سلمى) ليست أفضل حالاً وإن كانت غير جريحة .. لكنها تشعر بالألم ذاته فى كعبها ..

كنا راقدين على الأرض وسط الرمال .. الطقس حار فعلاً وإن لم نشك من هذا ..

قالت لى وهى تتحسس رأسها :

ـ « لا أعرف أى شىء عن هذا العالم ، ولا ما سنلاقيه هنا ، لكن أول تجربة سنمر بها هى اعتقالنا بتهمة التشرد .. إن منظرنا لا يوحى بالثقة .. »

ـ « فى أرضى أنا يطلقون على هذا (محضر اشتباه وتحر) .. »

ثم راحت تتشمم الهواء الساخن من حولنا .. وقالت :

ـ « (سالم) .. أعتقد أننا فى المنطقة العربية .. هذه صحراء عربية ولتقطع ذراعى إن لم أكن على حق .. »

ـ « الصحراء هى الصحراء فى كل مكان فلا داعى للرهان .. »

ونهضت وساعدتها على النهوض .. كنت أتواثب كالقلق وخطر لى أننى أمشى فى ثقة إلى النهاية الإغريقية المحتومة .. التلوث .. الغنغرينا .. بتر قدمى من تحت الركبة ..

لا بد من حل ما ..

٢٥٠ ـ ج ـ ٧٧ ..

أضفت وأنا أرمق الأفق حيث الجبال تحيط بنا من الجهات الأربع :

ـ « ثَمَّةَ مشكلة أخرى ، هى أننا لا نعرف طريق العودة .. لا نعرف أين يوجد الناس .. أرى أن تجربى مجموعة أخرى من الأرقام .. »

قالت وهى تتواثب بدورها :

ـ « لكن المغامرة لم تبدأ بعد .. »

ـ « حتى المغامرة لا نعرف كيف نصل إليها .. لا بد من اتجاهات صحيحة تدلنا على مكان المغامرات هنا .. »

قالت فى ضيق :

ـ « (سالم) .. لا تضايقنى .. على الأقل لا يوجد أى عامل ضغط من حولنا .. نحن حران مسيطران على الموقف ، فلماذا لا نتمهل بدلاً من إحباط كل شىء قبل أن يبدأ ؟ »

وكانت هذه هى المزية الفريدة لتجربتنا .. أنا أحب الأماكن التى يوجد لها باب هرب خلفى للطوارئ .. فى اللحظة التى تسوء فيها الأمور ، تمسك بالجهاز و(كليك .. كلاك ..) .. تنتهى كل المشاكل فى ثانية .. وتبدأ من جديد .. لطالما تمنيت فى كل مآزق حياتى ـ قبل أن ألقى (سلمى) ـ لو كان عندى هذا الباب الخلفى ..

ثمة مشكلة واحدة .. هى أننى لا أعرف على الإطلاق ما هى حياتى الحقيقية .. ما هى مشاكلى الحقيقية .. لابد من نقطة ارتكاز تقف عليها وتجرب الاحتمالات .. لكنى بدأت فعلاً أفقد نقطة الارتكاز هذه .. كان (أرشميدس Archimedes) يقول : هاتوا لى نقطة ارتكاز خارج الكرة الأرضية ، ولسوف أخترع روافع تحرك الأرض .. حتى (أرشميدس) لم يجد نقطة ارتكاز ..

واصلنا السير ..

وأنا نمطى جدًا فى مشاعرى .. ما إن أرى الصحراء حتى أشعر بالظمأ .. هكذا دون أن أعطى خلاياى فرصة تجربة الجفاف .. وقد بدا لى الأمر رهيبًا ..

- « هل تشعرين بالظمأ ؟ »

- « كف عن المزاح .. أنت تعرف أننا متطابقان شعوريًا .. لكن الأمور لم تتطور إلى هذا الحد .. »

سبحان الله .. منذ ربع ساعة كنت أرتجف بردًا وسط الثلوج .. والآن أنا أموت عطشًا فى الصحراء ..

كنا نمشى وسط الرمال الناعمة الساخنة .. لا توجد نقطة ظل من أى نوع .. لابد أنه متوار فى مكان ما تحت أقدامنا ..

لعابى لزج ثقيل .. الهواء الساخن يخرج من أنفى كأنما يخرج من فتحة فرن ..

قلت لها فى ضيق :

- « أرى أن هذا يكفى .. »

- « ربع ساعة فى هذا العالم ؟ إذن أنت لن تجد مكانًا يناسبك فى الكون كله .. تريد مكانًا بلا معاناة من أى نوع ؟ »

- « أصبت ! هذا من حقى ما دمت أملك الاختيار .. »

* * *

لكن الأمور لم تتحسن ..

لابد أننا مشينا نحو ساعة أو أكثر بلا جدوى ..

هناك جبال من بعيد .. جبال تعسة فقيرة لا تسر الناظرين ، عليها بعض نباتات أو طحالب كئيبة المنظر .. وعلى كل حال ليس بلوغ هذه الجبال بالهدف المحبب .. لابد أن تلك التجاويف تحوى ثعابين أو عقارب أو أى شىء من تلك الأشياء التى تعرف كنهها ، لكنها بشعة تتحرك !

وفجأة تعالى صوت الهدير من بعيد ..

بللت شفتى السفلى بلسان جاف وهمست :

ـ « طائرة ! »

قالت وهى تنظر لأعلى :

ـ « هذا صحيح .. لكن أين ؟ »

الهدير يأتى من كل مكان ، ثم بدأ الأمر يتحسن ..

إنه آت من الغرب ..

أخيرًا لاحت لنا الطائرة العمودية .. قادمة من الأفق تزحف نحونا فى إصرار وتؤدة ..

لسبب ما لم أحب هذه الطائرة ..

وثبت (سلمى) فى الهواء ملوحة بيدها .. وراحت تصدر أصواتًا مثل (أووه ! هيييه ! نحن هنا ! »

قلت لها فى توجس :

ـ « اصمتى يا بلهاء .. هؤلاء قد لا يكونون ملائكة .. إن الملائكة لا تأتى دومًا بطائرات مروحية .. »

ونظرنا لأعلى .. لم يكن لكلامى جدوى ، فالسمع ليس من الحواس التى يحتاج إليها هذا الطيار ؛ لأننا منظوران

واضحان تمامًا .. لو لم يرنا هذا الطيار فهو أول طيار كفيف فى التاريخ ..

الآن صارت الطائرة فوقنا ، والذى أثار دهشتى أنها لم تطلق وابلاً من النيران .. لم تقذف علينا قنبلة .. لم ترسل لنا سلمًا من الحبال .. لم تفعل شيئًا على الإطلاق ..

ظلت تحوم حولنا على ارتفاع أمتار ، واستطعت أن أرى أن هناك من يطل من بابها ..

وكان يحمل كاميرا ..

بعد قليل فهمت أنهما رجلان ينظران لنا باهتمام وكلاهما يحمل كاميرا ..

ESF ..

متى رأيت هذه الحروف وكيف ؟ لا أعرف .. فيما بعد عرفت مصدرها .. كانت مكتوبة على الطائرة ، لكنى لم أجد الوقت الكافى لتبينها ، ولهذا تسربت إلى عقلى الباطن .. هذا شىء معروف .. كل خبير فى علم نفس الإعلان يعرف هذا ..

على الرغم منى ابتسمت محاولاً أن أكون وسيمًا .. وتخيلت صورتى من أعلى أنظر إليهما بأغبى نظرة ممكنة ..

لماذا لا يمدون لنا يد العون ؟ لماذا لا يقتلوننا ؟ لماذا لا يقولون شيئًا ؟

قالت (سلمى) وهى تنظر لأعلى محاولة أن تتحاشى نور الشمس .. الشمس التى تتوارى خلف الطائرة كاشفة عن أنيابها من حين لآخر لتحرق عيوننا بألف نصل ساخن :

ـ « (سالم) .. يبدو أنك كنت على حق .. »

ـ « أنا دومًا على حق .. ولكن لماذا ؟ »

ـ « هناك رجل ثالث يصوب بندقية نحونا ! »

* * *

٢ ـ أرض العطايا ..

انطلقت الرصاصة ..

لم أعرف ما حدث .. وحسبت أنها أخطأت طريقها ..

لكنى نظرت إلى الوراء نحو (سلمى) فوجدتها تجثو على ركبتها وتمد يدها إلى شىء فى كتفها .. كانت تترنح ..

هتفت كمن يولول :

ـ « أيها الأوغاد !! »

وتواثبتُ نحوها .. رأيت ذلك الشىء مغروسًا فى كتفها .. لم تكن هناك دماء .. كان هناك ما يشبه الريشة الهفهافة البيضاء يخرج من ثيابها .. ولم أفهم فى البدء ثم تذكرت :

ـ « هذه طلقة مخدرة .. إنهم ... »

لكنها كانت تترنّحُ مغمضة العينين .. ثم هوت على وجهها وسط الرمال ..

نظرت لأعلى ولوحت بقبضتى وأطلقت فيضًا من الشتائم ، لكنى حين نظرت لركبتى وجدت ذلك السهم ذا الريشة يتشبث بلحمى فى ثبات ! لقد أصابونى لا أعرف متى ولا كيف ..

الظلام يبدأ من مركز الرؤية ثم ينتشر كبقعة من الحبر ..

أسمع صوت الطائرة يتعالى ..

أشعر بالهواء العنيف من مراوحها ..

ESF ..

ESF ..

أعرف أنها تهبط وأننى ...

★ ★ ★

حين فتحت عينى كانت هذه المرة الأولى التى أرى فيها د. (ستارسكى) ..

حاولت تحريك ذراعى فلم أستطع .. السبب طبعًا هو أننى مكبل بسيور جلدية إلى مقعدى ..

المكان خليط غريب من المختبر وقاعة المحاضرات والمطبخ ومكتب وكيل الوزارة .. أما الرجل الذى ينظر فى عينى باستعمال كشاف صغير فهو د. (ستارسكى) كما عرفت فيما بعد ..

كان يمسك بلوح كتابة من الطراز الذى تثبت فيه الأوراق

بمشبك .. وجواره يقف ثلاثة يرتدون المعاطف ويحمل كل منهم شيئًا مماثلاً ..

قلت فى وهن :

- « أين نحن ؟ »

نظر إلى من حوله ، وقال بلهجة واثقة :

- « كما قلت لكم .. هو يتكلم لغة ما .. أحسبها العربية .. »

نسيت أن أقول إنه قالها بالإنجليزية .. لست خبيرًا فى اللهجات لكنى أحسبها إنجليزية أمريكية .. كما ينطقونها فى الأفلام .. كأن كل أمريكى مصاب باللحمية إلى أن يثبت العكس ..

لم أكن ضليعًا فى الإنجليزية ، لكنى تلقيت قسطًا هائلاً من التدريب فى القصة السابقة ، وصرت بالفعل أجيدها .. لهذا عدت أكرر سؤالى بالإنجليزية :

- « أين نحن ؟ »

ثم تذكرت السؤال الأهم :

- « أين (سلمى) ؟ »

نظر إلى جوارى نظرة ذات معنى ، فاستدرت لأرى أن (سلمى) مقيدة على مقعد مجاور لى .. كانت غائبة عن الوعى لكنها حية .. صدرها يعلو ويهبط ورأسها يموج بحركة ما ..

قال الرجل وهو ينظر إلى الآخرين :

- « يعرف الإنجليزية .. هذا غريب .. »

ثم قال لى وهو يواصل تفحص عينى :

- « اسمها (سلمى) ؟ هذا اسم عربى على ما أظن ؟ »

- « من أنت ؟ »

- « ما سبب تلك الطلقة فى كعب قدمك ؟ »

وهنا تذكرت الطلقة ، ونظرت لأسفل لأجد أن كعبى مضمد بعناية لا بأس بها .. والأهم أن الألم زال تمامًا .. هؤلاء السادة لم يتركوا قدمى تتعفن حتى تبتر .. هذه نقطة لهم .. لكنى لست سريع الصفح بهذه الدرجة :

- « من أنت ؟ »

هنا جاءت الإجابة من أحد الواقفين :

- « هل نحلل عينات الدم الآن يا د. (ستارسكى) ؟ »

هز رأسه أن نعم .. ثم مد يده إلى جيبه وأخرج شيئًا ..

كنت حتى هذه اللحظة أعانى دوارًا كأن هناك طبقة ضباب ملتصقة بوعيى والعالم كله .. عوينات متسخة بالشحم لا يمكن خلعها أو غسلها ..

لكنى رأيت ما فى يده فتنبهت حواسى على الفور ..

هذا هو جهاز الانتقال .. طبعًا كان فى جيب (سلمى) ووجدوه ، وطبعًا لا يعرفون كنهه .. ومن الواضح أننا سنعانى الكثير حتى نسترده ثانية .. لقد ولدت المغامرة والحمد لله !

قال لى فى برود :

- « ما هذا الجهاز ؟ »

كانت هناك كذبة واحدة جاهزة ، وقد قررت أن أستعملها لمرة أخرى :

- « هذا منظم لضربات القلب .. إنها تعتمد عليه للبقاء حية .. »

ابتسم ونظر فى عينى :

- « أنت سمعتهم يدعوننى بـ (دكتور) .. أنا طبيب وليس

من السهل خداعى .. ثق من أننى رأيت كل أنواع منظمات القلب .. وعلى كل حال لا أفهم من أين يمكنك الحصول عليه ؟ »

ـ « هذا هو الطراز الذى لم تره .. »

ـ « ليكن .. سأتحمل المخاطرة وأفترض أنك كاذب .. والآن هلا قلت لى كنه هذا الجهاز ؟ »

ـ « ليس لدى سوى ما قلت .. »

ـ « ماذا تفعلان فى أرض العظايا ؟ »

ـ « لا أعرف عم تتحدث .. »

نظر لى كأنما أسقط فى يده بفضل ثباتى وقوة شكيمتى .. ثم التفت إلى الرجال وقال :

ـ « خذوهما إلى الداخل .. »

إذن نحن فى الخارج .. ولم أدر كيف ولا متى فكوا قيودى .. ولا كيف صارت (سلمى) تمشى على قدميها بطريقة ثملة تدعو إلى الشفقة ..

لكننا فى النهاية وجدنا مجموعة من الأقفاص البائسة ..

أنا لا أعرف شكل الأقفاص التى كان الرومان يسجنون فيها العبيد قبل المصارعة ، لكن هذه لم تختلف كثيرًا ..

رائحة عطنة .. ظلام دامس .. باب حديدى صدئ ينغلق .. قفل ثقيل يوضع ..

ثم شىء يزاح من تحت الحديد .. طعام على الأرجح ..

أخيرًا نطقت (سلمى) :

ـ « هل .. هل الجهاز معك ؟ »

أرحت ظهرى إلى حديد القفص وتنهدت :

ـ « أخذوه طبعًا يا حمقاء .. ماذا كنت تتوقعين ؟ لقد صار هذا مملاً .. »

بللت بلسانها شفتها السفلى .. فزحفت على ركبتى إلى حيث كان الشىء الذى أدخلوه لنا .. تحسست بيدى فشعرت بأصابعى تنغرس فى مادة لزجة .. غالبًا هى تؤكل لكن ملمسها لا يدعو إلى الحماسة ، وثمة دورق ماء يحيط به البلل الرطيب الجميل ..

حملته وزحفت إلى حيث كانت جالسة فى الظل .. أراها بصعوبة لكنها غير مختفية .. ناولتها الدورق فراحت تجرع الماء فى نهم حتى اكتفت .. ثم تناولت الدورق لأنال نصيبى ..

قالت وهى تلهث فى الظلام :

ـ « أين نحن بالضبط ؟ »

قلت لاهثًا بدورى من دون سبب :

ـ « سألت كل هذه الأسئلة السخيفة من قبل .. بل وسألت : من هؤلاء .. وماذا يريدون منا .. لا إجابة .. المؤكد أن هؤلاء أمريكيو هذا العالم .. وأن هناك من يدعى الدكتور (ستارسكى) .. يبدو أنه عالم أو شىء من هذا القبيل .. وقد اصطادونا بطريقة تذكرنى بصيد الغزلان البرية .. النقطة الأخيرة هى أن هذه أرض العظايا .. »

كررت الاسم فى استهجان :

ـ « عظايا ؟ »

وضغطت على (العين) كأنها موشكة على القىء .. ثم أردفت :

ـ « ما دور العظايا فى الموضوع ؟ »

ـ « لا أدرى .. وأكون مشكورًا لو عرفت منك ما هى العظايا .. »

قالت فى الظلام :

ـ « العظايا هى الديناصورات .. عظايا الرعب (وسلوروس) .. العظايا الطاغية (تيرانوسوروس) .. الخ .. هل رأيت أية سحلية هنا ؟ »

ـ « لم أر .. لاحظى أننى غبت عن الوعى بعدك بدقيقة .. »

قطَّبت (سلمى) فى الظلام .. تسألنى كيف عرفت ؟ ألا تعرف الصوت المقطب حين تسمعه ؟

قالت :

ـ « ترى ما هو سر هذه الأرض ؟ »

* * *

٣ ـ ESF ..

ـ « منذ متى أنتما هنا ؟ »

أجفلنا من الرعب ، ثم تبينت أن هذا الصوت المنهك يأتى عبر القضبان ..

قلت لها وقد أمسكت بيدى رعبًا :

ـ « لا تخافى .. هذا هو الموقف الشهير .. مع (الكونت دى مونت كريستو) يكون هذا الجار هو السجين (فاريا) الذى يعرف سر الهروب .. حتى فى السجون عندنا تسمعين من الزنزانة المقابلة من يسألك : ما هى تهمتك يا (زُمُل) ؟ بضم الزاى والميم طبعًا .. »

ثم بحثت عن مصدر الصوت وهتفت :

ـ « نحن هنا من دقائق .. من أنت ؟ »

وهنا فَطنْتُ لحقيقة أنه يتكلم العربية .. عربية غربية مُضَعْضَعَةً نوعًا لكنها كافية ..

قال الصوت المتعب من مكان ما عبر القضبان :

ـ « أنا (إسماعيل خان) .. عالم باكستانى .. لا أعرف إن كان هذا يفيدكما .. »

قلت له فى تعب :

ـ « أعتقد أنك تملك الإجابة عما يحدث هنا .. »

ـ « سوف تريان .. » ـ قالها فى غموض ـ « سوف تريان .. »

حتى رفيق السجن أو (الزمل) ـ بضم الزاى والميم طبعًا ـ لا يبدو ثرثارًا هنا .. كل الأطراف غير عادلة تتوقع منا أن نعرف بنفسينا وإلا فلا .. على كل حال أعتقد أن هذا الرجل ليس عربيًا على الإطلاق .. ربما هو هندى أو أفغانى أو ماليزى ..

وهكذا مرت علينا الساعات .. بين نوم واكتئاب ، واكتئاب ونوم .. وتساؤلات لا تنفد أبدًا ..

بعد ساعات أو أيام أو أشهر ـ لا يمكن معرفة الوقت فى هذا الظلام الدامس ـ جاء من يصحبنا إلى ما يشبه غرفة التحقيق ..

لا بد أنها كانت ساعات .. لأننى لم أحتج إلى استعمال الحمام مرة واحدة ولو احتجت لوجدت نفسى فى مأزق ..

★ ★ ★

الآن وقد ثبت إلى رشدى قليلاً يمكن أن أصف لكم الدكتور (ستارسكى) .. إنه رجل ذو ملامح مزعجة .. يمكن أن تقول بشكل سطحى إنه وسيم أشقر .. لكن فى وجهه قسوة وبرودًا، وهو من طراز الوجوه التى لا تشيخ مما يثير الرعب فى عروقك .. كأنه وجه مصاص دماء أو (زومبى) ..

كان هناك مقعدان، وكان هناك عدد من الحراس مفتولى العضلات يدس كل منهم سماعة فى أذنه .. لا أعرف من اكتشف أن الرأس الأصلع يجعل المرء يبدو أضخم وأشرس، لكن هذا الاكتشاف بلغ هذا العالم .. وكانوا يلبسون بزات عسكرية ما لكن بلا غطاء رأس .. هذا المكان عسكرى إذن ..

لماذا يلف كل منهم حول عضده شارة تقول ESF ؟ ما معناها ؟

ثمة جهاز تسجيل يدور ببطء، وثمة إضاءة تذكرك بغرف استجواب النازيين ..

ما إن دخلنا حتى أشار لنا بالجلوس، وقال :

ـ « هل أقدم لكما مشروبًا ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

فالحقيقة أن الحرارة كانت مرهقة بالفعل .. من الواضح أننا لم نفارق المنطقة الصحراوية بعد ..

جاء أحد الحراس حاملاً زجاجة بها سائل أصفر، وبعض الأكواب الملأى بالثلج، فقال الطبيب وقد رأى ارتباكنا :

ـ « عصير برتقال لا أكثر .. نحن فى وحدة عسكرية ولا يسمح بالكحوليات .. أعرف أنكما معشر العرب لا تشربونها أصلاً ..

وهكذا أمسكت بالكوب .. ونظرت إلى (سلمى) .. كانت ترشف ما فى كوبها، وخلاياها تنتعش .. تينع بعد جفاف .. فعلت مثلها وشعرت بما شعرت به ..

هنا نظرت إلى المنضدة فرأيت الجهاز العزيز .. جهاز الانتقال .. إنه هنا ..

قال الطبيب وهو يصب لى كوبًا آخر :

ـ « والآن هل يمكنك أن تتكلم ؟ من أنتما ؟ لماذا أنتما هنا ؟ هل أنتما عربيان حقًا ؟ »

ثم لوح بالجهاز :

- « وهذا ؟ ما وظيفته بالضبط ؟ »

قالت (سلمى) وقد بدا أنها تحبس أنفاسها :

- « هذا جهاز خاص للترجمة .. هل تسمح لى ؟ »

مد يده فى تردد ووضع الجهاز فى كفها المفتوحة ، ثم أراح ذقنه على قبضته وراح يتابع ما تفعله ..

- « نطلب رقمًا .. ليكن ٣٠٠ مثلاً .. ثم نضغط حرفًا .. ليكن (الهاء) .. ثم ... »

كان الجهاز على حجرها ، وكانت تضغط على الأزرار بإصبع واحد ، ثم إنها مدت يدها اليسرى فى رفق لتمسك بيدى اليمنى من تحت مستوى النظر ..

- « نختار رقمًا مثل ... »

هنا هتف الرجل :

- « كفى ! »

- « لحظة .. ٢ .. ٨ ... »

- « قلت كفى !! »

ثم نهض بسرعة البرق وانتزع - ذلك الوغد الذكى - الجهاز من يدها قبل أن تتم عمليتها ، وقال وهو يدسه فى جيبه :

- « لا أعرف ما أنت بصدده لكنى لن أسمح بأن تنجحى فيه .. والآن أرجو أن تجيبا عن أسئلتى .. »

قلت له وأنا أضع الكوب :

- « أسئلتى مثل أسئلتك بالضبط .. من أنتم ؟ لماذا أنتم هنا ؟ هل أنتم أمريكيون ؟ »

تبادل النظرات مع الرجال ثم سألنى :

- « ما معنى (أمريكيون) ؟ »

تبادلت نظرة مع (سلمى) .. إما أن تمييزى للهجات فاشل ، وإما أن هذا هو الاختلاف الأساسى .. هذا عالم لا توجد فيه أمريكا .. طبعًا سيتضح أن (كولومبوس Colombes) لم يصل إلى ساحل أمريكا ، ربما لأنه كان أحمق ، وقد غرقت سفينته .. أو لأن بحارته ثاروا وألقوه لأسماك القرش .. وهو ما كان سيحدث فى عالمى على كل حال لولا أنهم بلغوا الشط قبل أن يتموا خطتهم ..

هكذا لم أجب وأجابت (سلمى) عن السؤال بآخر :

- « ما حقكم فى احتجازنا ؟ هل أنتم شرطة ؟ »

تنهّد الرجل فى إنهاك ، وراح يصف أوراقه ، ثم قال دون أن ينظر لنا :

ـ « واضح تمامًا أننا لن نصل لطريق مشترك .. كلما سألت سؤالاً تلقيت آخر .. لا بد من أن يجيب أحد الطرفين عن الأسئلة أحيانًا .. »

ـ « قل هذا لرجالك ولنفسك .. »

أشار إلى الشارة المعلقة على عضد الحارس الواقف جواره ، وقال :

ـ « نحن من الـ ESF .. هل هذا كاف ؟ هذا يعطينا كل الحق فى استجوابكما .. »

ـ « وما هى الـ ESF ؟ »

بدا كأنما تعلم أسلوبنا فى عدم الإجابة على شىء ، فنهض ورتّب أوراقه ، ثم قال وهو يغادر المكان :

ـ « ثمة طائرة ستحملكما إلى (لوس أنجليس) صباحًا .. أعتقد أنهم هناك سيعرفون عنكما كل شىء .. »

(لوس أنجيليس) ؟ إذن ما معنى أنه لا يعرف معنى لفظة (أمريكيون) ؟

دنا منا أحد الحراس .. إنه غير مسلح لكن من الواضح أنه لن يتورع عن استخدام العنف .. وهكذا مشينا معه فى تهذيب .. لكنه لم يقتدنا إلى الأقفاص إياها .. بل إنه أجلسنا فى مكتب مكيف مريح نوعًا .. مكتب لا يحوى إلا جهاز كمبيوتر وثلاجة صغيرة .. ثمة نافذة صغيرة وأريكة وثيرة وبعض نباتات الظل .. هناك ـ لحسن حظ الجميع ـ حمام صغير نظيف فى غرفة صغيرة جانبية ..

ثم أغلق الحارس الباب ..

بمجرد خروجه فعلت (سلمى) الشىء الذى كنت أعرف أنها ستفعله باعتبارها بارعة فى الإلكترونيات .. لن أقول إنها أكثر براعة منى ، لأنه لا براعة لى على الإطلاق .. لا يمكن أن تقارن بيننا على أساس كثافة شعر اللحية أو نسبة هرمون الأنوثة .. هذه أمور غير واردة أصلاً ..

لقد فتحت جهاز الكمبيوتر ! هذه معجزة كما ترى ..

قالت فى ضيق وهى تتأمل الشاشة :

ـ « ليس لديهم نظام تشغيل أعرفه .. مثل (الخوارزمى) أو (الإدريسى) .. لا أعرف كيف يبدأ البحث فى هذا الشىء .. »

تذكرت أن الكمبيوتر فى عالمها اختراع عربى صرف ،

وليس لديهم أسماء كالتى نستعملها على غرار (ميكروسوفت) و(النوافذ) .. الخ ...

لكن على الشاشة ـ حيث ما تسمونه سطح المكتب ـ كانت هناك صورة عملاقة لديناصور (سبينوسوروس Spinosaurus) ضخم يقف جوار بحيرة واعدًا بخراب بيت من يقترب .. وكانت هناك الحروف المعتادة ESF كتبت بحروف مجسمة عملاقة كأنما تطير مع السحب فى السماء ..

فيما عدا هذا بدا كأن الشاشة جدار مبهم لا يمكن تجاوزه ..

حتى الصور الصغيرة ـ هل تسمونها الأيقونات ؟ ـ كلها تمثل ديناصورات منوعة ..

أغلقت الجهاز وقالت :

ـ « لا أعرف .. لا يبدو لى هذا المكان ذا طابع عسكرى .. كأنى بهذا الحاسوب خاص بصبى يهوى الديناصورات .. »

قلت لها فى ضيق :

ـ « صدقينى أنا لا أهتم كثيرًا سوى بالحصول على الجهاز

الكريه .. فى المرة المقبلة يجب التأكد من أنه مخفى بعناية .. ربما لو ابتلعته لكان الأمر أفضل .. »

قالت وهى تجوب الغرفة جيئة وذهابًا :

ـ « لو تركنا الأمر لك لانتهت كل احتمالات هذا الجهاز خلال ربع ساعة .. ولن نعرف شيئًا أبدًا .. »

ـ « أنا لا أبالى كثيرًا .. لاحظى أننا نتعلم عن عوالم أخرى ، لكننا لن نعود أبدًا للعالم الذى تكون فيه هذه المعلومات ذات قيمة .. هل تفهمين ما أقول ؟ لفظة (عجيب) و(غريب) لا معنى لها إلا فى أرضى أنا .. أما هنا فلا قيمة لرأيك .. »

لم تكن تسمع ما أقول .. كانت تنظر إلى النافذة ..

ثم اتجهت لها ورفعت الزجاج .. كانت هناك شبكة دقيقة مخصصة لإبعاد البعوض ، لكن لا توجد حماية أخرى من أى نوع .. ومن الخارج كان الظلام وبعض مصابيح قصية ونسمة هواء حانية رقيقة ..

ـ « إنهم حمقى .. ما رأيك ؟ »

ـ « ومن أدراك أن الخارج أفضل ؟ »

ـ « لا أحتاج إلى حكمة العالم كى أختار الفرار من أى مكان

مغلق يقف على بابه حارس .. سل عن هذا أية قطة أو ذبابة تحترم نفسها .. أى مكان هو أفضل من المكان المغلق الذى يقف عليه حارس .. »

- « والجهاز ؟ »

- « لن نستطيع استرداده لو حملونا إلى (لوس أنجيليس) .. ثق بهذا .. »

ثم بحثت قليلاً حتى وجدت فتاحة ورق على المكتب .. غرستها فى السلك فبدأ ينهار ..

تبًا ! لابد أن قرحتى عادت تنشط من جديد ..

تدريجيًا اتسعت الثغرة أكثر فأكثر .. وهكذا نظرت لى باسمة ، ثم حشرت جسدها فى الفتحة .. نسيت طبعًا أن أقول إننا فى الطابق الأرضى ..

لم يبد لى هذا مريحًا .. ليس الأمر بهذه البساطة .. لا يجب أن يكون بهذه البساطة ..

على كل حال انتهى ما كان يربطنى بهذه الحجرة ، فحشرت نفسى عبر الفتحة .. لا يكلفك هذا أكثر من بضعة تمزقات فى الكفين ، لكنك تعبر فى النهاية ..

أخيرًا نقف فى الخارج ..

الرمال والبرد والظلام .. نحن فى الصحراء ليلاً .. هذا واضح ..

لا يوجد حراس .. هذا واضح .. هناك كشافات من بعيد ، لكنها كشافات محايدة ودود لا تبحث بل تنتظر ..

مشينا فى الظلام عاجزين عن معرفة وِجهتنا بالضبط .. لا فارق عندنا إن سمعنا (قف !) أم لم نسمعها .. المشكلة الوحيدة هى أن نسمع صوت الطلقات .. لكن لا يبدو أن هناك طلقات حتى الآن ..

كان هناك هدير محرك ، والهدير كان آتيًا من سيارة تقف هنالك على اليسار .. سيارة عسكرية هى .. شاحنة عليها علامة ESF اللعينة المعتادة ، وكانت تلوث الهواء بلا كلل ..

هناك جندى يقف على بعد يثرثر مع صديقه ويبدو أنه يمزح .. لكمات على الكتفين وسباب إنجليزى فظ ..

وبالطبع خطرت لنا نفس الفكرة معًا ..

اتجهنا إلى مؤخرة العربة .. وثبت إلى ظهرها ، ومددت يدى إلى (سلمى) أساعدها على الوثب ..

كانت هناك أغطية لعلها قماش خيام .. لا أعرف .. إن الظلام يجعلنى لا أرى يدى كما لاحظتم ..

المهم أننا تدثرنا بهذه الأغطية ورقدنا على بطنينا .. وهكذا صرنا فى معزل عن الأبصار .. محرك يهدر .. معنى هذا أن الرجل سيرحل ، ولو عاد ليغلق المحرك وينام لقتلنى الغيظ ..

فجأة سمعت (سلمى) تهمس فى أذنى :

ـ « هناك أشياء صلبة تحت قدمى .. هل تشعر بها ؟ »

ـ « لا .. لا أعتقد .. »

مدت يدها تتحسس وهى تغمغم :

ـ « صبرًا .. سأرى .. يبدو لى أن ... »

ثم صرخت صرخة أنثوية هستيرية متقنة جدًّا :

ـ « (سالم) !! هذه السيارة محمَّلة بعظام بشرية !! »

★ ★ ★

٤ـ الصيادون ..

مددت يدى تحت الغطاء ورحت أتحسس ..

حقًّا هناك عظام .. لكن من قال إنها بشرية ؟ كل العظام تتشابه وإلا ما كان تمييز العظام المفتتة معضلة معروفة فى الطب الشرعى .. هذا بالطبع ما لم تجد جمجمة واضحة تنهى التساؤل ..

قلت لها همسًا :

ـ « خَفِّضى صوتك يا بلهاء .. هناك عظام لكن من قال إن ؟ »

ـ « أنا أعرف هذا .. »

حسن .. ها نحن أولاء نعود إلى الحدس الأنثوى .. النقطة التى لا نجرؤ معها نحن الرجال على الكلام ويخرسننا بها .. هن شفافات نقيات الروح ونحن ماديون مغلقو الروح كالحجارة .. ليكن .. لكن هذا لا يغير من خطتنا شيئًا .. سنبقى هنا لأن مغادرة السيارة قد يكون أخطر من ركوبها ..

الحق أن هذا القرار كان صعبًا لأنها دخلت فى حالة هستيرية وراحت ترتجف وتتشنج ..

هنا تعالى صوت هدير المحرك .. وكان يوحى بالحركة هذه المرة ..

إننا ننطلق ..

هكذا توارى صوت نشيجها ورحنا نفكر صامتين ، بينما رأسانا يرتفعان ويهويان ..

لحظات توقف وكلام ثم تحرك .. واضح أن هناك نقاط حراسة يقدم عندها السائق أوراقه .. أرجو ألا تكون هذه النقاط تفتش الحمولة ..

أخيرًا يبدو أن السيارة تنطلق فعلاً ..

أزحت الغطاء قليلاً فرأيت الصحراء المظلمة .. النجوم جلية محددة كما لم أرها قط .. ثقوب صنعت بدقة فى الغطاء الأسود الذى يغلف الكون .. ومن بعيد وحوش لا يمكن أن تعتقد أنها جبال ما لم تلمسها ..

ومن أمامنا لم يكن يشق الظلام إلا ضوء السيارة الخافت .. كأنه عصا سيدنا (موسى) تشق أمواج البحر الأحمر .. طريق يولد فى كل لحظة ويختفى فى اللحظة ذاتها ليولد مزيد منه ..

الأغرب هنا أننى أرى مشهدًا على كوكب آخر .. مجرة أخرى ! لا أعرف كيف أصف هذا .. لا أعرف كيف أصدقه .. لكنه بالتأكيد حقيقى ..

ارتجفت رهبة .. تمالكت نفسى .. ثم ألصقت وجهى بوجه (سلمى) وقلت بصوت عال هذه المرة :

ـ « أعتقد أن هذه العظام آدمية بالفعل و... »

ـ « قلت لك هاذا!!!!!! ؟؟ »

وبدأت فى مزيد من الصراخ ، فوضعت يدى على فمها لتخرس قليلاً :

ـ « لم أطلب منك استئناف الهستيريا .. دعينى أكمل كلامى .. ما دامت هذه العظام آدمية وهذا معسكر حربى ، فمن الواضح أن الأمر يتعلق بجريمة حرب ما .. هذه العظام تخص ضحايا المعسكر ! »

ـ « وماذا تقترح ؟ »

ـ « ثمة احتمال لا بأس به فى أن يكون هدف هذه الرحلة التخلص من هذه العظام ـ بقايا مذبحة ما ـ فى الصحراء بعيدًا عن العيون ، وهذا يضع أمامنا احتمالاً لا بأس به أن تكون

الصحراء نهاية الرحلة وبعدها يعود الرجل إلى المعسكر .. أى أننا لسنا ذاهبين إلى أى مكان .. إن هى إلا رحلة فى هواء الليل بعدها نعود حيث كنا .. »

بدأت تستجمع ذكاءها نوعًا ، وقالت :

ـ « لا أرى هذا .. لن يستطيع السائق وحده إفراغ العربة .. لا بد من أيد عاملة معه .. »

ـ « ومعنى هذا ؟ »

ـ « معناه أنه بالفعل ذاهب إلى مكان ما .. قاعدة أو محطة أو مدينة .. »

وهكذا لبثنا راقدين نراقب الصحراء .. الصحراء الصامتة العجوز التى لا تعبأ بشىء .. لقد رأت الكثير ولم تعد تهتم بسيارة عابرة ..

فقط أرتجف لفكرة أن هناك فى الظلام تتحرك ألف حياة وحياة .. ألف حياة تنتهى بين أنياب ألف حياة تحاول الاستمرار .. ترقد بين العظام تحت غطاء من النجوم فى صحراء مجهولة قاصدة وجهة لا تعرفها .. كل هذا على مجرة لم تسمع عنها قط لكنها تشبه عالمنا سطحيًا ..

وفكرت فى منظر السيارة وهى تعبر المدق الصحراوى

فى هذه الساعة .. مسكينة هى الأشباح والغيلان فى الفيافى ! لا بد أنها تصاب بهلع كبير حين ترى هذا المشهد المخيف يقطع خلوتها ..

لا بد أننى نمت .. من اليقين أننى لم أغمض عينى ثانية واحدة ، لكن كيف تفسر أن وعيى غاب عن الكون للحظات ، بعدها شعرت بـ (سلمى) تهز كتفى ..

ـ « يبدو أننا ندنو من شىء .. »

رفعت رأسى ، فوجدت بوابة عملاقة تدنو منا ببطء ..

بوابة تحرس ما بدا لى كمدينة صحراوية كاملة .. رقعة تستحم فى أضواء باهرة .. وثمة مبان حقيقية تتناثر هنا وهناك ..

قالت لى :

ـ « هل ترى أن نثب الآن ؟ »

فكرت حينًا ثم هززت رأسى أن نعم .. ليس من مصلحتنا أن نجتاز هذه الأسوار .. لا نعرف ما يوجد بالداخل ، ثم إن الاحتمال الأعم هو أن يأتى عمال ليفرغوا الشاحنة .. هذا هو ما توقعته ..

لا أعرف ما يدور خلف هذه الأسوار .. هل هذا مدفن عملاق لضحايا المعسكر السابق ؟ لن أندهش لشىء حتى ولو اتضح أن هذه (لوس أنجيليس) نفسها ..

كانت سرعة السيارة الآن أقرب إلى التوقف منها إلى السير .. نهضنا ثم وثبنا ..

وبعد قليل كنا على الرمال الباردة المبللة بالندى ..

هكذا يمكن إلى حد ما القول إننا عدنا إلى لحظة البداية .. فقط ازددنا علمًا ـ أو حيرة ـ وفقدنا الجهاز ..

خلف أحد الكثبان القريبة رقدنا منبطحين ورحنا نراقب المشهد الذى يدور من بعيد .. البوابة تفتح والسيارة تتقدم ببطء إلى الداخل .. البوابة تغلق .. الأضواء الصامتة لا تثرثر بالكثير ..

قلت لـ (سلمى) :

ـ « تعالى نحاول ترتيب ما عرفناه .. أولاً هذا عالم لا توجد فيه أمريكا لكن يوجد فيه أمريكيون .. ولا أعرف كيف .. »

قالت وهى تفكر فى عمق :

ـ « للديناصورات أهمية خاصة فى هذا العالم .. لا تنس أننا فى أرض العظايا ويعلم الله ما معنى هذا .. »

أضفت أنا :

ـ « هؤلاء القوم وحدة عسكرية ما .. ربما طبية كذلك .. والأمر على الأرجح يتعلق بضحايا مذبحة يتم التخلص منهم .. »

ثم نظرت لها فى غباء وفردت كفى :

ـ « جميل .. لكن ما معنى هذا ؟ »

ـ « لا معنى له .. ثمة قطع كثيرة تحتاج إلى قطعة تربط بينها كما يحدث مع ألغاز الأطفال Jigsaw .. وهذه القطعة لابد أن تكون طرفًا آخر لا نعرفه .. »

ـ « هل تعرفين ؟ أعتقد الآن أنه كان من الخطأ أن نثب قبيل دخول المدينة .. لو كانت هناك إجابات فهى فى الداخل .. »

ونظرت إلى المدينة الصحراوية الملتفة بالأنوار ، ومن بعيد كثبان الرمال ..

شعرت بقشعريرة تزحف على عمودى الفقرى وغرقت فى تفكير عميق ..

فجأة حدث الشىء الذى لا تتوقعه والذى يغير كل شىء بشكل غير مسبوق ..

دوى انفجار هائل من وسط المدينة .. لسان برتقالى تصاعد إلى السماء ، ثم دوى الصوت المروع الذى اهتزت له الصحراء ..

قبل أن نتساءل إن كان هذا هو الروتين هنا ، دوت صفارات الإنذار .. ثم تعالت الصيحات ، وكأنما بعصا ساحر برزت عشرات العربات .. كلها تطلق الأضواء المجنونة ، وكلها تتسابق نحو مركز المدينة ..

ثم دوت طلقات البنادق الآلية .. من كل مكان وفى كل اتجاه .. كأنك تجلس فى قاعة سينما تتمتع بنظام (دولبى Dolby) ممتاز ..

راتاااا .. راتاااا .. راتاااااا !

من أين ولأين ؟ هذا أبسط حقوقنا .. نحن بلا ناقة أو جمل فى هذا الذى يحدث ، ومن حقنا أن نعرف من أين يأتى الخطر لنتفاداه ..

شعرت بيد (سلمى) تضغط على يدى وتشير لأعلى ..

نظرت إلى حيث أشارت .. إلى الوراء .. لأعلى ..

كان هناك عدد من الرجال يقفون فوق تلة تعلو مستوانا قليلاً ويطلقون البنادق الآلية بلا توقف .. ثم ينبطحون ..

هذا يفسر تأثير (الستيريو) العجيب الذى شعرنا به .. إن الطلقات تأتى من فوقنا ومن أمامنا فى الوقت ذاته .. ومن الجلى أنهم لم يرونا فى الظلام .. لقد كنا وسط السواد كأننا مجموعة من الصبار ..

ـ « فلنتوار قبل قدوم الطائرات ! »

كان قائل هذا أحد الرجال ، وقاله بالعربية .. عربية واضحة جدًا لم أصدق أننى أسمعها ..

طبعًا كان من الواضح أننى لا أستطيع أن أعلن عن وجودى .. لا أستطيع أن أقف لأتكلم لأن الكلمة الأولى منهم ستكون طلقة من هذه الطلقات ..

لكن (سلمى) تصرفت بلا تفكير ..

رفعت ذراعها دون أن تنهض وصاحت :

ـ « نحن هنا ! لا تطلقوا الرصاص !! »

ـ « (سلمى) يا بلهاء ! لا تـ ... »

طلقة واحدة مرت جوارها وبعثرت الرمال فى كل مكان .. ثم ...

انقطعت الطلقات من أعلى ولم تعد إلا طلقات من أسفل .. من موضع المدينة الصحراوية ..

صاح صائح من عل :

ـ « من أنتما ؟ هل عربيان ؟ »

ـ « نعم .. ونقسم على هذا .. »

فليس الوقت مناسبًا لأخذ قياسات الجمجمة وعينات الحمض النووى .. آخر وقت ومكان يصلح للدراسات الأنثروبولوجية هو فى ميدان رماية رصاص ..

ـ « إذن تعاليا معنا بسرعة ! إن هذه المنطقة ستتحول إلى محرقة حالاً .. »

وثبنا من مكاننا ورحنا نتسلق بينما قلبانا فى حلقينا ..

أخيرًا صرنا وسط هؤلاء ، ولم يكن الوقت مناسبًا لتبين وجوههم أو إجراء تعارف مناسب للسادة المهذبين .. فقط راحت أيد قوية تقودنا كما يفعلون بالدلاءْ فى الحرائق .. يد تلو يد تلو يد ، حتى صرنا عند مدخل كهف فى سفح تل من التلال ...

ـ « ادخلا بسرعة !! »

ولم أدخل بالسرعة الكافية .. استغرقت وقتًا يكفى لأن أرى .. أرى سيلاً من القذائف النارية كأنها النيازك ينطلق من المدينة الصحراوية قاصدًا المكان الذى كنا فيه .. هذه القذائف

غريبة جدًا .. إنها لا تسقط كما تسقط القنبلة العادية .. بل هى تنتشر أولاً كأنما هى مليئة بسائل نارى ، ثم تشتعل كل البقعة بلهب أخضر عجيب .. يلى هذا انفجار يذكرك بالبراكين التى تراها فى السينما ..

كان هذا كافيًا كى أدخل ..

وفى اللحظة التالية انغلقت فتحة الكهف وصرنا بالداخل ..

* * *

٥ ـ أبو العتاهية وآخرون ..

لم يكن المشهد عبارة عن مدينة داخل الجبل كما توقعنا ..

كان كهفًا بالفعل .. لا يميزه شيء إلا عشرات المشاعل ، وكان هؤلاء الرجال متناثرين فيه .. وكانوا ...

فجأة ارتج المكان لأن قنبلة على ما هو واضح ارتطمت بالكهف من الخارج ..

سقطت على الأرض .. وسقطت (سلمى) .. لكن بدا أن قوانين الجاذبية لا تؤثر في هؤلاء ..

قلت وأنا أنهض :

ـ « سيهدمون هذا المكان على رءوسنا .. »

قال أحدهم وهو يجلس على الأرض :

ـ « لا .. الجبل أصلب مما تتوقع .. ثم إنهم لا يملكون أدنى فكرة عن كوننا بالداخل .. هم يتوقعون أننا متوارون

في مكان ما بالخارج .. هكذا نتعامل معهم .. كل جبل هنا غرفة عمليات نخرج منها ونفعل ما نريد ثم نعود لنتوارى فيها .. »

وقال آخر :

ـ « وفي كل مرة يتساءلون : أين ذاب هؤلاء ؟ لكن برغم كل شيء تظل الفتحة واضحة لمن يدقق البحث .. لا بد من واحد منا يأتي فيما بعد ليسدها بعناية من الخارج .. »

برغم كل شيء فأنا سعيد بكوني أسمع العربية .. عربية لا أنسى أبدًا أنها عربية مجرة أخرى ، لكن هذا لا يمنع شعور الألفة الذي شعرت به ..

نسيت أن أصفهم لكم .. كانوا مجموعة من الثوار .. كيف عرفت هذا ؟ لأنني عبقري طبعًا .. كل منهم يحمل بندقية آلية وقد لف حزامين من الطلقات على كتفيه على شكل X على طريقة الأخ (زاباتا Zapata) ، وعلى وجهه ملامح العيش الخشن .. ذقون غير حليقة .. قسمات سمراء قاسية .. ثياب هي خليط من عدة أجناس معًا .. هناك كوفية منقطة أو اثنتان ..

ومد اثنان ساعدين قويين ، وتصافحا ثم تعانقا وتبادلا القبلات على الخدين :

ـ « نجحت العملية ! »

ـ « حمدًا للَّه !! »

لا يحتاج الأمر إلى مترجم كى يعرف أن هؤلاء القوم هم الذين دبروا الانفجار داخل تلك المدينة الصحراوية ..

الآن جاء وقت السؤال المهم .. السؤال المهم الذى وجهوه لنا :

ـ « من أين جئتما ؟ »

قالت (سلمى) وهى تنفض الرمال عن شعرها :

ـ « من ذلك المعسكر .. ذلك الـ ESF .. ركبنا فى مؤخرة شاحنة للفرار ووثبنا قبل أن تدخل المدينة .. »

ـ « أنتما سعيدا الحظ .. فررتما فى الوقت المناسب بالضبط .. لقد كانت هذه الشاحنة ملغمة وقد انتظرنا هنا حتى مرت من البوابة ثم ... هوب !! »

شعرت بركبتى تتهاويان من تحتى .. إذن كانت الشاحنة تحوى أشياء أخرى غير العظام .. أشياء لا تقل هولاً ..

وقال آخر :

ـ « هل رأيتما ما كانت الشاحنة تحمله ؟ »

ابتلعت ريقى ولم أرد :

ـ « حسن .. لقد دفنا تلك العظام فى الصحراء مع جنود عديدين منهم .. »

قالت (سلمى) :

ـ « لا أدعى أنى أفهم شيئًا فى حروب العصابات ولا الاستراتيجية .. لكن ما جدوى إطلاق البنادق الآلية إذن ؟ لقد حسبنا أنكم ستهاجمون أو تحمون ظهر زميل لكم بالداخل .. »

ضحك الرجل الذى بدأ الكلام طويلاً وقال :

ـ « هذا توقيعنا !! حتى لا يعتقدوا أن ما حدث كان بفعل حادث .. نقول لهم إننا الفاعلون .. »

ثم صافحنى بيد تشبه جرّافة البلدوزر لو أن هذه كانت شديدة الخشونة ، وقال :

ـ « أنا (أبو العتاهية) .. وأنت ؟ »

بدا لى الاسم غريبًا .. هو على الأرجح اسم حركى .. قلت له :

- « أنا (سالم) .. هذه زوجتى (سلمى) .. »

قالت (سلمى) فى مودة :

- « مساؤكم حليب .. »

تلك التحية المستعملة فى عالمهم ، والتى ما زلت أشعر بأنها ذات طابع سوقى ، بينما تصر هى على أن (مساء الخير) أكثر سوقية ..

سأل الرجل :

- « ومن أين جئتما ؟ »

آه ! سأفسد كل شىء إذن .. لكنه قاطعنى قبل أن أرد ملوحًا بيده :

- « لا عليك .. كلنا لا نعرف من أين جئنا .. لكننا هنا .. »

قالت (سلمى) وهى التى لم تعتد أن تحبس أسئلتها كثيرًا :

- « لا أزعم أن هذا يضايقنى ، لكن ما الذى يدعوكم للثقة بمن ترونه لأول مرة منذ ربع ساعة ؟ »

- « لهجتك .. هذه اللهجة لا يتكلمها إلا عربى مثلنا .. ولو تصنعها أحدهم لفضح نفسه .. كما أنه لا يوجد جواسيس بيننا .. هؤلاء القوم لا يستخدمون الجواسيس .. »

نظرت إلى الكهف ، فوجدته ينتهى عند هذا الحد .. لا يوجد امتداد .. هذا مكان جيد للاختباء لكن أين حياتهم ذاتها ؟ أين قراهم ؟ أين واحاتهم ؟ أين نحن بالضبط ؟

لسبب ما عرفت أن على ألا أسأل كثيرًا ، وقد خمنت (سلمى) الشىء ذاته .. هم اعتبرونا منهم بشكل ما ، واعتبروها بديهية .. لو بدأنا فى الأسئلة سيعرفون على الفور أننا متسللان .. ربما جاسوسان .. ولتكونن غضبتهم مرعبة ..

من الأفضل أن نستمر فى أداء الدور الذى برعنا فيه .. لا نتكلم على الإطلاق ونجيب عن الأسئلة بأسئلة ..

قال أحد الرجال :

- « أعتقد أنه من الأفضل أن نتفرق .. »

ثم أشار لنا :

- « أعتقد أن (جمشيد بن عباس) يجب أن يراهما .. »

دنت منى (سلمى) وهمست فى شىء من التوتر :

ـ « ما هذه الأسماء الغريبة ؟ »

ـ « ليست غريبة .. إنها أسماء من أعلام العرب .. (جمشيد) عالم من علماء الجبر .. »

قالت فى غيظ هامس :

ـ « يا للعبقرية ! إن هذه الأسماء موجودة فى كوكبى كذلك .. بل هى التى حددت تاريخ الكوكب كله ، لكن ألا ترى من الغريب أن تتخذ هذه كأسماء كودية لمجموعة من الثوار ؟ »

تذكرت أن وضع العرب فى عالم (سلمى) يخطف الأنفاس .. إنهم قوة عسكرية واقتصادية مرعبة .. (أ . ع . م) أو (أمة عربية متحدة) .. وبالتأكيد هناك من العلماء العرب من لم نسمع نحن عنهم فى أرضنا .. لكن اعتراضها وجيه بحق ..

ما معنى هذا ؟

هنا وجدنا الرجال يشيرون لنا كى نلحق بهم .. إلى الجهة الأخرى من الكهف ..

فتحة كالتى دخلنا منها .. يزاح الغطاء فترى الصحراء من جديد .. هذه المرة وقد بدأت تستحم بلون الفجر الوردى .. يخرج أول الرجال جسده من الفتحة ويتلصص حوله ، ثم يزحف إلى الخارج ونتبعه نحن ..

فى الخارج كنا على الجانب الآخر من التل ، لكن الحقيقة هى أننا كنا على ارتفاع كبير .. لم أدرك هذا إلا حين ارتقيت التل أكثر وألقيت نظرة ..

من الغريب أن المدينة الصحراوية تحولت إلى بقعة صغيرة عند قدمى ، وبدا لى هذا غريبًا .. إن الكهف لم يبد لى بهذا الاتساع قط ..

خرجنا أربعة من الكهف كما ترى ، فعكف آخرنا على سد الفتحة .. أولاً يضع قطعة من الورق المقوى ليسد بها الفتحة ، ثم يهيل عليها بعض الرمال المبتلة المعجونة بالماء من قارورة يحملها ، ثم يضع بعض نباتات الصبار .. حين تجف هذه مع الشمس سوف يكون من العسير تبينها إلا لعين مدربة تعرف ما تبحث عنه ..

لا أعرف كم من الوقت مشينا لكن الشمس كانت قد بدأت تعتلى السماء ..

كنت أفكر .. ماذا لو ظهرت طائرة عمودية جديدة ؟ لقد مررنا بموقف مماثل ، ووجدناه سيئًا بما يكفي .. ماذا يضمن لهم أمن هذه المسيرة فوق الرمال مكشوفين كنمل على مرآة ؟

قالت (سلمى) وقد عرفت ما أفكر فيه :

ـ « يبدو أنهم يعرفون أماكن ومواعيد تلكم الدوريات .. »

وتوقفت عن الكلام ، لأن أحد الرجال كان يفتح فجوة من الرمال المزيفة والصبار فى كهف ..

هؤلاء القوم يجدون طريقهم ببراعة حقًا ، لكن أية حياة هذه ؟

★ ★ ★

والآن دعنى أقدم لك الأخ (جمشيد بن عباس) ..

أولاً هو مسن جدًا كما ينبغى أن يكون .. لحية طويلة بيضاء على صدره ، وغطاء رأس عربى (شماغ) يغطى به رأسه من دون عقال .. وجه مسن مفعم بالتجاعيد .. ربما يذكرك بلحاء شجرة عجوز فى مدرستك القديمة .. لكن تحت هذا الرأس الواهن هناك جسد قوى لم تذبل عضلاته بعد .. على الأقل هو أقوى من جسدى أنا .. ولدرجة ما كان

منظره يذكرنى بصورة (أنتونى كوين) فى دور (عمر المختار) ..

جواره تجد (الفارابى) و(أبو الأسود الدؤلى) و(الخليل ابن أحمد الفراهيدى) .. هكذا أسماؤهم التى عرفتها فيما بعد مما يدل على أن ملاحظتنا كانت صائبة .. لن تجد كل هذه المجموعة من أعلام العرب فى مكان واحد مهما حاولت .. إلا فى الموسوعات طبعًا ..

كانوا مدججين بالسلاح يفترشون الأرض .. وكانت هناك أقداح قهوة و(دلة) .. بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الرجال .. وكان سقف الكهف مجوفًا بطريقة تجعله أقرب إلى مدخنة .. ويبدو أن هناك نظامًا ما للتخلص من الدخان وإدخال الهواء .. بدائى لكنه فعال ..

يبدو أن هذا هو مقر القيادة الرئيسى .. كل شىء يوحى بهذا ..

نظر لنا (جمشيد) من تحت حاجبيه الكثين ، وقال :

ـ « السلام عليكما .. من أين جئتما ؟ »

كان له صوت عميق ملىء بالحكمة .. صوت لا يجب أن تمزح معه .. لا تستطيع المزاح معه .. كانت ليلة منهكة ولم يغمض لنا جفن منذ ساعات ، لذا قلت كلمات غبية على غرار :

ـ « لسنا من هنا .. نحن من هناك .. تسألنى لماذا جئنا من هناك .. أقول لأن هنا أفضل من هناك .. »

هراء كثير من هذا الطراز ، وكان هو ينصت ويهز رأسه كأنما يصدق كل حرف لكن الشك فى عينيه العجوزين صار عادة ..

قال أحد مرافقينا :

ـ « إنهما فرا من معسكر الـ ESF .. ركبا شاحنة ترجلا منها قبل المدينة .. »

ـ « إذن هما مجدودا الحظ .. لو بقيا بضع دقائق لانفجرا .. »

ثم ناول كلاً منا قدحًا .. وأمر بمن يصب لنا القهوة العربية فى الأقداح .. فلما فرغت من قدحى عاد الرجل يصب فيه المزيد .. قالت لى (سلمى) همسًا :

ـ « لو اكتفيت هز القدح حتى لا يعيد ملأه لك .. »

ما هذا المكان ؟ أسماء عربية وتقاليد عربية تمارس بدقة أمينة .. ثمة خاطر يسيطر علىّ .. هؤلاء القوم يجاهدون لاهثين للاحتفاظ بهويتهم .. إن هذه الأسماء هى صورة رمزية لمن ينشب أظفاره فى تراب أرضه كى لا ينتزع منها ..

ظل الرجل ينظر لنا بعض الوقت ، ثم قال :

ـ « هل ترغبان فى المشاركة ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

دون أن ندرى ما هذا الذى نشارك فيه .. لكننى احتفظت بسياسة الموافقة على أى شىء كى لا أسأل ..

قال الرجل :

ـ « إنهما متشابهان كتوءمين .. »

فعلاً تعالت أصوات الرجال تؤكد أن نعم .. هذا غريب .. حقًا ..

ـ « وملامحهما تختلف عنا .. بشىء من المعالجة يمكن أن يبدوا منهم .. هل أنتما أخوان ؟ »

قلت فى حرج :

ـ « زوجان .. »

ـ « هذا غريب .. لا يوجد ما يدعو لتشابه الأزواج إلا فى ظروف نادرة .. عندما يكون تفاهمهما مطلقًا .. »

هنا سألنى أحدهم وهو من يدعونه (سلمان) :

ـ « هل تتكلم لغة غربية ؟ »

قلت فى ارتباك :

ـ « نعم .. الإنجليزية .. بالفعل .. »

ابتسم الوجه العجوز وقال :

ـ « هذا يرجح الكفة أكثر .. لا أحد منا يجيد لغة غريبة .. هذه نقطة مهمة .. ثم إن جسديهما من القياس ذاته .. »

ثم أشار لنا إلى بعض الأغطية على الأرض .. وقال بلهجة آمرة :

ـ « أنتما منهكان .. الآن تنامان وعند الاستيقاظ تعرفان ما يجب عمله .. »

بالطبع لم تكن بنا من حاجة إلى هذا الأمر .. ولم نغرق فى التفكير طويلاً لأننا حين اتخذنا وضعًا أفقيًا تصرفنا كتلك الألغام النازية : التى لم تكن تنفجر إلا حين تميل نوعًا إلى المستوى الأفقى .. وانفجارنا كان غطيطًا وخليطًا من الأحلام ..

فقط أذكر أن آخر كلمة قالتها العزيزة (سلمى) :

ـ « هل لاحظت هذا المدعو (سلمان) ؟ »

قلت فى تعب :

ـ « م م م م ؟ »

ـ « يبدو لى أن هذا هو اسمه الحقيقى لا الحركى .. اسمه (سلمان) .. ألا ترى شيئًا غريبًا ؟ »

ـ « م م م م م .. وما فى ... م م م .. ذلك ؟ »

ـ « إنه يبتسم ابتسامة بزاوية فمه اليسرى !! ابتسامة تبدو لى مألوفة .. »

★ ★ ★

٦ـ التنكُّر ..

حين صحونا عند العصر ، قدموا لنا وجبة تتكون من الفول المهروس .. وكان هناك الكثير من التمر .. معنى هذا أن لهؤلاء القوم مكانًا آخر غير هذا .. ربما واحة قريبة ..

لم يكن المكان مريحًا .. ربما هو خانق كذلك ، يذكرك كثيرًا بشبكة المجارى التى كنا نعيش فيها فى أرض المغول ، وإن كانت الكهوف أنظف وأعطر رائحة من المجارى طبعًا ..

كنت فى حاجة ماسة إلى شخص يجلس معنا ونبدأ فى سؤاله .. من البداية .. قل لنا يا أخى : ما معنى كذا وكذا ؟ لماذا يبدو كذا كذا ؟ ما اسم اللعبة وما قواعدها ؟

لكننا لا نجرؤ أبدًا .. فى هذا العالم وسط هذه الأحداث يسهل اعتبارك مجنونًا ـ لو كنت سعيد الحظ ـ أو جاسوسًا ..

* * *

عند الغروب ظهر (جمشيد بن عباس) .. أين كان ؟ لا أدرى لكننا لم نره فى الكهف لدى استيقاظنا ..

كانت ثيابه قد اختلفت قليلاً وإن كان مدججًا بالسلاح ، وقد التف حوله عدد من الرجال ، سأعرف أسماءهم فيما بعد. وإن كانوا يحملون أسماء مثل (امرؤ القيس) و(جابر بن حيان) ..

ابتسم لنا وبصعوبة يمكنك أن تعرف أن هذا الأخدود الذى ظهر فى ملامحه ابتسامة .. وقال :

ـ « نمتما جيدًا ؟ لكن .. هل تحبان (فيروز) ؟ »

طبعًا كان هذا آخر سؤال يمكن أن نتخيله فى التاريخ .. بالصدفة كلانا يعشق (فيروز) لكن ما أهمية هذا السؤال الآن وهنا ؟

مد أحد الرجال يده إلى جهاز عتيق وضغط على زر ، وعلى الفور تصاعد الصوت الرخيم يحكى عن (شادى) الذى (ركض يتفرج) وهو مازال (بعد صغير عم يلعب عالتل) ..

كان الجهاز فى أسوأ حال ، حتى لم يكن يصلح إلا كمبراة ، كما أن الحجارة الجافة المثبتة إليه تم غليها عدة مرات .. دعك من آثار العض التى تدل على محاولة إطالة عمر تكررت كثيرًا ..

قال (أبو العتاهية) وقد لاحظ دهشتنا :

ـ « نعم .. لاتوجد حجارة جافة فى أى مكان .. لكننا سرقنا عددًا منها منهم منذ سنين .. »

قال (جمشيد) وهو ينظف سلاحه :

ـ « هناك جولة اليوم .. حوالى مائتين قادمون .. نعتقد أنكما قادران على الاندماج بينهم .. نريد معرفة كل شىء عن العرض .. ماذا ستريان ؟ »

تبادلت و(سلمى) النظرات ..

الحقيقة أننا لانفهم شيئًا على الإطلاق ..

هنا جاء أحد الرجال يحمل ثيابًا نظيفة مطوية بعناية .. هناك شعر مستعار أشقر وأشياء أخرى لا أعرف ما هى ..

قال (جمشيد) دون أن ينظر لنا :

ـ « ستدخلان الآن إلى إحدى الفتحات الجانبية لتستبدلا هذه الثياب بما تلبسان .. ثمة لمسات نضيفها نحن .. لكن لاتنسيا أننا فقدنا الكثيرين من رجالنا كى نحصل على هذه الثياب .. حافظا عليها .. »

وهكذا دخلنا أنا و(سلمى) أحد الشقوق فى الكهف ، وعلّق

لنا أحدهم مشعلاً كى نرى بعضنا .. كنا فى حالة مروعة من الغباء لكننا لانجسر على توجيه أسئلة .. ثيابنا واحدة على كل حال .. قميص بلون خاكى وسروال (جينز) أزرق .. ثم حذاءان رياضيان ..

فرغنا من ارتداء هذا كله ، ثم إن (سلمى) ثبتت الشعر الأشقر المستعار على رأسها ، فكانت النتيجة لا بأس بها .. صحيح أن بشرتها خمرية ، لكن طقس الصحراء هذا يجعل أية بشرة تحترق ..

ثبتت أنا الجمة على رأسى ، ولم أر نفسى لكنها هزت رأسها بمعنى أنه لا بأس بى ..

ثمة أشياء فى الجيب .. مددت يدى أبحث ، فوجدت بطاقة بلاستيكية مزودة بدبوس تصلح لتعليقها على الصدر .. فهمت الآن لماذا رأى الرجل أنه لا مشكلة .. إن الصورة لرجل أشقر ، مع كثير من الظلال ورداءة التصوير تجعل تعرف ملامحه مستحيلاً .. فقط كانت البطاقة المغلفة تحمل شارة ESF .. لاحظت أن الجنسية تشير إلى أننا (ولايات شرق) .. لم أفهم معنى هذا ..

فيما بعد عرفت أن أهمية (ولايات شرق) هذه أن بوسعنا أن نتكلم إنجليزية غير متقنة .. فلا يفتضح أمرنا لأن إنجليزيتنا لن تخدع غربيًا بالتأكيد ..

وكذا خرجنا إلى القوم فأبدوا الكثير من الاستحسان ..

أضافوا بعض اللمسات مثل كاميرا حول كتفى .. وحقيبة ظهر لـ (سلمى) .. وزجاجتى ماء لكل منا .. ثم أضافوا أسوأ جزء فى الموضوع .. عدسات ملتصقة زرقاء اللون .. لقد تبدل منظرنا تمامًا ، وأستبعد أن تتعرفنى (سلمى) لو لم ترنى أتنكر أمامها ..

هؤلاء القوم مستعدون تمامًا .. لكن يمكن القول إن هذه الأشياء كلها مسروقة من غربيين حقيقيين .. ربما ميتين كذلك .. هذا مفهوم .. وإن كنت لا أحب كثيرًا أن أسأل أسئلة بصدد مصدر العدسات الملتصقة !

كنت قد كونت ـ بعبقريتى المعهودة ـ بعض الاستنتاجات .. هم يريدون منا أن نتنكر كغربيين .. لماذا ؟ طبعًا لنندس .. نندس فى ماذا ؟ فى الجولة التى بها نحو مائتين ..

حقًّا إن الترتيب المنطقى يقود إلى الحل دائمًا !

قال (جمشيد) :

ـ « لا بأس .. لاحظا كل شىء .. (أبو العتاهية) سيقودكما إلى هناك .. »

ثم انصرف إلى أحد رجاله ، وبدا كأنما نسى الموضوع تمامًا وفتح موضوعًا آخر ..

* * *

تحت ستار الظلام نتسلل فى الصحراء ماشين خلف (أبو العتاهية) .. النجوم تعطى ضوءًا لا بأس به أبدًا .. تشعرك بالألفة برغم أنك لا تميز نجمًا واحدًا مألوفًا لك .. لابد أن (وعاء الدب الأكبر) هنا يدعى (طشت غسيل التمساح) أو أى شىء مماثل ..

كان هناك ضبع نظر لنا من بعيد ، ثم قرر أنه بائس وحيد ففضل الانصراف ..

لا بد أننا مشينا نحو نصف ساعة .. كنا فى الحقيقة ندور حول تلك المدينة الصحراوية الغامضة .. رأسانا يزدحمان بالأسئلة لكننا لا نجرؤ ، وعلى كل حال كنا قد قدرنا أن هذه الجولة ستشرح لنا كل شىء .. ستلعب دور كتاب التاريخ الذى قرأته أنا فى أرض المغول فأعفانا من أسئلة مربكة ..

قال لنا (أبو العتاهية) وهو يتقدمنا :

ـ « النصيحة المهمة هى : لا تتبادلا أية كلمة عربية .. أنتما غربيان فى كل شىء .. ثم إنكما وحيدان تمامًا ولو وقعتما

فى أيديهم فلا علاقة لكما بأى شىء .. لن تعرفا كيف تجداننا .. »

ثم أشار إلى الكاميرا وقال :

ـ « هذه لاتعمل .. لكنها تطلق ضوءًا .. حاول أن تبدو فضوليًا .. »

هذا الجزء بالذات لا يحتاج إلى توصيات .. لن يحتاج إلى أى جهد منا .. إن الفضول يقتلنا بالفعل ..

أخيرًا رأينا مشهدًا عجبًا ..

كان هناك سياج من السلك .. سلك مضلع يذكرك بالذى تثبته فى دارك لتتقى البعوض .. ومن بعيد ـ على مسافة ثلاثين مترًا ـ كانت هناك طائرة متوسطة الحجم .. لها ذات منظر حاملات القوات التى تراها فى الصور .. إنها تخص الجيش .. جيشًا لا يعلم كنهه إلا الله .. وعلى بعد أكبر كانت هناك طائرتا هليكوبتر وطائرة تبدو لى كالمقاتلات ..

كانت الطائرة المعنية واقفة تهدر كالوحوش ، غارقة فى الأضواء .. وأدركت أنها وصلت من فورها .. كانت هناك حركة غير عادية ، مع عملية تقريب سلم على عجلات من بابها ..

ـ « بالضبط فى الموعد .. »

قالها (أبو العتاهية) وهو يدنو من السور ويثبت أظفاره فى فجوات السلك ..

ثم نظر لنا وقال :

ـ « حين ينزل الركاب تدخلان .. لا توجد حراسة هنا ، ويسهل أن تندمجا وسط الفوج .. الركاب سينتشرون فى كل مكان ومن المستحيل مراقبتهم .. كما أننا نعرف أنهم لا يجرون حصرًا لهم .. الجولة تنتهى غدًا فى نفس الوقت .. سأكون هنا لأساعدكما على الرحيل .. »

هتفت (سلمى) :

ـ « تتكلم كأنه لا يوجد سلك .. »

ابتسم ومد يده ليرفع جزءًا من السور .. واضح أن هؤلاء القوم مزقوا أجزاء من السياج من قبل ، صانعين بابًا يدخلون منه متى أرادوا .. وحين يعود السلك لمكانه ويثبتونه بالخيط يصعب أن تلاحظ أنه ممزق ..

أخيرًا بدأ الركاب ينزلون من الطائرة ..

بالفعل سادت الفوضى ، وبدا كأن الساحة أمامنا تحولت إلى نوافذ الدرجة الثالثة قبل مباراة كرة قدم .. هم مائتان لكنهم يقومون بما يقوم به ألف من صخب وفوضى ..

وفى هذه اللحظة همس (أبو العتاهية) :

ـ « هيا .. لا تنظرا للوراء .. كونا طبيعيين .. »

يبدو أن للرعب دورًا مهمًا فى اتخاذ القرارات الحاسمة .. لا أعرف كيف ولا متى وجدنا نفسينا بالداخل ، ولا كيف اجتزنا المسافة الحرجة بين السور والزحام ، لنتحول من (متسللين) إلى (ربما كان هذان معنا من البداية) ..

ولم ننظر إلى الوراء ..

الزحام كله من الغربيين .. والأجمل هنا أن أكثرهم يلبسون مثلنا .. هذه ثياب صالحة للرحلات أو لغرض (السافارى) .. وقد ذكرنى منظرهم بالسياح الواقفين عندنا خارج معبد الكرنك بانتظار الدليل الذى يلوح لهم طالبًا أن يتبعوه ..

سرعان ما اندمجنا وسط الزحام .. وكانت هناك كلمات بالإنجليزية والفرنسية والألمانية .. فتاة تلتقط الصور لصديقتها وصديقها .. رجل يجمع بعض الرمال فى كيس .. مزاح .. بعض العجائز الأثرياء من طراز المومياوات إياه الذين نراهم فى مصر ، والذين يجمعون المال طيلة حياتهم لينفقوه فى رحلة العمر .. وبعض السياح الشباب الذين لا ينفقون أكثر من ربع دولار يوميًا والذين تعرفهم مصر كذلك ..

بعد قليل ظهر رجل يبدو أنه عسكرى ، وكان يضع (بادج) صغيرًا يقول : ESF وأمسك بمكبر صوت وقال بإنجليزية جيدة :

ـ « إن المركز الصحراوى الرئيسى يرحب بكم .. »

وكررها ثلاث مرات إلى أن انتهت الضوضاء وصار قادرًا على سماع نفسه ..

ـ « .. ستكون هذه رحلة الأحلام ، وقد خصصنا لكم خيامًا مكيفة ووجبة عشاء ساخنة .. تبدأ الجولة صباحًا ، إلا إذا رغب بعضكم فى استكشاف الصحراء ليلاً .. هناك طائرات عمودية مخصصة لهذا .. »

ثم دس يده فى جيبه وقال :

ـ « هل من أسئلة ؟ »

رفعت إحدى الفتيات يدها وبلهجة أمريكية سألته :

ـ « كيف يتم تمويل المشروع ؟ هل أنتم جهة حكومية ؟ »

قال فى (ألاطة) لا بأس بها وهو يدير عينيه فى وجوهنا :

ـ « أكثر تمويلنا من الجامعات .. ومن ESF .. وبعض النفقات يتم تدبيرها برحلات سياحية باهظة الثمن مثل هذه ! »

تعالت ضحكات عصبية لا مبرر لها .. واضح أنها دعابة قوية فعلاً ..

قال أحد الواقفين ضاحكًا :

ـ « خمسمائة (كومون) عن الفرد .. هذا ليس مبلغًا زهيدًا .. »

قال الرجل الذى يبدو أنه عسكرى :

ـ « أنا لا أحدد الأسعار .. لكن ما أعرفه حقًا هو أن كل من زارنا لم يشعر بعد الزيارة بأنه دفع أكثر من اللازم .. والآن هل هناك من يرغبون فى استكشاف الصحراء ؟ »

ارتفعت بعض الأيدى ، فرفعت أنا و(سلمى) أيدينا .. كنا فى حاجة إلى الفهم .. وعدم ترك فرص لهذه العملية ..

ـ « جميل .. هناك خمسون منكم .. سنحاول ترتيب الطائرات اللازمة .. »

* * *

فى المقصف انتظرنا فى طابور طويل حتى جاء دورنا .. كان الطعام الذى حملناه فى صينية هو نوع من اللحم الممهوك أو الممزق .. لا أعرف بالضبط .. مع كوب من الكولا الباردة وبعض البطاطس المحمرة ..

لم أتحمس كثيرًا للحم لأننى لا أعرف نوعه .. ربما هم يأكلون الذئاب على العشاء فى هذا الكوكب ، والأدهى أن تكون ذئابًا مخنوقة كذلك !! لكن البطاطس كانت جيدة .. وعرفت أن (سلمى) أحبتها كذلك ..

ترى كيف يبدو تنكرنا فى الضوء الساطع داخل المقصف ؟ لحسن الحظ أنه لا أحد ينظر إلى الآخر ..

بعد العشاء تجمعنا حول الطائرات الهليكوبتر ، وقد قسمونا إلى مجموعات ..

بدأت طائرتنا ترتفع .. ترتفع .. دورة حول المدينة التى لم تظهر معالمها بوضوح .. مجرد نقاط لا حصر لها من الأضواء .. ثم ننطلق فى السماء الشاسعة التى تملؤها ثقوب النجوم .. متى قرأت عن الثقوب فى السماء ، والبرق الذى يحاول أن يرفوها كأنه إبرة خياط ؟ متى كان هذا ؟ فى قصة أطفال ؟ ديوان شعر ؟ من المستحيل أن أتذكر الآن ..

ومن تحتنا بدت الصحراء الغامضة المسربلة فى السواد .. كأنها طلسم لا قبل لأحد بفتحه ..

(سلمى) جوارى .. تدنو منى أكثر وتهمس بالإنجليزية (على سبيل الاحتياط) :

ـ « هل تشعر به ؟ هل تحسه ؟ »

فألمس يدها .. ألثمها وأصمت .. الليل والصحراء والصمت وهدير المحرك .. لا بد أن شيئًا تحرك فيها كما تحرك فى .. ليس هذا وقته ، لكن العواطف كالعضلات تبحث عن لحظات تستجمع فيها أنفاسها .. لا يمكن أن تكون الحياة كلها تخطيطًا ومؤامرات ومحاولات للفهم والنجاة بالحياة .. لا بد من لحظة ما يتقارب فيها رأسان يرمقان الليل ..

تقول لى :

ـ « منذ متى لم تقل إنك تحبنى ؟ »

فى الحقيقة لا أذكر أننى قلتها على الإطلاق ـ هل تذكر أنت ؟ ـ لكنى أكذب فأقول :

ـ « منذ راح جهازك هذا يلقينا من حفرة لحفرة .. ومن بركان لبركان .. لا بد من كوكب ما يصلح لالتقاط الأنفاس .. »

ـ « لقد بدأت أعتقد أن عالمى هو أفضل العوالم المحتملة .. »

الطائرة تحلق فوق تلال لا نعرف عددها ، ولا نهايتها ..

ثم ...

ظهر وميض نارى من على أحد التلال ...

وشهق البعض وصرخ البعض .. على حين صاح الطيار :

ـ « تماسكوا ! إن صاروخًا حراريًا يتجه نحونا !! »

* * *

٧ـ الجـولة ..

ـ « يا ساتر يا رب ! »

دوت الصيحة من (سلمى) وهى تتكور حول نفسها .. لو أصابنا هذا الصاروخ الحرارى فلن نعرف هذا .. طريف أن تتحول إلى فتات من اللحم المشوى تقضمه فئران الصحراء ، بعد ثانية من كلامك عن الحب والعوالم المحتملة ..

فيما بعد سيكون لى أن أقلق بصدد من سمعوا (سلمى) تصرخ بالعربية .. فيما بعد ..

الطيار يرتفع بحركة عصبية ، ثم يأتى بحركة مناورة جعلتنا نرتطم ببعضنا .. والبطاطس المحمرة تصعد إلى الحلوق .. لابد أنه يقوم برسم حرف Z الشهير الذى يتفادون به الصواريخ الحرارية ..

ثم رأينا وميضًا إلى اليسار ، والتفتنا فرأينا انفجارًا فى السماء يضىء المكان ..

ـ « استرخوا يا شباب .. لقد تفاديناه !! »

قالها الطيار ، فتصاعدت شهقات الارتياح .. وبكت بعض النسوة من فرط الإجهاد العصبى ..

لا أعتقد أن هذا المشهد جزء مدبر من الجولة لإمتاعنا .. هو حقيقى .. وأعتقد أن صاحب هذا الصاروخ ينتمى لـ (جمشيد بن عباس) ورجاله ...

ـ « من (إنتربيد ـ ٣) إلى الإوزة الأم .. من (إنتربيد ـ ٣) إلى الإوزة الأم .. صاروخ عند (دلتا إكس ـ ١٨) .. حول .. »

كانت هذه من الطيار طبعًا ..

وبعد دقائق ، أشار لنا إلى الأفق فى نغمة انتصار ، ورأينا ثلاث مقاتلات قادمة من بعيد ..

هتف الناس واحتشدوا يتزاحمون ليروا ما سيحدث من النوافذ .. لم تفعل المقاتلتان على الجانبين شيئًا ، لكن الوسطى انفصلت لـ (تتعامل معهم) ـ كما يقولون فى سلاح الطيران ـ والتعامل معهم يعنى أنها ارتفعت قليلاً وفى اللحظة ذاتها انطلق منها صاروخ طار ليضرب بالضبط النقطة التى هوجمنا منها ..

وهوب ! لا أعرف نوع هذه القنابل العجيبة ، لكنها تشبه ما رأيته من قبل .. الانتشار على مساحة واسعة .. اللهب

الأخضر .. رأيت مرة نارًا تشتعل فى كيروسين ، وقد بدا المشهد مماثلاً لهذا بالضبط ..

المهم أن الأفق تحول إلى نيران ، على حين حلقت المقاتلات مبتعدة ..

وهلل الركاب .. وراحوا يلوحون مودعين ..

تبادلت نظرة مع (سلمى) .. على الأرجح لم يحدث شىء للمهاجمين ، لأنهم ـ كما رأينا أمس ـ أطلقوا صاروخهم وتواروا فى إحدى الفتحات ..

ليتنا نفهم ما يحدث هنا ..

★ ★ ★

ـ « معذرة .. لكن اسميكما ليسا عندى على الإطلاق .. »

قالها الرقيب وهو يراجع الأسماء المكتوبة أمامه ..

كان علىّ أن أتمادى فى التمثيل أكثر ، فصحت فى عصبية :

ـ « ونحن كنا نحسب أنه لا أخطاء تحدث فى جهاز بهذا الحجم .. والآن قل لى .. هذا أنا أمامك وهذه زوجتى وقد دفعنا ثمن هذه الجولة .. لا تتوقع منا أن ننام فى الصحراء .. »

قال فى حرج وحزم عسكرى برغم هذا :

ـ « آسف .. لا أستطيع أن أقدم لكما خيمة .. »

رحت أضرب كفًا بكف ، على حين بدا الاشمئزاز على (سلمى) من (كل هذا الإهمال) .. فى النهاية جاء رجل أرفع رتبة فرأى المشهد ، وسمع ما يقال فهتف :

ـ « (سميث) .. لتكن أكثر مرونة .. أعطهما استراحة المقصف .. على مسئوليتى .. »

ـ « ولكن ... »

ـ « بقيت أربع ساعات على الصباح .. هذا لن يضير أحدًا .. »

استسلم (سميث) الأحمق ، على حين قلت أنا فى تبجح وأنا أصافح الأعلى رتبة :

ـ « أخيرًا هناك شخص ذو عقل فى هذه القاعدة .. حسبتهم لا يختارون إلا أمثال هذا الـ (سميث) .. »

لم يبد (سميث) سعيدًا بكلامى ، ولا ألومه على هذا .. إلا أنه اصطحبنا إلى غرفة ضيقة ملحقة بالمقصف .. هناك فراش واحد ، وحالة الغرفة توحى بأنها كانت استراحة للبط

أو وشق الأستبس .. لكنه على الأقل موضع يسمح لك بوضع أفقى ..

انغلق الباب علينا فقالت (سلمى) فى مرح :

ـ « أنت ... »

ـ « حذار ! بالإنجليزية وبصوت خفيض .. »

قالت بالإنجليزية :

ـ « أنت ممثل بارع حقًا .. من يرك فى غضبك يقسم على أنك صاحب حق .. »

ـ « لدينا مثل يقول (الحقوهم بالصوت) ولا أعرف إن كان فى أرضكم أنتم أيضًا .. إذا كنت أنت الطرف الخطأ الذى لاحق له ، فعليك أن تكون الأعلى صوتًا والأكثر صراخًا .. هذا يقنع الناس بعدالة قضيتك ! »

على كل حال .. لقد نمنا .. وكان نومنا عميقًا بالفعل ..

لولا الطرقات الحازمة على الباب فى الصباح تخبرنا أن موعد الإفطار قد حان ..

★ ★ ★

فى الصباح بدأنا الجولة التى لانعرف أى شىء عن كنهها ..

كان المكان ذا طابع عسكرى لاتخطئه العين ، لكن الجميع كان يتظاهر بالمودة واللطف ..

هذه المرة اقتادونا كالخراف الضالة إلى مبنى عملاق له ذات الطابع المميز للمتاحف فى كل مكان .. وفوقه اللافتة اللعينة ESF التى تطاردنا فى كل صوب .. اصطففنا على الباب ، ودنا منى رجل مسن يحمل زوجًا من الكاميرات وقال لى فى لهفة :

ـ « فيلم .. هل تعرف من أين أبتاع واحدًا ؟ »

ثم رأى البطاقة على صدرى فهتف فى مرح :

ـ « ولايات شرق ؟ أنت ابن وطنى إذن !! »

يا للمصيبة !

عاد يسألنى وهو غير عازم على أن يخرس :

ـ « لطيفة زوجتك .. وإن كانت تشبهك كثيرًا .. لا أقول هذا بصيغة الذم ! هل أنت من (وارسو) ؟ لابد أنك يهودى مثلى .. »

ثم قال عبارة ما بلغة لا أستبعد أنها البولندية .. فهززت رأسى وقلت الكلمة التى فتح الله علىّ بها :

ـ « بوخارست) .. »

أعتقد أن هذا أقرب إلى الحكمة .. ما دمنا نتكلم عن الشرق ، وما دام هو بولنديًا فمن الحكمة أن أدعى الرومانية .. هز رأسه فى أسى وحيانا وابتعد ..

على الباب اصطففنا كما قلت لك ، ثم ظهر رجل له ذات السمت العسكرى ، وهتف :

ـ « سندخل فى مجموعات .. لا داعى لأن أذكركم بأن اللمس ممنوع .. »

ثم أضاف :

ـ « لقد أنفق صندوق الأنواع المنقرضة الكثير على هذا المتحف .. »

هنا بدأت أفهم .. (صندوق الأنواع المنقرضة) .. أو Extinct Species Fund .. من هنا جاءت الـ ESF التى تطاردنا فى كل مكان .. أعرف هذه المشروعات .. ما يوشك على الانقراض مثل دب الكوالا والباندا والنسر الأمريكى

الأصلع ، وما انقرض فعلاً مثل ذئب (تسمانيا) الذى لم يكن ذئبًا ولم يكن من (تسمانيا) ..

سمعت (سلمى) خواطرى (لا يوجد خطأ مطبعى هنا) فقالت :

ـ « أنت مخطئ .. لا تنس أن هذه أرض العظايا .. لا بد أن الموضوع يتعلق بالديناصورات .. »

صحيح .. نسيت هذا ..

طبعًا لابد فى المدخل أن نجد ذات الهيكل المعهود لـ (تى ركس) أو (Tyrannosaurus Rex) المحبب للأطفال .. لا بد من آثار أقدام على الطين الذى تحول إلى حفريات .. لا بد من نباتات متكلسة وعظام متحجرة لطائر (الإصبع المجنح) المثير Pterodactyl ..

ووثب قلبى طربًا .. أنا أحب الديناصورات .. من الذى لا يحبها ؟

وتقدمنا فى تؤدة إلى الداخل ..

كانت هناك خارطة كبيرة تحتل أهم موقع فى المكان .. ثم رأينا عينات متكلسة لا تعرف كنهها .. لا توجد هياكل

للديناصور لكن هناك هياكل عظمية آدمية واقفة وقد حفظت فى واجهات عرض ..

ثمة قاعات جانبية فى إحداها جمل كامل محنط .. لا أعرف .. هل انقرض الجمل فى هذا الزمن ؟

هناك ثياب عربية معلقة على مشاجب .. وأجزاء من خيام .. هناك قطع من تماثيل .. وأسلحة آلية صغيرة ..

هناك صور لمطربين نعرفهم .. ما معنى هذا ؟

قال المرشد وهو يتقدم الحشود الذين لا يكفون عن التقاط الصور :

ـ « فى الداخل هناك نماذج حية .. سندخل ولكن بهدوء من فضلكم .. إن الزحام قد يكون خطرًا .. تذكروا أن هذه العينات غالية جدًا ونادرة جدًا .. »

وفى هدوء مشى إلى ممر جانبى ، فمشينا وراءه ..

بالداخل كانت هناك نوافذ عرض .. وكان بداخلها .. أشخاص .. أحياء ..

النوافذ عملاقة جدًا مما يتيح أن يوجد بالداخل بيت صغير ، وأسرة كاملة مكونة من أب وزوجته وأولاده ينظرون لنا

فى خوف وتوجس وملل .. كانوا سود البشرة يبدو أنهم من إفريقيا ..

ثمة لافتة على الزجاج تقول : أوضح نموذج لـ Homo erectus .. تم العثور على هذه العينة فى (تنزانيا) ..

ألصقت (سلمى) وجهها بالزجاج وراحت ترتجف .. رآها طفل أسود بالداخل فاقترب منها وقد غلبه الفضول لكن أمه ركضت لتبعده ..

ـ « ممنوع لمس الزجاج يا آنسة ! »

قالها المرشد فى عصبية ، فابتعدنا ..

وفى واجهة أخرى كانت أسرة من الأستراليين البدائيين .. و...

هتفت (سلمى) بصوت مبحوح :

ـ « (سالم) .. هل فهمت ما هى العظايا المنقرضة ؟ إننا لا نتكلم نفس اللغة ! إن العظايا هى نحن ! »

* * *

٨ـ فلنفر من هنا ..

كنا فى حالة نفسية بالغة السوء ، ونحن نتقدم إلى الطائرة .. طائرة كبيرة نوعًا هى التى رأيناها أمس رابضة فى المطار .. لأين ؟ (أبو العتاهية) قال إن موعدنا فى الليل ، ومازال الليل بعيدًا ..

لقد ارتفعت الطائرة فى الهواء ، وبدأت تعلو باستمرار ..

لحسن الحظ كانت هناك مقاعد خالية وإلا لافتضح أمرنا لدى الصعود .. هذه الرحلات ليست تامة العدد فيما يبدو ..

ولم نتبادل الكلمات .. لم نفتح فمنا بكلمة واحدة ..

لأننا لو تكلمنا لانفجرنا فى شلال من الأسئلة والاحتجاجات والهستيريا ..

الليلة لو نجونا سنذهب إلى (جمشيد بن عباس) .. سنلقى بأنفسنا تحت قدميه نتوسل إليه أن يشرح لنا كل شىء .. لا تقل إن الحقيقة هى ما فهمناه نحن .. قل إننا غبيان .. قل إننا حماران .. قل أى شىء .. لكن من فضلك لا تقل ما نعرف الآن هو الحقيقة ..

ـ « يمكنكم أن تروا النيل لو نظرتم إلى الجانب الأيمن .. »

كان هذا صوت المذيع أو الدليل أو الطيار ذاته ..

تصاعد الكثير من (الواو) و(الياى) ونظر الجميع من النوافذ اليمنى ، حتى شعرت بأن الطائرة تميل مهددة بالسقوط ..

ـ « انهضى .. »

قلتها لـ (سلمى) فى كآبة لأن منظرنا بدا غريبًا الآن ..

نهضنا ونظرنا من النوافذ وأطلقنا الكثير من الـ (واو) بدورنا ..

دوى صوت المذيع أو الدليل أو الطيار ذاته :

ـ « من الناحية اليمنى ترون الأهرام .. »

وتكرر المشهد من جديد بحماسة كبير ..

ـ « جوار الهرم الأكبر تجدون معبد (فيلة) و(الكرنك) .. »

ما هذا التخريف ؟ هل هذا من أنواع الخلط الشهيرة بين العوالم ؟ لكن لا .. ثمة شىء يقول لى إن هذا ليس خلطًا ..

ـ « والآن ترون أجزاء من سد (مأرب) .. وأطلال (بترا) .. ثمة آثار قرطاجية بالغة الأهمية لو ... »

هنا لم تتحمل (سلمى) أكثر فهتفت :

ـ « لحظة .. أنت تجمع أقصى اليمين مع أقصى اليسار فى مكان واحد .. هذه الآثار مقلدة طبعًا ؟ »

لا أدرى كيف سمعها فقد دوى صوت المذيع أو الدليل أو الطيار ذاته يقول :

ـ « بل هى أصلية طبعًا .. هذا عملنا هنا فى ESF .. لقد تمكنا من نقل هذه الآثار المهمة للحضارات الغابرة ، وجمعناها كلها فى مكان واحد .. هذا يسهل زيارتها وصيانتها ويحميها من التلف .. »

الآن نرى بقايا من الحضارة الآشورية .. وبعض بقايا الرومان فى ليبيا ..

ـ « يمكن القول إننا استبقينا بعض الأجناس بهدف علمى بحت .. لكن خطتنا مستمرة لجعل كل شىء تحت السيطرة .. »

أخيرًا انتهت الجولة ، فبدأت الطائرة تدور بالعكس لنرى نفس المعالم من جديد ..

بعد ساعة أو أقل كانت الطائرة تنحدر لتهبط فى المطار ..

وترجلنا أنا و(سلمى) شاعرين بحاجة ماسة إلى العثور على مكان نستجمع فيه خواطرنا .. مكان بلا بشر ..

وقف أحد العسكريين على باب الطائرة وهتف فى مكبر الصوت :

ـ « هناك وجبة عشاء جاهزة لكم ، بعدها جولة حرة قبل ركوب الطائرة الـ (شارتر) للعودة .. »

كانت الحماسة قد بلغت بالقوم مبلغها ، وراحوا يلتقطون الصور لكل شىء .. لاحظت أن هناك شعبية كبرى للرمال .. الكل حريص على أن يحتفظ ببعضها فى كيس ..

ثم جاء وقت العشاء ..

تناولناه فى شرود ، بعدها وقفنا فى المطار بينما الطائرة الضخمة التى سترحل بهؤلاء تدور ببطء على الأرض ، وصخب المحركات يصم الآذان .. يبدو أن تزويدها بالوقود قد تمَّ ..

إن فتحة السور هناك .. لو وجدنا اللحظة المناسبة لتسللنا إلى هناك ورفعنا السلك و...

فوجئت بالعجوز البولندى الثرثار إياه يقترب منا ومعه

فتاة .. فتاة من طراز أبيض الشعر أحمر الجلد رمادى العينين ، حتى لتشعر بأنها سلبية صورة تمشى على قدمين ..

قال لى بالإنجليزية :

ـ « معذرة .. أنت (بوخارست) .. هه ؟ »

قلت باسمًا فى عصبية :

ـ « وأنت (وارسو) !! »

رفع يد الفتاة وقال :

ـ « هذه (ناديا) من (بوخارست) هى الأخرى ! كانت تبحث عن رفقة فقلت لها إن مواطنيها هنا ! »

توارى الكون كله خلف غشاوة بينما الفتاة تضحك فى مودة ، وتنطلق فى حديث بالرومانية جدير بأن يخرج من فم الكونت دراكيولا نفسه ..

نظرت لـ (سلمى) ونظرت للفتاة ثم هززت رأسى بمعنى أننى لا أفهم .. إشارة غبية جدًا لا معنى لها .. ربما لو كنت أثبت جنانًا لاتهمت الفتاة بأنها نصابة وأن ما تتكلمه ليس الرومانية ..

وقف رقيب ما على باب الطائرة وصاح :

ـ « فليركب الجميع .. »

تأهب الجميع للصعود ، لكنى سمعت صوتًا يقول :

ـ « لحظة !! ثمة نقطة لا بد من استيضاحها .. »

نظر الجميع لمصدر الصوت .. كان هذا هو العجوز البولندى اليهودى ..

قال فى حماسة ضاغطًا على كلماته :

ـ « هذان الشابان .. لا أستريح لهما على الإطلاق .. يزعمان أنهما رومانيان وهما لا يعرفان حرفًا من الرومانية .. وأكاد أقسم إنهما لم يكونا معنا فى الطائرة عندما جئنا ! »

صاح صائح :

ـ « بالفعل .. لم نرهما قط .. »

هنا ـ كما فى الكوابيس ـ ظهر الجندى (سميث) الذى تشاجرت معه البارحة .. تدخل فى الكلام قائلًا :

ـ « بالفعل .. هذان لم يكن اسمهما فى الأوراق !! نحن لا نرتكب أخطاء .. لا تسقط منا أية أسماء سهوًا .. »

وهتفت عجوز شمطاء أخرى :

ـ « الفتاة كانت معنا أمس فى الطائرة العمودية .. وصاحت حين رأت الصاروخ بعبارة لم أسمعها من قبل بأية لغة !! »

هنا أدركت أننا وقعنا فى الشرك ..

لكن الشرك لن يكون السجن هذه المرة .. أنا أعرف ما يحدث لمن يقع فى يد الجماهير الغاضبة ..

كان الجميع ينظر لنا الآن .. حوالى مائتى سائح متحمس ، ومعهم عدد من رجال القاعدة أو المدينة .. لو كان الجهاز معنا الآن ! هذا وقت مناسب جدًّا لضغط الأزرار ..

بالفعل راحت أناملى تضغط على زر وهمى فوق قماش سروالى ..

* * *

فى اللحظة التالية حدث ما يمكن أن تسميه (أسلوب جريفث) فى الإنقاذ على اللحظة الأخيرة ..

لقد دوى انفجار مروع فى مكان ما من المطار .. وفى اللحظة التالية كانت سحابة كثيفة من الدخان تغلف الجميع ، وتفرق الناس فى رعب .. وتعالت عبارات (النجدة) و Help و Secours و ...

هنا شعرت بيد قاسية عنيفة كالمنجل تطبق على معصمى وسط الدخان ..

حدث الشىء ذاته مع (سلمى) على ما يبدو .. وشعرت بأننا نجر كالخراف إلى السور وأخيرًا وجدت الفتحة فاجتزتها ..

ـ « تمرغا ! بسرعة أيها الأحمقان قبل أن ينقشع الدخان ! »

كان هذا سهلاً لأن هناك منحدرًا ، وسرعان ما راح جسدانا يدوران فوق الرمال كأننا حزمة من الصبار الجاف .. ومعنا حزمة ثالثة بدأت أفهم أنها أبو العتاهية ..

أخيرًا وجدنا أننا نرقد فوق الرمال التى يبللها السواد والندى ..

لا بد أن تأثير اختفائنا كان دراميًا بالنسبة لهؤلاء القوم بمجرد أن زال الدخان ...

قال (أبو العتاهية) :

ـ « أعددت قنبلة دخان لاستعمالها لو ساءت الأمور .. ويبدو أننى كنت حويطًا فى هذا .. ما كانوا ليسمحوا لكما بالفرار مهما حدث .. »

ثم هتف وهو ينهض :

ـ « نبتعد الآن .. هناك فجوة كهف قريبة .. يجب أن نتوارى

قبل أن تأتى الطائرات العمودية .. للأسف افتضح أمر هذه الفجوة فى السلك .. »

رحنا نركض بين الرمال حتى بلغنا فتحة من تلك الفتحات المعالجة بعناية .. يزيل الرمال المعجونة .. ينزع الورقة المقواة .. ثم ندخل .. الخطر فى الدخول هو أنه مهما حاولت من الداخل ، فإن الفتحة تظل واضحة للعيان منتهكة .. بينما الفتحات التى تعالج من الخارج يستحيل اكتشافها ..

أخيرًا جلسنا فى الكهف المظلم ، فأشعل مشعلاً ما جعل الأمور أفضل ..

قال لى باسمًا :

ـ « فقدت شعرك المستعار يا صاح .. »

قلت له منهكًا :

ـ « لهذا خير من أن أفقد إحدى عينى .. »

بعد تفكير قالت (سلمى) :

ـ « لدينا عشرات الأسئلة .. »

قال وهو يضع بندقيته الآلية جانبًا :

ـ « نحن لدينا مئات الأسئلة لكننا لن نتكلم عن شىء إلا أمام (جمشيد بن عباس) .. »

للمرة الأولى أظهرت (سلمى) جهلها بقواعد هذا العالم وكانت عامدة :

ـ « هل هذا اسمه الحقيقى أم الحركى ؟ »

نظر لها فى حيرة ، ثم قال بصدق :

ـ « اسمه الحقيقى طبعًا .. (جمشيد بن عباس بن محمود) .. نحاول أن نبقى أسماء جدودنا حية ساخنة .. إن ابنى اسمه (فرناس) .. لهذا صار محتمًا أن يكون اسم ابنه ـ لو رزقه الله بابن ـ هو (العباس بن فرناس) .. »

قلت لـ (سلمى) مفسرًا :

ـ « رائد حلم الطيران .. »

هزت رأسها فى غيظ :

ـ « أعرف .. بالله العظيم أعرف .. لدينا واحد منه كذلك .. »

وأطبقنا شفاهنا على الكلمات .. وأخلدنا لصمت طويل اختلط بلحظات نوم عميق ..

* * *

9 ـ كيف بدأ كل شىء ..

ـ « الحقيقة يا (جمشيد) أننا لسنا من هذا الكوكب على الإطلاق .. لا أعرف إن كنت تصدق هذا أم تكذبه ، لكننا لا نطلب منك التصديق أو التكذيب ، ولا نبالى برأيك .. فقط نريد فهم ما يدور هنا .. »

كان (جمشيد) جالسًا على الرمال ، يجدل سلة صغيرة ، وقد جلس حوله طفلان ..

المكان كان واحة صغيرة .. لا .. لا أجسر على أن اسميها واحة .. لنقل إنها بئر جواره ثلاثة أكواخ من الشعر .. ثمة نساء هنا وأطفال ، وبضع أشجار النخيل ..

لم يبد عليه أنه سمع ما نقول .. فقط واصل جدل السلة ، وعيناه العجوزان المنهمكتان تحاولان قدر الإمكان أن تريا ما تقومان به .. ثمة نظارة ذات إطار من السلك مثبتة على أنفه ومن الجلى أنها لا تقدم له الكثير ..

الحقيقة أننى لم أفهم قط السر الذى جعل هذا المكان آمنًا بالنسبة لطيران قادر على الوصول إلى أى مكان .. ثم فهمت

أنه من الأماكن المختارة للجولات السياحية الطائرة .. لا أحد يهاجمه لأنه مكان محبب للسياح ..

من الواضح أن ما يعرفه هؤلاء القوم فى ESF هو أن هذه الواحة تضم بدويًا مسالمًا وزوجتيه وبعض الأطفال .. لكن الحقيقة كانت أنها ملتقى محبب لرجال المقاومة .. (جمشيد) ورجاله ..

كذلك لا يمكن الآن الجدل فى حقيقة أن (جمشيد) هو الحاكم الفعلى لهذا العالم السفلى المتشابك الرهيب .. إنه عقل على جسد ليس واهنًا تمامًا بينما رجاله عضلات ..

لكن ما يضايقنى الآن هو أن الرجل لا ينصت لنا على الإطلاق ..

قلت له بعد قليل :

ـ « (جمشيد) .. هل تسمعنى ؟ »

قال دون أن ينظر لى :

ـ « كلمات .. كلمات .. سمعنا منها الكثير فلم أعد أبالى بها .. ما الفارق بين أن تكون من هنا أو هناك ؟ ما المطلوب منى بالضبط ؟ »

وهو ما يقول بوضوح إنه لا يصدق حرفًا : نحن مجنونان أو عميلان .. وهو يميل إلى الرأى الأول لأن الجاسوس لا يكون بهذه الحماقة ..

قلت له :

ـ « النقطة الأولى هى جهازنا .. الجهاز الذى أخذوه منا فى القاعدة الأولى .. من أخذه طبيب يدعى (ستارسكى) .. »

ـ « أعرفه .. »

ـ « النقطة الثانية هى ما معنى هذا الذى يحدث ؟؟ سواء صدقتنا أم لم تصدق ، فنحن لا نعرف البتة كيف حدث هذا ، ولا متى وضع الهرم جوار آثار (بترا) .. من هم العظايا ؟ من هؤلاء الناس ؟ »

قال وهو ينزع النظارة :

ـ « سأحكى كل شىء .. ربما لأذكر نفسى ، سأسألكما أسئلة كثيرة بعد ما تنتهى قصتى .. »

★ ★ ★

قال (جمشيد) وهو يرشف القهوة العربية :

ـ « إنهم يحاولون إبادتنا بالكامل .. بعدما انتصروا علينا

وسادوا البر والبحر والسماء ، يحاولون أن يزيلونا من على وجه الأرض ..

ـ « فيما مضى كان هناك عالمان .. عالم الشرق وعالم الغرب .. هذا قديم جدًا .. وكان التناقض بين العالمين قويًا جدًا برغم المحاولات العديدة لتقريبهما ، لكن الغربيين كانوا يؤمنون بأن العالمين لن يلتقيا .. وقديمًا قال أحد أدبائهم إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبدًا .. »

كان يتكلم عن (رديار كيبلنج RUDYARD KIPLING) .. لديهم واحد منه هنا إذن ..

واصل (جمشيد) الكلام :

ـ « كانت هناك شعوب عدة فى الشرق .. العرب .. الهنود .. بالإضافة إلى بعض الشعوب الصغيرة مثل تلك الموجودة فى قلب إفريقيا وأجزاء من أستراليا .. وكان الصدام الحضارى قاسيًا وصل درجة الحروب فى أوقات ما .. المشكلة بالنسبة لنا العرب هى أن ثرواتنا كانت عظيمة ، ولم يكن الغرب ليستطيع تكوين صناعة ناجحة من دون الاعتماد علينا .. كما أن بعض دولنا ـ مثل مصر ـ تميز بموقع جغرافى غير عادى يحتم السيطرة عليه ..

« (بونابرت) الغازى الشهير قال (إن مصر أهم بلد فى العالم) .. وكان يعنى بهذا أن من يسيطر على مصر يسيطر على العالم .. كما كانت هناك دول بالغة الأهمية .. مثل الصومال التى تشكل نقطة حاكمة على ساحل إفريقيا وعلى الخليج الهندى ..

« كانوا أذكياء بارعين .. وقد طوروا علومهم بحيث استطاعوا السيطرة علينا .. كانوا يأخذون منا الثروات ليصنعوها ، ثم يبيعوها لنا بسعر باهظ .. وكان اعتمادنا عليهم كليًا ..

« النقطة الثانية هى أنهم استطاعوا أن يزيلوا الخلافات بينهم .. لم يعودوا شتى .. بل كونوا جيشًا موحدًا .. وصارت لهم تجارة واحدة واقتصاد واحد .. »

قالت (سلمى) فى حماسة :

ـ « نفس الشىء حدث فى عالمى .. لكن العرب هم من صنع هذا .. »

لم يهتم الرجل بملحوظتها وواصل الكلام :

ـ « صارت هناك الولايات الشرقية فى شرق أوروبا .. والولايات الوسطى فى غرب أوروبا ووسطها .. ثم الولايات الغربية عبر المحيط .. هذه الدولة الكبرى ذات الموارد غير المحدودة اسمها (إمبيريا) ..

« لكننا فى زمن التكتلات هذا ازدادت خلافاتنا ومشاكلنا .. كلما تقاربوا هم تباعدنا نحن .. تكالبنا على مصالحنا الشخصية الضيقة .. غرقنا فى الشعارات والشعر .. ومن حين لآخر يقول قائل : فلنكف عن الخطب .. حان وقت العمل .. ثم تتحول كلماته هذه إلى خطبة جديدة .. ولم نستطع الإتفاق على شىء واحد حتى كدنا نختلف حول ما إذا كنا فى النهار أم الليل .. والنتيجة هى إننا تلاشينا .. فجأة لم نعد قوة لها حساب .. وصاروا قادرين على أن يعملوا بنا ما يريدون .. بدءوا بالبلد (أ) وقالوا إن هذا لمصلحتنا .. فتناسينا الأمر .. ثم انتقلوا إلى البلد (ج) زاعمين أن هذا ضرورى .. ثم جاء دور البلد (د) .. أنتم تعرفون قصة الثيران الثلاثة الشهيرة التى (أكلت يوم أكل الثور الأبيض) .. الآن لم يبق منا إلا بلد واحد على الساحل الغربى لشمال إفريقيا .. وهم لا ينوون تضييع الوقت .. إن دوره قادم حتمًا ..

ـ « المشكلة الأخطر هى أن ثرواتنا انتهت .. نفدت .. وهكذا انصرفوا عنا .. حتى الاحتلال حمل عصاه ورحل تاركًا بعض المعسكرات المتناثرة .. فى الماضى كانوا يصدرون لنا الطائرات والسيارات والأجهزة الإلكترونية .. أما الآن فلم يعد لدينا ما نعطيه .. بالتالى لم يعد لديهم ما يقدمون .. وبالتدريج لم

يعد لدينا دواء ولا كساء ولا أى شىء .. يسهل تصور هذا إذا تذكرت أنهم يصنعون القلم الرصاص ذاته ..

« هنا وجد هؤلاء القوم أنفسهم فى مشكلة .. إن الشعوب التى نفدت ثرواتها أو لم تعد لها أهمية ما ، تشكل خطرًا دائمًا .. إنها غاضبة جوعى والجائع الغاضب يفعل أى شىء ..

« لم يكن الغربيون ممن يهتمون بالحياة البشرية إلى هذا الحد .. إن إبادة الهنود الحمر بالرصاص أو التجويع أو حتى البطاطين الملوثة بالجدرى لأمر لا ينكره التاريخ .. وقد جاء الدور علينا .. لا بد من استئصال الشعوب التى لم يعد لها أهمية ..

« استغرقت حملات الإبادة مائة عام .. والنتيجة هى أننا كدنا نزول بالفعل .. هنا يبرز الجانب الإنسانى المنافق لهؤلاء القوم .. إنهم يبيدوننا بيد ويقدمون لنا العون بيد أخرى .. ليس الغرض هو الحفاظ على أرواحنا ولكن الحفاظ على جزء مهم من تاريخ هذه الأرض .. نحن كنز ثقافى علمى لا بد من إبقائه ..

« وهكذا تكونت الـ ESF وهى هيئة علمية شبه عسكرية ، تعمل على الحفاظ على ما تبقى من آثار تلك الشعوب التى بادت أو كادت .. ثمة متحف ـ زرتماه أمس ـ يضم ما بقى

من عينات بشرية حية أو ميتة .. هياكل .. أدوات كنا نستعملها .. إلخ .. وهم يجمعون أى عظام فى الصحراء باعتبارها كنزًا ثمينًا يزداد قيمة يومًا بعد يوم ..

« قاموا بجمع كل الآثار فى مكان واحد كما رأيتما لتسهل زيارتها وصيانتها .. وهم يطلقون لفظة (العظايا) على كل شىء يحاولون الحفاظ عليه .. بدءًا بعظام الديناصور وانتهاء بعظامنا نحن .. »

ابتلعت ريقى وقلت :

ـ « إن كلامك مخيف .. والآن أعرف الاختلاف بين الكوكبين .. ليس جوهريًا .. إنه اختلاف زمنى لا أكثر ! فقط أنتم تسبقوننا فى الأعوام ! »

سألته (سلمى) :

ـ « وأنتم ؟ ماذا تفعلون ؟ »

قال منهمكًا :

ـ « نحاول ما يفعله أى كائن آخر وما فعله الهنود من قبل .. نحاول أن نبقى .. أن نحافظ على حضارتنا .. نقاومهم .. نقاومهم بشراسة لكننا فى الحقيقة لا نحدث أكثر من بعض الخدوش فى الدبابة ..

« نحاول التشبث بهويتنا .. نحافظ على ديننا .. نحافظ على لغتنا .. على أسمائنا .. كل واحد منا يحمل اسم علم من أعلام العرب .. هكذا لا ننساهم أبدًا .. لاحظت أن طعامنا غارق فى التقاليد العربية .. حتى الأغانى لا نسمعها للمتعة ولكن لأنها تجعلنا على خطوط اتصال مفتوحة بماضينا .. نتناسل .. نعلم أطفالنا .. »

سألته (سلمى) :

ـ « هل تعتقد أنهم سينجحون فى إبادتكم ؟ »

ـ « لا أتساءل .. لقد نجحوا فعلاً !! فقط آخر معقل لنا هو ذلك القطاع فى شمال إفريقيا .. ومن الواضح أن اجتياحه قادم .. لسوف يبقى عشرات منا يمثلون ما يمثله الهنود فى أمريكا الشمالية .. مجرد أثر أنثروبولجى عالى القيمة .. ولربما يظهر بعضهم فى السينما من حين لآخر فى أدوار السحرة الهنود الذين يعرفون الأسرار كلها ! »

قلت فى غيظ :

ـ « هذا مهين حقًا يا (جمشيد) .. توضعون فى المتحف وتنظم الزيارات لرؤيتكم .. »

قال ببساطة :

ـ « من أنكر هذا ؟ لا حاجة بك إلى أن تخبرنى .. لكنك ترانى أقاتل ولسوف أموت وأنا أحمل بندقيتى .. »

ـ « هذا غير كاف .. الهنود كانوا من أبسل الشعوب وأشجعها .. وليس منهم من لم يمت وهو يقاتل .. لكنهم انقرضوا برغم هذا .. »

ابتسم فى قسوة لأنه وجد ساذجًا يهذى ، وقال :

ـ « إذن قل لى ما أفعله ولسوف أكون شاكرًا .. »

قالت (سلمى) :

ـ « يتكلم عن السلاح طبعًا .. ما هى حالة تسليحكم ؟ »

لوح بالبندقية وقال باسمًا :

ـ « هذا .. وبعض المتفجرات .. بعض الصواريخ الحرارية .. لا يوجد الكثير .. »

ـ « نعنى الأسلحة المحترمة .. ما هو وضعكم النووى ؟ »

ارتجفت للفكرة ، لكنى نظرت لها وقلت فى استخفاف :

ـ « ماذا تتوقعين ؟ هذه الأشياء تحتاج إلى قدر هائل من العلم والمال .. »

قال (جمشيد) فى جدية :

ـ « كما تقول .. لكن هنـاك كذلك القنبلة الأيونية ، وهى لا تقل خطرًا عن النووية .. هناك عالم باكستانى استطاع أن يصنع قنبلة أيونية خفيفة الوزن رخيصة الثمن ، وبحث كثيرًا عمن يموله لكن الجميع خشى الكلفة أو المسئولية .. الرجل الآن ضائع ولا يعرف أحد مكانه .. »

ثم لعق شفته السفلى الجافة وغمغم :

ـ « رحمه الله إن كان ميتًا .. اسمه كان (إسماعيل خان) .. »

هتفت (سلمى) وهى تثب على قدميها :

ـ (إسماعيل خان) لقد كان سجينًا فى المعسكر الأول .. »

* * *

10 ـ عملية ليلية ..

قلت فى ملل :

ـ « أعتقد أن كل الباكستانيين اسمهم (حشمت خان) أو (إسماعيل خان) .. هذا لا يضيف شيئًا .. »

لكن (جمشيد) كان مهتمًا بالأمر .. قال لنا فى جدية :

ـ « على قدر علمى لا يوجد فى المنطقة إلا هذا الـ (إسماعيل خان) .. »

جلس وللمرة الأولى تتفحص عيناه القويتان وجوهنا .. سألنا عن كل التفاصيل .. كان يعرف المعسكر جيدًا ، ولكنه يجهل كل شىء عمن فيه .. كانوا يطلقون عليه (مجزر ستارسكى) .. و(ستارسكى) هذا هو مدير المشروع والمسئول عنه بالكامل ..

ومن جديد عاد يسألنا عن تفاصيل زيارتنا السياحية إياها .. فلما انتهينا من سرد قصتنا ، قال لنا وهو ينهض :

ـ « ستظفران بقسط من الراحة .. إن هذا الخبر أهم شىء سمعته منذ سنين .. (إسماعيل خان) حى .. »

دخلنا إلى أحد الأكواخ حيث مارسنا تلك المتعة العظمى : خلع الحذاء .. وجاءتنا امرأة بجرة مليئة بالماء كى تغسل وجوهنا ونشرب .. ثم جلبت جرة بها لبن بارد .. لابد أنه لبن ماعز ..

قلت لـ (سلمى) وأنا أرقد على الأرض التى غطتها بعض الجلود :

ـ « لا أعرف ما هى تلك القنبلة الأيونية .. »

قالت فى ثقة وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها :

ـ « موجودة فى عالمى .. إنها شديدة الفتك .. »

قلت لها فى ضيق :

ـ « أنا أكره الدمار أينما كان .. وعلى قدر علمى لم يمتلك إنسان سلاحًا إلا وجربه .. لقد كانت الحرب العالمية قد انتهت تقريبًا لكن الأمريكان وجدوا أن (أوبنهايمر OPPENHEIMER) اخترع القنبلة الذرية فعلاً .. هكذا كان الإغراء أكبر من أن يرفض .. »

ـ « تعنى أنهم ألقوها على اليابان لمجرد أنهم يستطيعون ؟ »

ـ « هذه هى الحقيقة .. »

شردت (سلمى) وابتسمت بزاوية فمها اليسرى قائلة :

ـ « على قدر علمى لا يوجد طريقة لحفظ السلام إلا أن تملك ما يملكه خصمك .. فيما عدا هذا لا توجد أسس للسلام .. لقد عرف العرب فى عالمى هذا الدرس مبكرًا وطبقوه بعناية .. إن هذا هو توازن الرعب .. لا أعرف إن كان عندكم هذا المصطلح أم لا .. لو امتلك العرب هنا قنبلة أيونية فإنهم يستطيعون الحفاظ على حضارتهم العريقة من الانقراض .. »

ثم أضافت وهى تعتصر قبضتها :

ـ « ثم أى شىء يمكن أن يصمد أمام هذه المهانة ؟ رحلات سياحية وعروض فى نوافذ عرض ؟ اسم المشروع نفسه مهين (صندوق الأنواع المنقرضة) .. هل تقبل لنا أن نتحول إلى نوع ؟ »

الحقيقة أن كلامها لم يخل من منطق .. وتذكرت الاسم الذى اختاره (بن جوريون) فى عالمى لمشروع القنبلة الذرية الإسرائيلية : ميكرع هاكول .. عبارة عبرية معناها (قبل أن يضيع كل شىء) !

لو كان الهنود الحمر يملكون مدافع وديناميت وجيوشًا منظمة

لظلوا أحياء .. ولربما طردوا الغزاة الأوروبيين كذلك .. لقد صدقوا مقولة (إن الشجاعة تكفى) .. لكنهم لم يعرفوا أن (التكنولوجيا تقهر الشجاعة) ..

قلت وأنا أغمض عينى :

ـ « أرجو فقط أن يكون هدف هؤلاء هو التهديد لا أكثر .. »

★ ★ ★

فى المساء رأيناهم ..

كانوا عشرة من الرجال الأشداء كاملى التسليح .. لقد لفوا الكوفيات ملثمين وجوههم فبدوا شديدى المراس مرعبين .. وكانوا يرسمون على الرمال خطة كاملة لعملية الليلة ..

قلت لهم وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى :

ـ « هل آتى معكم ؟ »

قال (سلمان) وهو ينظر لى فى ثبات :

ـ « لا يا أخى .. فأنت خائف .. »

كيف عرف هذا ؟ بالطبع لو كان هو أنا .. لا بد أنه يعرف ما أشعر به .. هو كذلك خائف لكن للضرورة أحكامها ..

ودت لو بقى فترة أطول لأسأله عما إذا كان يحب القطط الصغيرة وقراءة الصحف فى الحمام ومصاب بالقرحة .. طبعًا لا مجال لأسئلة سخيفة كهذه فى هذا الوسط الذكرى القاسى شديد الخشونة .. لا بد أنه لم ير جريدة ولا حمامًا قط ..

وقال (جمشيد) الذى وقف وسط الرجال :

ـ « مهمتهم خطرة ووصفك للمكان دقيق .. إن ذهابك معهم سيعوقهم .. »

ثم نظر لهم نظرة ذات معنى وقال :

ـ أتوقع ألا يعود منهم إلا ثلاثة لو كانوا مجدودى الحظ .. لهذا أطلب منهم الاستعداد للشهادة من الآن .. لقد أبلغنا أسركم بأنكم قضيتم نحبكم ظهر اليوم .. »

دنوت منه فى خجل وقلت :

ـ « ثمة شىء آخر يهمنى .. (ستارسكى) هذا .. إن معه جهازًا فى حجم قبضة اليد .. جهازًا يشبه الآلة الحاسبة لو رأيتم واحدة .. آلة حاسبة عليها حروف وأرقام عربية .. هذا الجهاز هو مفتاح عودتنا إلى عالمنا .. لا أعرف إن كنت تصدق أم لا .. أعرف أنك لا تصدق .. لكنى راغب فعلاً فى استرداد هذا الجهاز سليمًا ..»

نظر إلى الرجال وقال :

ـ « سمعتم ما قال .. لا داعى للشرح .. لكنى أرجو أن تحاولوا استرداد هذا الجهاز .. لو اضطررتم إلى تهديد (ستارسكى) فلا بأس .. »

ثم نظر لى وسألنى :

ـ « كيف تقول (الجهاز الصغير) بالإنجليزية ؟ »

قلت فى ارتباك :

ـ « ديفايس .. أو فلنقل .. سمول أباريتص .. »

ـ « ليكن .. لا تنسوا هذه العبارة .. سمول أباريتص .. »

ثم لوح بقبضته وهتف :

ـ « أريد الباكستانى .. أقسموا على أن تأتوا به لى .. »

أقسم الرجال وتعانقوا مع (جمشيد) .. حتى أنا نالنى عناق أو اثنان برغم أنه لا دور لى فى هذه القصة ..

ثم إن الصحراء المظلمة ابتلعت الرجال ..

قال (جمشيد) وهو يجلس :

ـ « لن يعود من تبقى منهم إلا فى الصباح .. لنشرب بعض القهوة ثم نخلد إلى النوم ..»

* * *

لكن النوم مستحيل فى ليلة كهذه ..

الشعور بأنك مسئول عن حياة هؤلاء الرجال ، وأنك ربما كنت مخطئًا .. الشعور بأن كل هذا مستحيل .. لقد فررنا بنوع من السهولة من المعسكر فى المرة السابقة ولكن هذا لأنهم تصرفوا معنا بإهمال .. لكن ماذا عن إهمالهم الآن ؟

ورحت أشق بعينى المسافات ..

أرى الرجال يتسللون على المعسكر ..

يقطعون السلك الكهربى الذى يتصل بالسياج ، ثم يقطعون السلك الشائك نفسه .. يزحفون على البطون إلى الداخل .. ثمة حارس يقابلهم فيلتحمون معه بالسلاح الأبيض ..

يفتشون بين الغرف .. يلتحمون مع حراس آخرين .. الآن لم تعد هناك حاجة للسلاح الأبيض لأن بعض الطلقات انطلقت بالفعل ، ودوت صفارات إنذار ..

الآن صارت العملية أكثر قسوة .. وبدأت الطلقات تدوى .. ثم أخيرًا يدخل أحدهم السجن فيجد الشكل القابع فى الظلام .. يطلق الرصاص على القفل ليخرجه ..

مزيد من الطلقات ..

(ستارسكى) يغادر مكتبه فيجد فوهة بندقية تلتصق بصدغه .. يعود إلى المكتب شاحب اللون عاجزًا عن الكلام .. لقد فعل الكثير بالعرب من قبل ، ولو كان من يهدده الآن يعرف هذا لانتهى أمره ..

لكن من يقتاده إلى المكتب يسأله بلغة إنجليزية فظيعة :

ـ « سمول .. سمول أباريتص .. أباريتص .. سمول .. »

يفرغ كل أدراج مكتبه من أى (أباريتص) .. يضعها على المنضدة وعيناه لاتفارقان الفوهة .. يبحث المهاجم بين الأجهزة ثم يلتقط ذلك الجهاز الذى وجده مع الغربيين فى الصحراء .. يدسه فى جيبه .. ينظر له .. ثم يغادر المكتب ..

يجلس (ستارسكى) يجفف عرقه غير مصدق .. لو عرف الأحمق أنه أضاع أكبر فرصة للانتقام فى التاريخ .. الحقيقة أن (ستارسكى) أجرى على العرب تجارب تفوق ما كان (يوسف منجيل) الرهيب قد أجراه على اليهود .. تفوقها عددًا وتنوعًا .. لكن فى هذا العالم .. كما فى أى مكان آخر ـ يوجد ثمن للدم اليهودى بينما لا ثمن لأى دم آخر ..

الحقيقة هنا أن هؤلاء الرجال لم يتلقوا تعليمات بقتل (ستارسكى) إلا لو قاوم ..

المهاجمون يغادرون المعسكر وهم يطلقون النيران .. تنفجر طائرتان عموديتان كان الكل يعتمد عليهما فى مطاردة الهاربين عبر الصحراء ..

هناك من سقطوا من المهاجمين .. لكنهم جثث هامدة .. لا يمكن استجوابهم ..

واحد فقط وثب على مجموعةً من الحراس .. ثم دوى انفجار مريع وتناثرت الشظايا فى كل صوب .. لقد لغم نفسه ..

حقًا لم أستطع النوم وأنا أحلم بهذا كله ..

نظرت إلى (سلمى) فوجدتها تنعم بنوم هادئ ..

غادرت الخيمة وخرجت إلى العراء ..

كان (جمشيد) يجلس أمام جهاز صغير .. دنوت أكثر فوجدت أنه جهاز تلفزيون .. أقدم جهاز رأيته فى حياتى ، وعلى شاشته كانت أسوأ صورة رأيتها فى حياتى .. المتكلم لا يكمل جملة واحدة من دون أن تتلاشى الصورة إلى ذرات . من ثم يقوم (جمشيد) بتحريك الجهاز أو لفه .. بعد قليل تتحول الذرات إلى متكلم ..

كان الجهاز يعمل بالبطاريات الجافة .. ورأيت أن سلكًا يخرج منه علقه (جمشيد) إلى أقرب نخلة ..

جلست جواره وغمغمت :

ـ « تلفزيون .. لم أعرف أن عندكم واحدًا .. »

ـ « الأخير .. يساعدنا فى معرفة ما يدور هناك .. لكننا لانعرف أية لغة أجنبية ، لهذا نشاهد الصور فقط .. »

ـ « من عرف لغة قوم أمن شرهم .. »

ـ « هذا حق .. لكن لا يوجد معلمون هنا كما ترى .. هل تقبل تعليمنا ؟ »

كنت لا أرغب ولا أتمنى أن أظل هنا إلى هذا الحد ، لكنها فكرة لا بأس بها .. من المفيد أن تعلم هؤلاء القوم شيئًا .. إنهم عرب برغم أنهم على كوكب آخر فى مجرة أخرى !

أضاف فى شىء من الفخر :

ـ « لدينا كذلك كاميرا وشريط فيديو .. لم نستعمل هذين قط لكنهما قد يصلحان يومًا .. »

على الشاشة كان هناك مجموعة من السادة يبدو عليهم الهمّ مع الكثير من الجدية ..

قلت لـ (جمشيد) :

ـ « إنهم قلقون بصدد وجود مجموعات إرهابية فى المنطقة الغربية من الشمال الإفريقى .. »

قال ضاحكًا :

ـ « هم دائمًا قلقون .. منذ مائة عام وهم قلقون .. أحرقوا أطفالنا وقرآنا ومساجدنا وما زالوا قلقين .. يملكون الطائرات والقنابل النووية والهيدروجينية والنيوترونية والأيونية وما زالوا قلقين .. عروا نساءنا واقتحموا ديارنا وما زالوا قلقين .. لا أعرف كيف نطمئنهم على أنه لا خطر منا ! »

هزتنى كلماته فرحت أراقب الشاشة صامتًا كى لا يتهدج صوتى ..

قلت له :

ـ « يبدو أنهم ينوون تجريد حملة لتطهير هذا القطاع .. »

ـ « بالتأكيد .. كلنا يعرف هذا .. سيمرحون كثيرًا هناك ..

ثم نظر إلى الأفق وقال وهو ينهض : »

ـ « إنه الصياح .. ربما يعود رجالنا أو لا يعودون .. لكنى على كل حال سأخفى السلك الآن حتى لا تلاحظه الطائرات .. من الخير أن نختفى نحن أيضًا فلربما كانت جولة سياحية مبكرة .. ثم توقف ونظر للأفق وهتف : »

ـ « لم تعد عيناى على ما يرام .. هل ترى رجالاً هناك ؟ »

نظرت إلى حيث أشار وقلت :

ـ «نعم .. هناك رجال وأحدهم يحمل رجلاً على كتفه .. إنهم رجالك .. أعنى رجالنا .. »

* * *

11 ـ ميكرع هلكول ..

أو (قبل أن يضيع كل شىء)

كانوا قد صاروا خمسة ..

تركوا منهم خمسة هناك جثثًا هامدة .. لم يتركوهم إلا بعدما تيقنوا من أنهم جثث هامدة ، لأن تعذيب (ستارسكى) ينتزع الأسرار من حوض الاستحمام ذاته ..

لماذا لم يعذبنا حين كنا فى قبضته ؟ ثمة رأيان .. الرأى الأول يقول ما معناه (لا تتعجل رزقك .. كل شىء كان فى الطريق) .. الرأى الثانى يقول : لأننا كنا غريبين غير معتادين بالنسبة له . وكان يشعر أننا قد نفيده أكثر مما لو عذبنا وتركنا حطامًا بشريًا ..

والسؤال هنا : ماذا بقى من ذلك الباكستانى لو كان هو المطلوب ؟

أما الخبر السيئ فهو أن (سلمان) قد كان من الذين لم يعودوا قط .. ولن يعودوا أبدًا .. كتب لى و(سلمى) أن

تلقى نسختنا هنا الشهادة .. نحن اللذان لم نتبادل معه أكثر من ثلاث عبارات ..

وصلوا إلى الخيام وبسرعة تمت عملية إخلاء عاجلة ..

لم يبق إلا عدد محدود منا دخلوا إلى الخيام ، بينما ذاب أكثرهم فى الجبال .. إن الطائرات قد تصل فى أية لحظة ..

كان الباكستانى فى حالة مريعة .. تذكروا أننا لم نره فى النور قط .. بل لم نره فى الظلام .. وقد بدا لى مثل (روبنسون كروزو) بعد أعوام من محبسه .. أظفار طويلة ولحية تغطى أعلى بطنه وأسمال بالية .. لكنى رأيت عينيه فأدركت أنهما تشعان ذكاء .. إنهم لم يقضوا عليه بعد ..

كان أول سؤال سألناه له :

ـ « هل تكلمت ؟ »

قال بعربية واهنة عرجاء :

ـ « لا .. »

وهكذا هدأت النفوس قليلاً وبدأت عملية إطعام الرجل وسقى الرجل وغسل جسد الرجل وإبدال ثياب الرجل وإراحة الرجل .. طبعًا قامت (سلمى) بالجزأين الأول والثانى ، بينما وقعت الأجزاء الثلاثة الباقية على عاتقى ..

فى نهاية اليوم كان قد بدأ يبدو بشريًا لكنه ظل عاجزًا عن الوقوف .. الآن فقط أجد أنه يبدو كالعلماء وليس كالمجاذيب .. وهكذا جلسنا على الرمال فى حلقة صغيرة حول نار متقدة .. ودارت الدلة تقدم لنا القهوة العربية ..

قال له (جمشيد) وهو يقدم له بعض اللبن :

ـ « منذ متى وأنت معهم ؟ »

ـ « خمس سنوات ! »

ـ « ولماذا احتفظوا بك كل هذا ؟ »

ـ « خمنوا أن ما لدى خطير .. لكنى لم أتكلم .. لهذا كان الحل الوحيد أن يبقونى حبيسًا .. »

قال (جمشيد) وهو يعقد يديه أمام وجهه :

ـ « دعنى أقل لك إننا لم نفقد خمسة من رجالنا لأننا نحب ذلك .. نحن نعرف أنك الوحيد القادر على صنع أو اختراع القنبلة الأيونية .. ومصيرنا كله معلق بها .. »

قال الباكستانى واللبن يسيل على ذقنه :

ـ « لقد صنعتها بالفعل ! »

هنا ساد صمت رهيب .. وسقطت بعض الأقداح من الأيدى .. إذن كانت القنبلة موجودة طيلة هذه الأعوام ولا أحد يعرف ..

ـ «وهل تستطيع عمل سواها ؟ »

ـ «مستحيل ! لم يعد الزمن ذات الزمن .. قمت بتركيب آخر جزء منها وأنا فى قسم الفيزياء فى (كراتشى) قبل أن تسقط البلاد .. إنها مدفونة فى الصحراء هنا فى موضع لم أنسه قط .. لكنى فى السجن منذ خمس سنوات .. وكنت أتمنى لو خرجت وفجرتها فى قلب (إمبيريا) .. فى هؤلاء الكلاب الذين عذبونا وأهانونا .. »

ولمعت عيناه ببريق متوحش :

ـ « أتمنى أن أرى لحمهم يحترق ويذوب .. أن أسمع صرخات نسائهم .. أن .. »

هنا تدخلت أنا فى عصبية :

ـ « اسمع يا سيدى .. قبل أن تدخل فى تفاصيل .. هذه القنبلة لن تلقى على بشر .. سيتم استعمالها كورقة ضغط ! »

نظر لى متحديًا بعينيه الواهنتين وقال :

ـ «ومن أنت كى تحدد لى ؟ »

قال (جمشيد) وهو يهدئ الأمور :

ـ « هذا هو الرجل الذى لولاه لقضيت فى محبسك .. وإننى لأرجو سماع خطته قبل أن نتحرك .. »

تكورت على نفسى ودنوت أكثر من النار ، وبحثت عن (سلمى) فوجدتها تبتسم لى مشجعة .. قلت بلهجة حاسمة :

ـ «أولاً .. يجب تفجير هذه القنبلة .. هنا فى الصحراء .. »

قال (جمشيد) فى غيظ :

ـ «إذن أنت تمزح .. كل هذا الجهد كى نفجر أملنا الأخير فى الصحراء ؟ »

قلت ضاغطًا على كلماتى :

ـ «ليس هدف القنبلة التدمير بل التخويف .. لا بد من أن تصل الرسالة كاملة .. هل هناك محطات تلفزيونية هنا ؟ أعنى شبكات عالمية للأخبار ؟ »

قال (جمشيد) :

ـ « هناك شبكات عدة كلها فى المدينة الصحراوية .. إنها تبث إلى العالم الغربى أخبار العظايا .. »

ـ «وما هى قدرتكم على توصيل شريط فيديو لهم ؟ »

ـ « أعتقد أن رجالى قادرون على ذلك .. هناك صناديق بريد على كل حال .. »

ـ « إذن سيتم التفجير فى أقرب فرصة .. وسنقوم بتصويره .. أنت قلت إن هناك كاميرا .. »

قال (جمشيد) باسمًا :

ـ « لا داعى للتصوير .. ما إن يتم الانفجار حتى تلتقطه الأقمار الصناعية .. سيعج المكان برجالهم خلال ساعات .. لو أن ثعبانًا تثاءب فى هذه الصحراء لالتقطوا صورته .. »

ـ « لكنى أريد التصوير .. لن أسمح بالمجازفة أو أن يمر الانفجار دون أن يلاحظه أحد .. »

انتهيت من كلامى فاسترخيت قليلاً ، هنا قال لى (جمشيد) وهو يضحك ضحكة ذات معنى :

ـ « بالمناسبة عندى هدية لك .. »

ـ « وما هى ؟ »

كان الجهاز ناقل الجزيئات فى يده .. لم أر قط جهازًا أجمل من هذا ..

مددت يدى لكن يد (سلمى) كانت الأسرع .. لقد انتزعت

الجهاز وراحت تقلبه فى يدها فى نهم .. ضغطت زرًا صغيرًا لتتأكد من أن البطاريات بحال جيدة .. لم يخدش لحسن الحظ ، وكان من السهل أن تخترقه رصاصة ..

قالت لى فى خبث :

ـ « ما رأيك ؟ »

ـ « مثل رأيك .. لم يحدث قط أن استرددناه بهذه السهولة .. »

ـ « هل نرحل ؟ »

ـ « لا .. لابد من اتمام مهمتنا .. لكنى أوصيك به خيرًا .. أنت لا تفعلين شيئًا إلا إضاعته كأنما يدفعون لك راتبًا من أجل هذا .. »

ونظرت لـ (جمشيد) طويلاً وابتسمت .. ومن قلبى همست :

ـ « شكرًا .. »

★ ★ ★

تم التفجير فى السابعة صباحًا بعد يومين ..

كانت القنبلة تعمل جيدًا ، وكان العالم قد دفن جوارها أجهزة التحكم عن بعد اللازمة لهذا التفجير ..

ابتعدنا مسافة كافية فى تقدير العالم ـ حوالى كيلومترين ـ ثم تم الانفجار .. ولم تفارق عين (سلمى) العسة لحظة واحدة ..

حقًا كان أغرب انفجار رأيته فى حياتى .. له ذات الطابع الذى رأيته للقنابل فى هذا العالم .. الانتشار الشبيه بالسوائل ، ثم اللهب الأخضر .. لكنه انفجار ضخم مريع .. سحابة زرقاء تتصاعد لتنتشر على ارتفاع كيلومتر من سطح الأرض لكنها لا تشبه سحابة عش الغراب الشهيرة ..

كان الباكستانى فى حالة مريعة من التوتر والقلق .. إنه لم يجرب قنبلته قط وكان من السهل أن يفشل .. لهذا بكى فرحًا حين رأى الانفجار ..

توقعت أن يقول (أنا قد صرت الموت .. مدمر العالم) كما فعل (أوبنهايمر) بعد نجاح أول تجربة للقنبلة الذرية فى (لوس الأموس) على كوكبى .. لكنه لم يكن يعرف هذه الصلاة الهندية على كل حال ..

المهم أن الفيلم كان ناجحًا ..

بعد هذا عدنا إلى الأكواخ .

بدأنا بتعليق ملاءة كبيرة على الجدار لتكون خلفية محايدة للصورة ..

ثم جاء دورى ..

كنت قد كتبت الخطبة عدة مرات ، وتدربت على إلقائها .. فى النهاية صرت أحفظها عن ظهر قلب ..

جلست (سلمى) أمامى وبدأت تشغيل الكاميرا العتيقة ..

كنت أظهر بوجهى كاملاً الآن .. لو سارت الأمور كما نريد فلن نكون هنا حين يفتشون عنا ..

أشارت لى باسمة كى أبدأ الكلام فابتلعت ريقى ..

كنت أنا الوحيد الذى يمكن أن يلقى هذه الخطبة لأننى أجيد الإنجليزية .. ولأننى و(سلمى) لن نكون هنا كما قلت لك ، حين يشرع الجنود يفتشون تحت كل حجر ..

فقط عليهم ألا يعرفوا أننا كنا فى هذه القرية .. لهذا وضعنا الملاءة ..

قلت بصوت هادئ :

ـ «نعم يا سادة .. ما رأيتموه هو انفجار تجريبى للقنبلة الأيونية التى تمكنا من صنعها بمعونة بروفسير باكستانى ، الذى يدهشنى أنه كان فى قبضة د. (ستارسكى) ولم ينتزع منه أية أسرار بل وتركه يفلت من يده .. والأهم هنا أننى كنت أنا نفسى فى قبضة د. (ستارسكى) .. »

كان هذا نوعًا من (الإسفين) أدقه عمدًا .. وأنا أعرف أن حالة الهياج والذعر التى ستحدث كفيلة بسلخ الرجل حيًا ..

واصلت الكلام :

ـ « الحقيقة المخيفة يا سادة هى أن هناك أربع قنابل من ذات النوعية موجودة الآن فى مخابئ حصينة فى أربع مدن مهمة من مدنكم .. أية مدينة هى ؟ هل (لندن) ؟ (لوس انجليليس) ؟ (شيكاغو) ؟ (بوخارست) ؟ إن الحدس متروك للجميع .. لكنى أؤكد لكم أن هذه القنابل تم تركيبها بالداخل على أيدى عملائنا وبخامات محلية .. وهناك شاب مسئول عن كل قنبلة .. هذا الشاب من ذويكم ويتقاضى أجرًا على مهمته هذه .. وهو لا يعرف أى شىء عنا ولا عن القنابل الأخرى ، لكنه سينفذ مهمته بمجرد أن يتلقى إشارتنا .. والإشارة قد تكون أغنية أو أعلانًا فى التلفزيون .. قد تكون رسالة وقد تكون موعدًا محددًا .. »

ـ « والآن لنا يا سادة أن نتخيل ما سيحل بمدنكم المزدحمة لو وجدت فيها ذات المشهد الذى رأيتموه فى الصحراء .. هل تخلون مدنكم ؟ مستحيل .. لا يمكن أن تخلوا كل مدينة من مدنكم .. ولو أننى حددت المدن المستهدفة لكان الأمر سهلاً .. »

ـ « هل هذا ابتزاز ؟ نعم يا سادة .. إنه ابتزاز .. لِمَ لا وقد تعلمنا منكم النفاق والخداع وازدواج المقاييس منذ

زمن .. أنتم أبدتم قومنا وفى الوقت ذاته تنفقون المليارات من أجل الحفاظ علينا لمتاحفكم وتطلقون علينا ذلك اللفظ المهين (العظايا) .. أى أننا انقرضنا لأننا لم نتطور .. »

ـ « لقد تعلمنا الدرس كاملاً ، ومن اللحظة سيكون توازن الرعب حقيقة واقعة .. »

ـ « نحن لا نهدد الآمنين .. لا نخيف أحدًا .. فقط نحن نحمى وجودنا وحضارتنا من صياديكم .. وما نطلبه منكم بسيط جدًا .. لا تأتوا إلينا .. نحن لن نذهب إليكم ، فلا تأتوا إلينا .. إن هناك حملة يتم إعدادها لإبادة غرب القارة عما قريب (لأنكم قلقون) .. وأنا أقول لكم إن هذه الحملة لن تتم .. لأن لحظة بدئها ستكون هى إشارة التفجير للقنبلة الأولى .. ثم يتم تفجير قنبلة كل يومين ..

ـ « لا تقنطوا يا سادة .. فلا تنسوا أنكم فعلتم شيئًا مماثلاً فى اليابان منذ أعوام ولم يتحدث أحد عن الابتزاز .. كان تفكيرًا عمليًا حقن دماء جنودكم كما قلتم وقتها ..

ـ « نحن نفعل نفس الشىء فلا تكونوا خاسرين سيئين .. يجب أن تتحملوا الهزيمة بروح رياضية ..

ـ « ستظل القنابل فى مكانها ولن تعرفوا مكانها أبدًا .. ولسوف تسحبون قواتكم وفرق الدراسات إياها .. لسوف

تتعاونون مع الحكومات الجديدة التى ستنشأ فى هذه المناطق .. لسوف تمولون مشروعات التعمير وما يلزم لإنشاء دولة .. هذا نذر يسير من كل الثروات الطبيعية التى سرقتموها من هذه البلدان .. نحن لا نطلب إلا الحق فى الحياة وهو مطلب عادل .. كما أن كلامنا واضح : لا تأتوا إلينا فلن نذهب لكم ..

- «ستبحثون عنى يا سادة لكنكم لن تجدونى .. لا تتعبوا أنفسكم فى استجواب الأبرياء وتعذيبهم .. فلا أحد يعرف أين أنا .. لا أحد يعرف مكان القنابل سواى .. ودعونى أؤكد لكم أننا نعتبر تعذيب الأبرياء أو البروفسير الباكستانى خرقًا واضحًا منكم ربما يستدعى تفجير واحدة من هذه القنابل .. »

- «شكرًا يا سادة .. وأكرر : نحن لم نفعل إلا تطبيق ما تعلمناه منكم .. »

انتهى التسجيل فرحت ألهث .. العرق يغمرنى .. ونسبة الأدرينالين فى دمى تجعلنى كأنما أنا خرقة بالية .. بينما رفعت (سلمى) إبهامها بمعنى أننى كنت رائعًا ..

سألت (جمشيد) :

- «الآن هل يمكنكم توصيل الشريط إلى إحدى وكالات الأنباء ؟ »

قال فى رضا وهو يأخذه منى :

- «بالتأكيد .. سيلقيه رجالى فى صندوق بريد الآن .. »

قالت لى (سلمى) باسمة :

- « هذه فكرة لا بأس بها .. »

قلت لها :

- «كانوا سيفجرون القنبلة على سبيل الانتقام لا أكثر .. وكنا سنفقدها بثمن بخس .. بهذه الطريقة من (البلف) يشعرون بأننا أقوى من حقيقتنا .. بالإضافة إلى أن يدنا لم تتلوث بجريمة حرب مثلهم .. »

* * *

وفى نشرات المساء رأينا الصورة مرارًا وسمعت كلماتى تتردد مترجمة لعديد من اللغات ..

أما الأجمل فهو حالة الاضطراب العامة التى بدت واضحة .. مظاهرات فى الشوارع .. مشاجرات برلمانية .. فرق بحث .. وهدير الطائرات فوق رءوسنا عدة مرات خلال نصف ساعة من إذاعة الرسالة مما دلنى على أن وقت الرحيل قد حان .. لقد صرت فجأة صاحب أشهر وجه فى العالم الغربى ..

ثم أعلن المذيع أن وفدًا من (إمبيريا) قادم إلى الشرق الأوسط لدراسة إجراء مفاوضات مع بقايا العظايا .. قالها فى النشرة الأولى ثم عدل الاسم إلى (المتمردون العرب) .. وفى النشرات التالية تحول الاسم إلى (الثوار العرب) ..

هكذا ! كاد يستفزنى إلى حد أن أفجر قنبلة ثانية !

جاءت أخبار أخرى عن وقف الزحف نحو القطاع الشمالى الغربى من إفريقيا .. ستتوقف العمليات بعض الوقت حتى ينبلج الضباب .. ليس هذا خضوعًا للابتزاز - كما قالوا - لكنه حرص على سلامة مواطنيهم ..

- « إنهم خائفون لكنهم يتظاهرون باللامبالاة ! »

قالها (جمشيد) فى رضا وهو يتابع الأخبار فهززت رأسى فى فخر ..

قلت وأنا أنهض :

- « يجب أن يخافوا .. هم مهددون بفقد كل شىء .. بينما نحن - عمليًا - لن نفقد أى شىء إلا حياة لا قيمة لها .. سيظل شبح القنابل الباقية جاثمًا فوق رءوسهم لأعوام عديدة .. يجب أن يعرفوا أن الخوف لعبة يلعبها اثنان .. وأنه لا يوجد بشر بلا ثمن لأرواحهم .. أعتقد الآن أنكم فى الطريق الصحيح .. لا أعرف طوله لكنه مرهق شاق .. »

قال فى حكمة وهو يطفئ جهاز التلفزيون :

- « ليكن خمسين عامًا أو مائة .. هذا لا قيمة له فى حياة الشعوب .. أنا سأكون فى القبر خلال عام أو عامين ، لكنى سأموت راضيًا لو عرفت أن وجودنا لن يزول .. وأننا لم نعد عظايا .. »

- « العظايا انقرضت لأنها بلا عقل ولا إرادة .. لا يمكن أن نكون عظايا أبدًا إلا لو فقدنا عقولنا وإرادتنا .. »

ثم عانقته طويلاً .. كان يعرف أننا الآن راحلون ..

- « شكرًا لك يا (سالم) .. فقد ساعدتنا كثيرًا .. »

- « شكرًا لك يا (جمشيد) فقد علمتنا كثيرًا .. »

وأمسكت بيد (سلمى) على حين ضغطت هى على أزرار الجهاز بالترتيب المعروف ..

وتلاشت الصحراء من حولنا ..

* * *

الخاتمـة ..

الآن أعود لكم أنا (رفعت إسماعيل) العجوز بعد ما فرغت من قراءة هذا الخطاب ..

ما زالت عندى قصة أخيرة للأخ (سالم) هى (أرض الظلام) .. ولا أعرف لماذا لم يزرنى منذ اليوم الذى قدم لى فيه قصته (أرض أخرى) .. هل ما زال على كوكبنا أم أننا كنا مجرد مرحلة من جولته عبر الأكوان ؟

على كل حال آمل أن تكونوا قد أحببتم قصته هذه .. إنها كئيبة لكنى لا أعد بأن تكون (أرض الظلام) أقل قتامة .. قصة يكون هذا عنوانها - والمفترض أنه أكثر أجزائها بهجة وجاذبية - فكيف تكون أحداثها إذن ؟

فى الكتيب القادم أعود لكم بقصتى .. أو شهادتى عن تلك الطفلة غريبة (ماجى) التى جنت أو مستها (رونيل) السوداء ..

لقد راهنت على أننى سأجد الحل بسهولة لكنى كنت مخطئاً لأن ...

ولكن هذه قصة أخرى ..

د. رفعت إسماعيل
القاهرة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة أرض العظايا

حقًا لا يوجد
الكثير مما يُقال .. هناك
(سالم) و (سلمى) .. وهناك
أرض العظايا .. أعتقد أن
القصة أمست واضحة الآن !



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر ٢٥٠
... بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم :
أسطورة رونيل السوداء



روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

68

أسطورة أرض الظلام



د. أحمد خالد توفيق

المقدمة

كما تعرفون ، هذه هى آخر قصة عندى من قصص الأخ (سالم) و(سلمى) اللذين جاءا من أرض أخرى تشبه أرضنا فى كل شىء وتزوجا ..

معًا قرأنا (أرض أخرى) و(أرض المغول) و(أرض العظايا) .. وهى رحلات عجيبة فى عالم بلا فراعنة .. وعالم سيطر فيه المغول على كل شىء .. وعالم انقرض فيه العرب تقريبًا ؛ لأنهم لم يتطوروا .. بالترتيب ..

اليوم أحكى لكم قصة أرض الظلام كما قصها (سالم) فى أوراقه ..

هل من قصص أخرى ؟ لا أعتقد .. إن (سالم) لم يظهر قط منذ ذلك الحين ولا أحسبه سيفعل .. إنها القصة الأخيرة فعلاً ، وأرجو أن تستحق ذلك ..

بالنسبة لى أنا بخير كما تعلمون .. مشاكل بسيطة جدًا تذكرنى بالنكتة القديمة عن العجوز الذى يقول لأقاربه : أنا بخير .. لا ينقصنى إلا الصحة والسعادة والمال !

مشاكل مع عدسة العين وضغط الدم والربو والمثانة والرئتين والشرايين التاجية وشرايين المخ .. هذه مشاكل معتادة على كل حال ولا تثير قلقى ..

من حين لآخر أقوم بجولة بسيطة فى شارعنا .. لكن هذا صار مخاطرة مع كل تلك الحفر التى لا تردم أبدًا .. هناك دومًا ماسورة مجار ما أو كابل كهرباء أو ماسورة ماء .. هناك دومًا شيء يتم إصلاحه أو استبداله ، وهذا يعنى أن تحطيم عنقى وارد فى أية لحظة ..

معنى المخاطرة بركوب السيارة أننى سأظل سجينًا فيها فى الزحام عدة ساعات .. أما سيارات الأجرة فسائقوها يعانون حالة مزمنة من السادية والاحتقار لمن يمشون على أقدامهم .. لقد ابتاعوا هذه السيارات من أجل متعتهم الخاصة وللنزهة ، ومن الوقاحة أن تشير لهم كأنهم سيارات أجرة ..

هكذا أقرر أن أعود لدارى من جديد ..

ابن البواب يبتاع لى ما أريد من الخضر ، أما البقالة فأطلب ما أريد بالهاتف .. أمّ (شخص ما) التى تقوم بتنظيف الشقة تطهو لى من حين لآخر ، لكنها تنسى شعر رأسها فى الحساء أحيانًا ..

لا أفعل شيئًا ذا قيمة إلى أن تأتوا لى كى تسمعوا قصصى ..

هنا فقط أستعيد مرحى وحيويتى ، وأتلقى وعدًا بساعات من الاستمتاع ..

سأعد بعض الشيكولاته الساخنة وآتى لأجلس معكم ..

هكذا .. الآن نبدأ الكلام عن أرض الظلام ، وهى كما اعتدتم قصة لا دور لى فيها إلا بعض التصحيح اللغوى والتدخل فى النهاية برأى سخيف لا يفيد ..

هيا بنا ..

* * *

تمهيد

ها نحن ذان نرتاد الأبعاد والمسافات ..

ثقوب سود ومجرات .. سديم خلف سديم ..

متشابكى اليدين يرقص الفضاء من حولنا رقصته التى حيرت الشعراء والحالمين وعلماء الفيزياء ..

ظلام فى ظلام .. وظلام يلد نورًا .. ونور يستحيل ظلامًا ..

نحن طاقة .. لم يعد لنا وجود مادى ، وبرغم هذا أعتصر يدك فكيف ؟

أنت لى وأنا لك .. قوليها !

أنا لك وأنت لى .. هل رضيت ؟

لقد صرنا كيانًا واحدًا .. امتزجت ذراتنا .. وهذا الكيان تلاشى .. فلو لم نستعد ماديتنا قط فلربما كان هذا أفضل .. تمنت (أفروديت) أن تصير و(هرمز) كيانًا واحدًا .. وقد كان لها ما أرادت .. لقد جاء ذلك الكائن المدعو (هرمافروديت Hermaphrodite) .. لكنه كان مسخًا .. كان يجمع صفات الذكورة والأنوثة معًا ..

لكن كائننا نحن سيكون أجمل .. أعرف هذا ..

لقد فررنا من عالم العظايا .. (جمشيد) و(ستارسكى) و(إسماعيل خان) .. كل هذا العالم المتشابك المعقد قد فررنا منه بضغطة زر لنبدأ من جديد !

نبدأ من جديد !

الحلم الذى راودنى منذ نعومة أظفارى .. أن أبدأ كل شىء من جديد ..

كل الأخطاء والعثرات وزلات اللسان .. كلها لم يعد لها وجود ..

هناك فى موضع ما عالم أفضل وأروع من الذى تركناه ، وإننا لواجدوه ..

هل ترين ؟ هذه هى (الكواركات) .. أقزام خضر .. ثقوب سود .. كوكبة الدجاجة .. كوكبة القنطورس ..

ثم ثغرة هائلة فى الزمان والمكان .. ثغرة (زمكانية) إن شئت الدقة ..

سوف نعبرها ..

لا تخف .. لا تخافى ..

أنت معى ؟ أنا معك ..

فلتزأر العاصفة إذن ..

إننا نقترب يا صغيرتى ..

هل تشعر به ؟ هل تحسه ؟

لا أدرى عن أى شىء تتكلمين يا صغيرتى لكن مادمت تشعرين به فأنا مثلك ..

بالفعل أشعر به ..

إنه يقترب ..

ميلاد عصر جديد ..

فقط أغمضى عينيك ولسوف نرى ..

سوف نرى ..

★ ★ ★

الجزء الأول

أرض الظلام

أفكر أننا فى ممر الجرذان ..

حيث فقد الموتى عظامهم ..

أية ضوضاء هذه ؟

إنها الريح تحت الباب ..

« وما هذه الضوضاء الآن ؟ ماذا تفعل الريح ؟ »

لا شىء .. نعم لا شىء ..

« ألا ترى شيئًا ؟ ألا ترى شيئًا ؟

ألا تذكر شيئًا ؟ »

بلى أذكر .

هاتان لؤلؤتان ..

كانتا من قبل عينيه ..

« أحى أنت أم لست حيًا ؟ أليس فى جمجمتك شىء ؟ »

من قصيدة الأرض الخراب لـ (ت.س. إليوت)

ترجمة د. (لويس عوض)

1ـ هناك خطأ ما ..

عندما تم التجسُد كان ما رأيناه محبطًا كالعادة ..

لم يكن محبطًا .. بل كان مريعًا ..

كانت هناك غابة كثيفة من السراخس ، ومستنقع كريه الرائحة ..

السماء مدلهمة مشبعة بلون أحمر منذر بالويل ..

ثم راح شيء يُحلق حولنا .. نظرت بدقة فتبينت أنها حشرة أقرب إلى اليعاسيب .. لكنها ضخمة جدًا بحجم قطٍ مكتنز ..

قالت (سلمى) واسعة الثقافة :

ـ « هذه (ويتا) .. الحشرة التى تميز (نيوزيلندا) فى عالمى .. لكنها ليست بهذا الحجم .. »

تراجعنا مبتعدين عن هذا الكابوس الطائر .. فقط لنتورط أكثر فى المستنقع ..

فجأة دوى الزئير فارتجت قلوبنا بفعل الرعب وفعل تأثير (الدولبى) القوى .. ومن جهة أخرى جاء زئير أعلى ..

وكأنما نحن فى كابوس رأينا ذلك الوحش يرفع رأسه من بين الأشجار وهو يزأر .. ذات المشاهد التى رأيناها فى فيلم (حديقة العصر الجوراسى Jurassic park) لكنها حقيقية جدًا هذه المرة ..

الأرض ترتج ..

إن هذه هى (أرض العظايا) بالمعنى الحرفى للكلمة ..

إن هذا الوحش هو (العظاية الطاغية) أو (تيرانوسورس ركس) أما الوحش الآخر الذى يواجهه من الجهة الأخرى للمستنقع فهو .. (ستيجوسارورس) .. ليس آكل لحم إن لم تخنى الذاكرة لكنه يدوس كأى شيء ثقيل آخر ..

هنا رأينا تلك الوحوش الشيطانية الأصغر حجمًا تتواثب من جانبى الأشجار .. الطيور المفترسة السريعة (فيلوسيرابتور) ..

قالت (سلمى) :

ـ « هل جئنا هنا كى نرى فيلم (حديقة العصر الجوراسى) على الطبيعة ؟ »

- « لابد أن هذا عالم لم تنقرض فيه الديناصورات .. »

- « أعتقد أن الرحيل صار واجبًا .. هذا عالم لن يعلمنا أى شىء ولسوف يتم التهامنا خلال دقائق .. »

قلت فى شىء من السخرية وأنا أمسك بيدها :

- « هل تغيرت ؟ كنت أعرف امرأة تصر على أن تجرب كل عالم تراه حتى لو كان مليئًا بمرضى الطاعون .. »

- « لابد من بشر أولاً .. هذه نقطة البداية .. »

كانت تضغط على أزرار الجهاز :

- « 199 – ب – ثم .. »

صحت فى جنون وأنا أرى أحد هذه الوحوش السريعة الشرسة يثب علينا من أعلى كأنه شيطان :

- « ماذا تفعلين بالله عليك ؟ ربع ساعة كى ؟ »

- « صبرًا .. إن .. »

فى هذه اللحظة ارتطم ذيل السحلية المخيفة بنا فطرنا فى مياه المستنقع .. صحت فى رعب :

- « لا تدعى الجهاز يبتل ! لا يمكن أن نبقى هنا للأبد ! »

رفعت يدها لأعلى فوق مستوى الماء وراحت تضغط على الزر :

- « 18 . 18 .... »

صرخت فى هلع :

- « انتظرينى ! أنا لم أمسك بيدك بعد ! »

لا أريد أن ترحل وحدها لأجد أننى وحدى فى هذا العالم .. معاناة شنيعة لمدة خمس دقائق إلى أن يهضمنى أحد هذه الكائنات لأسهم فى عملية التطور .. لن أعيش أكثر من هذا بأى حال .. كيف استطاعت الثدييات صغيرة الحجم أن تنجو من عالم كهذا ؟ إنها لمعجزة فعلاً ..

تمسكت بساعدها بينما هى تضغط زر الإدخال ..

فى اللحظة التى وثب فيها ذات الوحش الذى أسقطنا فى الماء .. وثب علينا وكان قادمًا بسرعة وحماس ..

يقترب .. يقترب ..

ثم تلاشى المستنقع من حولنا ..

وكانت هذه أقصر فترة نقضيها فى أى عالم منذ بدأنا الرحلة ..

* * *

كان العالم (199 ـ ب ـ 18) قاتمًا كما هى العادة ..

لم يكن المنظر بهيجًا عندما تم التجسُّد ..

بالواقع لم يكن هناك منظر على الإطلاق ..

لقد كان كل شيء أسود .. لا يوجد ضوء من أى نوع ..

قدرت أن هناك خطأ ما .. وأن التجربة صارت إلى فشل ..

قلت بصوت مبحوح :

ـ « (سلمى) .. أنا أصبت بالعمى ! »

قالت بذات الصوت :

ـ « لا .. نحن فى مكان مظلم .. هذا واضح .. »

سرنى هذا ، فلو أنها قالت إنها ترى بوضوح لمت هلعًا .. لكن هذا لم يحل المشكلة .. من الوارد دومًا أن يكون الانتقال قد أعمانا معًا ..

مددت يدى أتحسس العالم من حولى .. يجب أن ألمس شيئًا .. يجب أن تصطدم يدى بشىء .. مستحيل ألا يكون هناك سوى ظلمة تليها ظلمة ..

فجأة سمعت ذلك الصوت الخشن يصيح :

ـ « من أنتما ؟؟؟؟ (نصار) ! (نصار) !! »

ثم سمعت صوت رجل يتكلم بلهجة ريفية قليلاً :

ـ « أوامرك يا (محسن) باشا .. »

ـ « من هذان ؟ وكيف مرا ؟ ألم تسمع صوت الخطوات ؟ »

بدا لى الأمر مألوفًا .. لكن هذا الظلام الدامس ..

صوت (نصار) يقول :

ـ « معذرة يا باشا .. »

تكلمت (سلمى) باعتبارها الأكبر سنًا والأسرع بديهة :

ـ « نهارك حليب يا سيدى .. »

ـ « ماذا تقولين ؟ »

ـ « أعنى صباح الخير .. »

ـ « هل أنت مخبولة ؟ »

قلت أنا وقد بدا لى الأمر مألوفًا إلى درجة تثير الغيظ :

ـ « معذرة .. كنا نبحث عن موظف هنا و ... »

ـ « ليس هنا .. والآن اخرجا ! »

سمعت صوت (نصار) يهتف :

ـ « هـذا الجهـاز فى يد المـرأة يا سـيدى .. لا أعـرف ما هـو .. »

ـ « هاته ! والآن مع السلامة ! »

هكذا شعرت بيد غليظة تقتادنى فى الظلام .. لم أدر ما يحدث ولـم أقدر على الاعتراض .. ثـم شـعرت بـأننى أجتـاز بابًـا .. وسمعت صوت (سلمى) يهمس فى إرهاق :

ـ « هل تفهم أى شىء ؟ »

قلت لها :

ـ « غرفـة رئيس المبـاحث ! هل نسـيت ؟ بدأنـا استعمال هذا الجهاز اللعين للهرب من مكتب رئيس المباحث فى كوكبى .. لقد حاصرنا بالأسـئلة ففررنـا مـن مكتبـه .. ما حدث بعد ذلك هـو أننـا نجـد نفسـينا فى غرفـة رئيس مباحث كل كوكـب نبلغه .. »

ـ « يا سلام ! ولماذا لم يحدث هذا فى أرض العظايا ولا أرض المغول ؟ ذات مرة وجدنا أننا فى الصحـراء ومـرة أخـرى وجدنـا أننا فى نيويورك ! »

ـ « أعتقـد أن هـذا يتعلق بـدوران الكوكب حـول محوره أو شىء من هذا القبيل .. هذا الكوكـب يـدور بـذات سـرعة الأرض ـ أرضى أنا ـ أو هذا هو التفسير الوحيد الذى يخطـر لـى الآن .. »

قلت لها ، وأنا أتحسس الطريق :

ـ « لكن لا أفهم .. لماذا لا أرى ؟ لماذا لا يعلقون هم ويتصرفون كأنهم يرون كل شىء ؟ »

قالت فى قلق :

ـ « ثمة احتمال لا بأس به أننا أصبنا بالعمى فعلاً ! »

كدت أجن هلعًا .. كنت أعرف أن هذه التجارب الشيطانية القائمة على الارتحال عبر الأبعاد لابد أن يكون لها أثر قاتل .. تذكر فيلم (الذبابة) لـ (كروننبرج Cronenberg) حينما امتزجت جزيئات الرجل مع جزيئات الذبابة ليكونا كائنًا واحدًا جميلاً يقىء على الطعام قبل أن يأكله ..

ـ « وماذا نفعل ؟ هل نطلب العون ؟ »

ـ « انتظر قليلاً .. يجب أن نجد تفسيرًا .. »

كنا الآن نتحسس طريقنا عبر ممرات قسم الشرطة .. يدها فى يدى ويدى الأخرى على الجدار .. لابد أن هناك دائرة منهم تحيط بنا الآن كأنهم يشاهدون فقرة فى السيرك ..

اصطدمت بيد شخص مفرودة فتراجعت على الفور ..

هنا خطر لى خاطر رهيب ..

إنه يتحسس طريقه مثلى بالضبط .. وإلا فما السبب الذى يدعو المرء إلى فرد كفه أمامه ؟ ما معنى هذا ؟ هل نحن فى كوكب كفيف ؟

الشبيه الكونى بوادى العميان فى قصة (هـ . ج . ويلز) الشهيرة ؟ إذن لماذا أصبنا نحن بالعدوى ذاتها ؟ كان يجب أن نتمتع ببصرنا وبالتالى نصير ملوكًا ؟

همست لها وأنا أتوقع أن هناك من ينصت بإمعان :

ـ « أعتقد أنهم لا يرون مثلنا ! »

ـ « يا لها من فكرة ! تذكرنى بنكتة الزوجة الأمريكية التى تنصح زوجها بأن يكف عن احتساء الخمر لأنه صار مهزوزًا ! إن الكفيف يفترض أن العالم أصيب بكارثة جعلته مظلمًا .. هناك حل أسهل هو أننا فعلاً كفيفان كخفاشين .. »

ـ « والسبب ؟ »

ـ « لا أعرف .. »

كنا نتكلم ونحن نواصل تحسس طريقنا .. سوف نحتاج إلى دهر حتى نخرج من هنا .. لماذا لا يساعدنا واحد من هؤلاء ؟

صحت بصوت عال :

ـ « من فضلك ساعدنا .. نحن لا نرى .. »

لحظات ثم شعرت بيد قوية تطبق على معصمى مع صوت يقول :

ـ « لماذا ؟ هل هناك مشكلة فى السمع ؟ »

ـ « لم نكتسب بعد هذه الحدة السمعية .. إنها تأتى مع الوقت .. »

ـ « إلى أين ترغبان الذهاب ؟ »

ـ « نريد الخروج من هنا .. »

لم يتكلم هذا الشهم ، لكنه شرع يجذبنى وراءه وأنا أجذب (سلمى) .. أشعر بأننا نمشى فى ممر طويل مزدحم خانق الرائحة مزدحم بالأنفاس والعرق .. ثم نهبط درجات مهدمة خربة .. ثم ممر آخر .. أعرف هذه الرائحة (الحكومية) التى هى مزيج من الأثاث القديم والعرق والبنايات الخربة وأكوام الملفات والفئران ورائحة دورة مياه لم يتم إصلاحها منذ قرون ..

فجأة شممت رائحة الهواء الطلق .. إننا فى الخارج فعلاً ..

السواد فى كل مكان من حولى .. أشعر بأننى أختنق .. أريد ضوءًا .. ضوءًا واحدًا ..

قلت لـ (سلمى) :

ـ « نحن فى ورطة .. والألعن أننا لا نملك الجهاز .. إنه مع هذا الضابط .. ربما نعود ونتوسل إليه أو نقنعه بحيلة ما ، لكن لابد أولاً من أن نرى .. »

ـ « لا تأمل فى هذا .. »

ثم فكرت قليلاً ، وأضافت :

ـ « ربما كان علينا أن نجد مستشفى أو عيادة طبيب .. لابد أن هناك تفسيرًا لما أصابنا .. »

رحنا نتحسس طريقنا بعض الوقت مستندين إلى جدار رطب مهدم .. هذا ليس عدلاً .. لابد من فترة راحة ما بين العالمين .. لم أكن قط ممن يسافرون إلى بلد جديد فيضعون حقائبهم ثم يصيحون : هيا بنا نقم بجولة !

كلا .. لابد من أن أستريح قليلاً وأستجمع ذاتى .. لابد من فترة تصفو فيها أفكارى وأعرف من أنا .. لا تطالبنى بأن آتى من أرض العظايا لأجد نفسى فورًا فى هذا العالم أتحسس طريقى فى الشوارع ..

وهنا لاحظت شيئًا ..

ملت على (سلمى) هامسًا :

ـ « ألم تلحظى أننا لم نسمع أى محرك سيارة ؟ لم نسمع أى بوق ؟ هذا غير معتاد فى القاهرة ما لم تكن هذه قاهرة لم تعرف السيارة بعد ! »

* * *

2ـ فحص عيون ..

نتحسس طريقنا فى الشارع ..

سألت أحد المارة عن أقرب مستشفى ، فلم يتطوع بأن يقتادنا .. لم يعرض أى شىء .. فقط قال لى فى لهجة عملية :

ـ « هناك واحدة على بعد خمسين مترًا .. ثم يمين .. يسار فى يمين .. »

معلومات قيمة فعلاً ..

كان الأمل معدومًا فى أن نجد من يحل مشكلتنا هناك .. هل تصارح طبيب العيون بأنك كنت فى تجربة انتقال عن بعد ، وأن جزيئاتك تبخرت ثم تجمعت فى مكان ما ؟ وأن السبب فى فقدان البصر على الأرجح خطأ فى استعادة الشبكية ؟ طبعًا مستحيل ..

الأمل الوحيد الحقيقى بالنسبة لى هو أن يكون هذا عمى مؤقتًا .. ربما تعرضنا لإضاءة زائدة أو أشعة كونية ما أدت لهذا العمى المؤقت .. اعتدت فى طفولتى أن أنام عندما أكتشف خللاً

ما فى جسدى ، وكنت أفيق لأجده قد اختفى على الأرجح .. ليت هذا صحيح ..

- « المستشفى هنا ! المستشفى هنا ! »

يدوى الصوت عبر مكبرات الصوت ..

شىء غريب ! لو كنت أرى لتبادلت النظر مع (سلمى) .. لم أسمع قط عن مستشفى يتم النداء عليه فى مكبر الصوت كأنها طماطم فى سوق .. غريب هذا الحماس ..

لكن برغم هذا شعرت بامتنان شديد لصاحب هذه الفكرة .. بهذه الطريقة يمكننا أن ندنو .. لقد فقدنا أشياء كثيرة ليس من بينها حاسة تحديد اتجاه الصوت ..

- « المستشفى هنا ! المستشفى هنا ! »

هناك إفريز عال .. من الوارد جدًا أن تنزل من عليه لتطيرنا سيارة مسرعة برغم أننى لا أسمع صوت أى محرك .. لهذا طلبت من أحد المارة أن يساعدنا على الاقتراب من الصوت ..

قال فى دهشة :

- « يبدو أن سمعكما ليس على ما يرام .. »

- « نخشى السيارات المندفعة .. »

قال فى سخرية :

- « ليت الأمر كذلك .. »

نقترب من الصوت أكثر فأكثر ، حتى صار من الممكن أن تسمع صوت المتكلم من دون مكبر الصوت .. ثمة حقيقة فيزيائية لا أذكر تفسيرها تقضى بأن من يسمعون صوت المطرب خارجًا من المذياع يسمعونه أسرع ممن هم فى ذات القاعة معه .. أعتقد أن الأمر يتعلق بسرعة الموجات الكهرومغناطيسية وسرعة الصوت .. على كل حال نحن نسمع صوت المتكلم فى الميكروفون فيخيل لنا أن صدى صوته يسبقه ..

قلت لمن أتوهم أنه أمامى :

- « هل هذا هو مدخل المستشفى ؟ »

قال دون أن يبعد مكبر الصوت عن فمه :

- « نعم .. الاستقبال فى نهاية الممر .. »

- « هل تعرف أين قسم أمراض العين ؟ »

ـ « لا يوجد عندنا .. إن أمراض العين جزء من قسم الجراحة العامة ! »

هكذا دخلنا إلى ذلك الممر الطويل .. وفى نهايته كما بدا لنا سمعنا صوت ممرضة تسألنا عما نريد .. كانت تلوك قطعة من اللادن وترمقنا فى استمتاع .. صوتها يدل على أنها ترمقنا فى استمتاع ..

ـ « نحن مصابان بالعمى .. »

عادت تسألنا بلهجة روتينية :

ـ « آلام فى العين ؟ أورام ؟ »

ـ « لا نعرف .. فقط نريد أن يتم فحصنا .. »

كنت أسمع صوت طبيبة شابة تملى تشخيصها فى مكان ما :

ـ « كساح .. كساح .. هذه الحالة كذلك كساح .. التهاب رئوى .. »

ثم جاء صوت الممرضة الأولى :

ـ « هنا حالتان يا د. (هالة) .. يريدان من يفحصهما .. »

شممت رائحة عطرية نفاذة .. يد باردة لكن من الواضح أنها يد أنثى تتحسس وجهى .. تتسلق ملامحى ببطء حتى وصلت إلى عينى .. إنها تضغط .. تغرس أظفارها فى كرة عينى والجفنين .. ثم تضغط بقوة على المحجر بظفر الإبهام .. هذا مؤلم !

صحت محتجًا :

ـ « هذا مؤلم ! »

لكنها لم تعلق .. ويبدو أنها تركتنى لتتولى ذات الأمر مع (سلمى) .. سمعت (سلمى) تصيح فى ألم .. ثم سمعتها تقول :

ـ « لا مشاكل .. إنها تلك المشكلة المعتادة لمن يأبى التصديق .. أعطيهما بعض المسكنات .. »

صحت فى غيظ :

ـ « هل هذا فحص عيون ؟ لسنا بصدد تحسس بطيخة إن كانت ناضجة أم لا .. أقول لك إننا فقدنا البصر.. »

ـ « وأنا أقول لك إنكما بخير .. أنت لن تعلمنى مهنتى .. »

وسرعان ما توارت .. أعنى أن صوتها تلاشى ..

قالت (سلمى) وقد تسارع تنفسها كأنها موشكة على الإصابة بالهستيريا :

ـ « هذا لا يطاق .. نحن فى مأزق حقيقى .. مكفوفان فى عالم غريب لا يبالى بنا .. وهم مخابيل كذلك .. العالم الذى يفحص العين عن طريق تحسسها كأنها كبد أو طحال هو عالم مخبول .. »

قلت لها :

ـ « لاحظى أننا لم نعرف بعد نقطة الاختلاف عن عالمنا .. هل لأن هذا العالم بلا سيارات ؟ هل لأنهم مخابيل ؟ هل؟ »

كنت قد كونت استنتاجًا رهيبًا لكنى لم أصرح به لأحد .. حتى لنفسى ..

* * *

3ـ جائعان ..

من جديد نتحسس طريقنا فى الشارع ..

الآن أشعر بهذا التقلص المألوف فى معدتى .. إننى جائع ! لابد أن (سلمى) تشعر بالشىء ذاته .. آخر وجبة تناولناها كانت فى الصحراء مع (جمشيد) فى بعد آخر حول شمس أخرى .. فترة أطول من اللازم ..

سألتها فى قلق :

ـ « هل تعتقدين أننا فى الليل أم النهار ؟ »

ـ « أعتقد أننا فى الليل لم أشعر بأشعة الشمس الحارقة قط .. فى الواقع الطقس بارد فعلاً .. »

نعم .. البرد .. الإحساس الرئيس منذ جئنا هنا ..

ـ « والآن أنا جائع فماذا نأكل وكيف ؟ »

قالت وصوتها يبتسم :

ـ « أنت تعرف أننى أخفى بعض أوراق العملة معى فى كل مكان نقصده .. لدى عملات مصرية وعملات من كوكبى وعملات من أرض المغول .. سوف نجرب .. »

ـ « طبعًا سوف نصطدم ببائع يقول لنا إن هذه عملات مزيفة لا وجود لها .. »

ـ « كما يحدث فى كل كوكب نقصده .. لكن دعنا نجرب .. »

كنا الآن نشم رائحة طعام .. رائحة كبد محمرة أو لحم مشوى .. لا يهم .. لقد صرنا جائعين إلى حد أن تمييز الرائحة صار عسيرًا .. هذه رائحة طعام وكفى .. أى إننا ـ بلا فخر ـ تحولنا إلى ضبعين جائعين ..

وكأى ضبعين يحترمان نفسيهما ، مشينا وراء الرائحة .. فلم يبق إلا أن نبصبص بذيلينا ..

الرائحة تتزايد .. تتزايد ..

الآن هى أشد ما يكون .. هناك مروحة موجهة نحونا لا تكف عن ضخ هذه الرائحة الشهية .. الواقع أنها أقوى من اللازم حتى إننا وجدنا أننا غارقان فى الدخان .. سعلنا .. سعلنا حتى كدنا نبصق رئتينا ..

سمعت صوت من يقول بلهجة فظة :

ـ « كم شطيرة ؟ »

ـ « أربعًا .. »

ـ « خمسة جنيهات .. »

على الأقل هم هنا يتكلمون بلغة الجنيه .. وسعر خمسة جنيهات لأربع شطائر ليس بالسعر السيئ .. ربما كان هذا الكوكب يشبهنا فى هذه النقطة على الأقل ..

ومددت يدى المتعثرة بورقة مالية كبيرة الحجم .. استغرق البائع وقتًا أطول من اللازم حتى جذبها من يدى .. ثم سمعته يقول فى دهشة :

ـ « مائة جنيه ؟ ألا تجد معك بعض الفكّة ؟ »

ـ « نعم .. ليس معى غيرها .. »

ثم ملت على (سلمى) لأهمس :

ـ « هل كنت تحتفظين بمائة جنيه معك بين الأبعاد ؟ »

ـ « لا أعتقد أنه كان معى هذا المبلغ .. إنها تنويعات من العملات بين عشرة جنيهات وخمسة وجنيه .. »

ـ « إذن كيف اعتقد أنها مائة جنيه ؟ »

ـ « الاختلافات بين الكوكبين .. لعلهم يطلقون على عشرة الجنيهات اسم (مائة جنيه) هنا .. »

رائحة الطعام قوية جدًا جدًا .. أقوى رائحة شممتها فى حياتى ..

شعرت فى يدى بالرجل يدس العملات الورقية .. أوراق طوى بعضها بالطول وبعضها بالعرض وبعضها مثنى على طريقة (أذن الكلب Dog ear) الشهيرة ..

ـ « معك خمسة وتسعون جنيهًا .. »

ثم شعرت فى يدى بلفافة ساخنة واضح أنها دسمة .. ثقل مطمئن يعدك بساعات من الشبع ..

ابتعدت مع (سلمى) إلى أن اصطدمنا بجدار . هكذا جلسنا جواره فى بساطة كالمتسولين ، وفتحت اللفافة .. ناولتها شطيرتين ساخنتين وتحسست شطيرتى .. إن بها مزيجًا غريبًا من قطع اللحم .. لحم خشن ولحم ناعم .. لحم زلق ولحم قاس ..

هتفت (سلمى) فى دهشة :

ـ « ما هذا ؟ »

ـ « أعتقد أنه لحم رأس .. فى هذه الحالة تكون الشطيرة خليطًا من لحوم عدة .. »

فى تقزز هتفت :

ـ « أنا لا آكل هذه الأشياء ! »

ـ « سوف تحبينها .. أنا أحبها وبالتالى أعرف أنك ستحبينها .. تذكرى أننا لا نملك ترف التقزز .. فقط أرجو ألا يكون هذا الكوكب من أكلة لحم البشر .. »

ـ « الله يقرفك ! »

قضمت قضمة كبيرة ، ثم قلت بفم ملىء :

ـ « هل رأيت كيف يصنف النقود عن طريق ثنى أوراقها ؟ فى فيلم (المتهور daredevil) الذى كان سلسلة (كوميكس) أمريكية ناجحة ، كان البطل كفيفًا ؛ لذا كان يطوى العملات بهذه الطريقة ليعرفها بمجرد اللمس .. هكذا كان يميز المائة دولار من العشرة دولارات .. إلخ .. نفس الشىء يكرره الرجل هنا .. هل تعرفين لماذا أعتقد أننا أعطيناه مائة جنيه ؟ لأن الورقة كانت مفرودة .. هذه هى علامة المائة جنيه .. »

ـ « ماذا تعنى ؟ »

ـ « أعنى ما فهمته .. هذا البائع كفيف ! »

ـ « ولكن .. »

قلت فى استمتاع :

ـ « ليس هذا فحسب .. أكره أن أكون عبقريًا طيلة الوقت ، لكنها الحقيقة .. كل شىء يدل على أن هذا الكوكب يعج بالمكفوفين ! »

* * *

4 ـ أرض العميان ..

فى الساعة التالية رحنا نناقش أبعاد هذا الاستنتاج الرهيب ..

كانت القصة واضحة بالنسبة لى تمامًا ..

ـ « لماذا يمشى الناس وهم يمدون أيديهم أمامهم ؟ لماذا لا يتطوّع أحد لمساعدة اثنين مكفوفين إذا كان الجميع مبصرين ؟ لماذا تنادى المستشفى معلنة عن نفسها ؟ لأن أحدًا لا يمكنه معرفة موضعها من غير صوت وهذا هو التدبير الوحيد الممكن ليعرف الجميع أين هى .. كيف يمكن فحص العيون فى مجتمع من المكفوفين ؟ لا مفر من تحسس العين بالأنامل .. بل ما أهمية هذا الفحص أصلاً ؟ »

قالت (سلمى) بصوت يدل على الذهول :

ـ « لهذا لم ينظر أحد بجدية لكلامنا عن العمى .. هنا تنحصر أمراض العيون فى الأورام والألم .. كل من قلنا له إننا لا نرى قال إننا مستجدان أو مصابان بالصمم .. لابد أن سمع هؤلاء القوم بلغ درجة عالية جدًا تتيح لهم الحركة بحرية .. »

قلت وأنا أسترجع شريط مغامرتنا :

ـ « بائع الشطائر لا سبيل ليعرف الناس مكانه إلا الرائحة .. لهذا غرقنا فى سحابة من الدخان ورائحة الطعام لأنه يعتمد على المراوح التى تنشر الرائحة .. »

ـ « ولهذا لا توجد سيارات .. كيف توجد سيارات أو طائرات فى عالم لا يرى ؟ هذه الأشياء لا توجد إلا فى السينما .. (آل باتشينو) يقود سيارته مسرعًا وهو كفيف ، و(عادل إمام) يفعل الشىء ذاته بطائرة ! »

ـ « وطريقة الأوراق المالية المطوية التى تتيح تعرفها .. »

ـ « كل شىء واضح .. »

ـ « لا .. ليس واضحًا .. ربما كان هذا عالمًا من العميان ، لكن كيف تفسر أننا أصبنا بالعدوى ؟ »

كان هذا هو السؤال المهم حقًا .. السؤال الذى يساوى ملايين الجنيهات .. الأعور فى بلاد العميان يصير ملكًا .. فلماذا لا نبصر نحن ؟

ـ « هناك احتمال وجود فيروس يسبب هذه الحالة .. »

ـ « لا توجد فيروسات تعمل بهذه السرعة .. لاحظ أننا وصلنا هنا ونحن لا نرى .. »

حقًا كان الأمر أقرب إلى لغز كبير ..

إننا فى عالم لا يرى .. عالم يعتمد على الصوت والرائحة واللمس .. ومن الواضح أن هؤلاء القوم بلغوا مكانة متقدمة فعلاً فى هذا الصدد .. من الواضح أن الحياة مستمرة بلا مشاكل ..

لكن ما زال اللغز قائمًا ..

* * *

قال لنا عابر السبيل وهو يضغط على يدى :

ـ « من هنا .. فندق صغير لكنه نظيف .. سوف تكلفكم الليلة خمسين جنيهًا .. »

ـ « لا بأس .. »

وشكرته بحرارة .. ثم جذبت (سلمى) ومضينا نشق طريقنا فى الاتجاه الذى أطلقنى نحوه .. أتعثر وأنهض .. فى عالم

العميان هذا كان من المفترض أن تكون شوارع القاهرة أكثر نعومة وأفضل رصفًا .. لكن الحفر والمطبات المعتادة كما هى ..

أمد يدى أمامى فأجد مدخلاً ..

أمشى متعثرًا .. فى نهاية الممر أصطدم بمنضدة .. لابد أن هذا موظف الاستقبال ..

طبعًا كنت قد ثنيت جنيهًا إلى نصفين متساويين .. هكذا ارتفعت قيمته بمعجزة ما لتصير خمسين جنيهًا .. هذا غش لا شك فيه ، لكننا مضطران أولاً ، ثانيًا أنا أغش كائنات فضائية فى مجرات أخرى ! لا يمكن أن يكون الحافز الأخلاقى ملتهبًا لهذا الحد !

قال لى الموظف ذو الصوت الغليظ :

ـ « لدى غرفة تناسبكما .. إنها مريحة ورائحتها طيبة .. »

طبعًا .. فى عالم كهذا لا يكون للجمال معنى .. الراحة والرائحة هما الأهم ..

ـ « لكنى أريد توقيعك ! »

ما معنى هذا ؟ ماذا يمكن أن يفعل بالتوقيع ؟

فهمت الأمر عندما شعرت به يمسك برأسى .. يلصق بأذنى شيئًا لزجًا باردًا .. ثم يقول :

ـ « شكرًا ! »

إنه قد أخذ طبعة من صوان أذنى على الصلصال .. طريقة لا بأس بها .. طبعًا لا لزوم للبصمات هنا ؛ لذا أخذ طبعة مجسمة من أذنى وبالتالى يمكنه أن يتحسسها متى أراد ليعرف إن كنت أنا ..

الظلام .. الغرفة باردة بشدة .. أعرف من صوت الصدى أنها ثلاثة أمتار فى أربعة ..

تمشى (سلمى) فى الظلام إلى أن تلمس الباب فتغلقه .. لا تتعبى نفسك .. فلو كان أحدهم متواريًا فى الغرفة فقد حبسناه معنا !

تقول وهى تلهث :

ـ « أين الفراش ؟ سأموت إن لم أنم بضع ساعات .. »

قلت وأنا أخفف من ثيابى :

ـ « سيكون نومًا شنيعًا .. كيف يكون نوم لا تفيقين منه لترى النور ؟ ظلام فى ظلام .. أن ينام المرء ويصحو فيجد الظلام ما زال مطبقًا على الكون .. هذا كابوس .. »

قالت وهى تتنهد بصوت عال :

ـ « سوف نصحو من نومنا لنجد أن الظلام ما زال مستمرًا .. هذا شنيع فعلاً لكننا سنعتاده .. »

وتحسست المكان حتى وجدت الفراش فرقدت عليه .. الحمد لله أن البرد شديد .. لو أضيف الحر لهذا لاختنقت فعلاً ..

(سلمى) ترقد على الفراش جوارى فينن من ثقلها ..

تقول هامسة :

ـ « لا أصدق أننا فقدنا نعمة البصر بهذه البساطة .. »

ـ « أنا كذلك .. يخيل لى أننا سننام ونصحو لنجد أننا فى ضوء النهار .. »

ـ « ليت الأمر كذلك .. »

ـ « كانت تذكرة المغادرة معنا لكن ذلك الضابط انتزعها .. »

ـ « سوف نستردها .. سوف نذهب إليه غدًا ونتوسل إليه .. سأقول له إن الجهاز مخصص لتنظيم ضربات القلب وإننى سأموت لو لم أسترده .. ذات الحيلة القديمة .. »

هنا دوى صوت يقول فى الظلام :

ـ « هذا كل شىء يا سيدى ! هل ترغب فى بعض التبغ لتمضغه ؟ »

وثبنا مترين فى الهواء .. وحينما استعدت روعى صحت :

ـ « من .. من أنت ؟ »

جاء الصوت فى الظلام :

ـ « أنا خادم الغرف يا سيدى .. كنت أنظف دورة المياه الملحقة !! »

كما توقعت من قبل .. يمكن أن يكون هناك ستة معنا فى الغرفة ونحن لا نعرف !

صحت فى غلظة :

ـ « لا أريد أى شىء . والآن انصرف ! »

ونهضت أتحسس طريقى نحو الباب ومددت يدى أفتح المزلاج .. وبعد ثوان شعرت بذلك الجسد يعبر الفرجة خارجًا .. هذه المرة لم أغلق الباب إلا بعدما تأكدت من أنه لا يوجد آخرون .. ربما أجد الجيش الصينى فى الشرفة هذه المرة ..

عدت للفراش وتمددت عليه .. كانت (سلمى) تهتز من الضحك حتى تقطعت أنفاسها .. فقلت مغضبًا :

ـ « لا أرى ما يضحك فى هذا كله .. نحن من دون بصر هشّان تمامًا .. شديدا الضعف .. إنه العرى الحقيقى وليس عرى فقدان الثياب .. لأسباب تتعلق بالهشاشة لم يأكل (طه حسين) أمام أحد فى حياته قط ، ولم يغادر (أبو العلاء المعرى) داره .. »

قالت وهى تكتم ضحكاتها :

ـ « هل لاحظت ما قال ؟ هنا يمضغون التبغ ! »

ـ « وما فى ذلك ؟ كان لى جد يمضغ التبغ طيلة الوقت .. كل البحارة يفعلون ذلك .. لا أعنى أن جدى كان بحارًا .. »

ـ « لماذا لم نشم دخان لفافة تبغ منذ جئنا ؟ »

ـ « لأن هذا الكوكب يمضغ أهله التبغ .. هلاّ كففت عن التذاكى ونمت ؟ إننى مرهق بحق .. »

وكنت أتمنى أن أطفئ النور كطقس لا تنتهى الليلة من دونه .. لكن لا نور هنالك .. هذا يجعل الفارق بين الصحو والنوم باهتًا غير واضح ..

لكن للإرهاق قوانينه على كل حال ..

فقط وأنا أغادر عالم الأحياء إلى عالم الموت الأصغر سمعت (سلمى) تهمس مفكرة :

ـ « لا رائحة تبغ فى أى مكان .. »

* * *

5ـ فى الشرفة ..

صباح أسود ..

هكذا يمكن تلخيص الموقف ..

تفتح عينيك على ما أغمضتهما عليه .. واللون الأسود الكريه فى كل مكان ..

كانت (هيلين كيلر Keller) الكاتبة الأمريكية الصماء البكماء العمياء تقول ـ بعدما تعلمت النطق ـ إن أهم الحواس هى السمع .. السبب أننا فى الظلام نصاب بالهلع لو لم نسمع صوتًا مألوفًا ..

الآن أفهم هذه الكلمات ..

لو لم أسمع (سلمى) بجوارى تقول (نهارك حليب) لجننت ..

كيف عرفنا أن هذا نهار ؟ لا يوجد أى دليل .. فقط هى الساعة البيولوجية فينا تخبرنا بذلك .. وهى ساعة لا يمكن أن تثق بها على كل حال بعد كل هذا السفر .. جرب السفر إلى

أستراليا ثم تكلم عن دقة هذه الساعة .. إن ما يدعى (تأخير النفاثات Jet lag) يجعلك عاجزًا عن تقدير الوقت الصحيح تمامًا ، فما بالك برحلة بين المجرات ؟

فجأة سمعنا ذلك الدوى ، وارتجت الحجرة عدة مرات ..

* * *

صاحت فى ذعر :

ـ « ما هذا ؟ »

قلت وأنا أثب من الفراش :

ـ « أعتقد أنها الحرب .. هذا العالم يجتاز حربًا .. »

ـ « حرب بين عميان ؟ سيكون هذا مسليًا.. »

وهرعنا ملهوفين نتحسس طريقنا إلى ما شعرت بأنه الشرفة .. نعم هى شرفة .. هناك شيش ومزلاج مددت يدى أفتحهما .. وقلت لها فى توتر :

ـ « بعض الشرفات يكون لا وجود لها . لا تخطَى إلى الداخل فنحن لا نعرف أى شىء على الإطلاق .. »

هنا دوى الانفجار من جديد .. شعور كأن الحجارة ترتطم ببعضها فى أجواز السماء .. يمكن القول إنه رعد وإن كنت غير واثق ..

وقفنا معًا .. نشعر بالهواء البارد يضرب وجهينا .. لا نرى أى شىء آخر ..

نرفع رأسينا نحو ما اعتدنا أنه السماء ..

فجأة رأيته ..

ذلك اللسان الأبيض البراق يشق السماء السوداء .. يتحرك كأنه مخلب عملاق متجهًا إلى الأرض وفى هذه المرة رأيت القاهرة .. القاهرة تتوهج فى ضوء البرق .. الضوء الأزرق البارد المعقم يرسم ظلالاً طويلة على كل شىء .. مع ذلك التأثير (الستروبوسكوبى stroboscopic) المعروف .. عندما يتوهج الضوء لفترة قصيرة تبدو الأجسام المتحركة ساكنة ..

هذه هى القاهرة كما عرفتها وكما تراها من قمة (المقطم) .. البنايات .. المآذن .. الشوارع .. كل شىء كما هو ..

كنا نقف فى شرفة عادية جدًا تطل على شارع مزدحم ..

ومن جديد ساد الظلام ..

قلت لها همسًا :

ـ « إنه البرق فعلاً .. »

ـ « وهل نحن فى النهار أم الليل ؟ »

ـ « لا أعرف .. »

هنا جاء الدوى والارتطام .. البرق ثم الرعد كما تعلمنا منذ عرفنا كيف ننطق الكلمتين .. عد المسافة بين البرق والرعد لتعرف إن كانت العاصفة قادمة أم تبتعد .. لو ازداد العد فى كل مرة فالعاصفة تبتعد ..

من جديد هوى لسان آخر من ذات الموضع ليضرب ذات البقعة السابقة ..

هذا غير معقول ! هذا خطأ .. البرق لا يضرب ذات المكان مرتين أبدًا .. هذه قاعدة أخرى تعلمناها فى صغرنا ..

حتى على أرضنا تغير العالم كثيرًا جدًا .. كنا نرى البرق ونسمع الرعد ونرى قوس القزح فى طفولتنا كثيرًا .. أعتقد أننى لم أر هذه الظواهر منذ ثلاثين عامًا .. أعتقد أن الشباب لم يروا هذه الأشياء قط .. وماذا عن الهداهد ؟ الهداهد الجميلة التى كنت أراها فوق الأشجار فى طريقى للمدرسة ؟

لم تعد الطبيعة طبيعة كما كانت ..

لكن هذا البرق غريب الأطوار .. لقد رأيت بقعة من النار تتوهج فى آخر بقعة نزل فيها .. هذا حريق .. البرق الذى ينزل فى الموضع ذاته مرتين قادر على أن يحرق .. هذا منطقى ..

لكن النار خبت سريعًا .. لا أعرف السبب لكنى رأيتها تزول ..

ومن جديد ساد الظلام ..

همست (سلمى) فى انفعال :

ـ « لا أفهم ما رأيناه لكن هناك شيئًا واحدًا فائق الأهمية .. نحن لسنا مكفوفين ! »

فطنت للحقيقة فنظرت لها فى الظلام .. لا أراها ولا ترانى لكنها تعرف يقينًا أننى أنظر لها ..

قلت فى ذهول :

ـ « هذا حقيقى .. وهذا معناه .. »

ـ « معناه أن هذا عالم مبصر .. لكنه عالم بلا ضوء ! »

★ ★ ★

6 ـ قبس ضوء ..

أعتقد أننا كنا الآن فى لوبى الفندق .. لا أعرف بالضبط .. فقط هو مكان صاخب .. أرجو ألا يكون غرفتنا وقد دخلها 76 واحدًا ..

قلت لـ (سلمى) ونحن نتحسس طريقنا فى الظلام :

ـ « لابد من شخص يجيب عن أسئلتنا .. إن الأسئلة كثيرة بحق .. »

ـ « لا تعتمد على هذا .. من تسأله سيعتبرنا مجنونين لا أكثر .. أن تسأل هنا عن الظلام كمن يسأل فى عالمنا عن معنى كلمة (شمس).. »

ثم فكرت قليلاً وأضافت :

ـ « هل تعرف رأيى ؟ أعتقد أن هذا الكوكب لا يعرف النار كذلك .. تذكر ما قاله خادم الغرفة عن مضغ التبغ .. لماذا ؟ لأنهم لا يعرفون كيف يُدخن .. »

ـ « احتمال وارد .. الشطائر التى أكلناها كانت ساخنة .. لو كنت تعرفين طريقة غير النار لتسخين الطعام فإننى أرجو أن تخبرينى بها .. »

ـ « كذلك لا كهرباء .. »

ثم أضافت وقد تذكرت نقطة جديدة :

ـ « لا شمس .. لهذا كان دور الطبيبة فى المستشفى يقتصر على فحص حالات الكساح .. لابد أن كل هؤلاء الأطفال الذين لم يروا الشمس قط قد تحولت عظامهم إلى مكرونة مسلوقة .. دعك من أن عالمًا بلا نور هو عالم غير محتاج إلى طب العيون أصلاً .. فقط عندما تصاب العين بالسرطان يغدو الطب ضرورة .. لهذا تم ضم أمراض العيون إلى تخصص الجراحة العامة .. »

كانت الاحتمالات تزداد قوة .. القصة تغدو منطقية ..

لكن كيف ؟ متى فقد هؤلاء النور ؟ هل من فجر التاريخ أم أن هذا حدث مؤخرًا ؟ هل هم متكيفون على الرؤية بشكل لا أعرفه ؟ ربما تبدل شىء فى عيونهم وهذا يعنى أن ملايين السنين مرت بهم فى هذا الحال ..

لا أرى حلاً سوى أن نبحث عن قسم الشرطة ونحاول الحصول على جهازنا ..

هذا العالم لا يُطاق .. لا يُطاق إلى درجة أنه مخيف ..

مددت يدى أعبث فى جيبى شاردًا . هنا اصطدمت أناملى بشىء ما ..

* * *

كنت مع (جمشيد) فى ذلك الكهف الصحراوى .. أردت أن أسخن طعامى ، فقال وهو يدس فى يدى شيئًا :

- « استعمل هذه .. لقد سرقنا بعضها منهم .. »

كانت قداحة بلاستيكية صغيرة امتلأت حتى نصفها .. لكنها كانت مصدرًا عزيزًا للنار فى هذا العالم .. أشعلت بها الموقد ثم أعدتها له فقال باسمًا :

- « احتفظ بها .. نحن نسرق الكثير منها من جثث الجنود الغربيين الهالكين .. »

* * *

الآن كانت القداحة بين أناملى ..

معى قداحة يا (سلمى) .. شد ما أعتبرها كشفًا ثمينًا فى عالم الظلام هذا .. أريد أن أشعلها ..أريد أن أرى اللهب لحظة واحدة ..

أريد أن أتفحص هذه الوجوه لأرى من هى .. أعرف كيف يبدو هذا اللوبى وما هى أبعاده .. أريد لحظة واحدة ثم يعود الظلام ..

أريد أن أتأكد من أننى لست كفيفًا حقًا .. ربما كان وهج ذلك البرق قويًا إلى درجة أن المكفوف يراه .. لا أذكر أين قرأت قصة كهذه ، لكن يُقال إن ضوء بركان (فيزوف) كان من القوة بحيث بلغ شبكية العميان .. أعرف أن هذا هراء ، لكن لا أستطيع أن أمنع نفسى من التفكير فيه ..

مددت يدى إلى القداحة وداعبت الترس .. شليك .. شليك !

فى اللحظة التالية توهج الضوء ، ومن جديد تكررت الظاهرة الستروبوسكوبية إياها .. بدا لى كأن كل من رأيتهم تحولوا إلى تماثيل ..

(سلمى) تنظر للنور فى لهفة .. موظف الاستقبال يقف أمامه رجلان .. امرأة تجلس على أريكة وترضـع طفـلاً .. ثلاثـة رجـال يشربون الشاى .. الكل ينظر للهب فى ذهول ..

كان أهم ما لاحظته فى هذه الومضـة السـريعة أن هنـاك حالـة عامـة من اضطـراب الثيـاب وعـدم الهندمـة .. الرجـال منكوشـو الشعر طويلو الذقون ، والمرأة ترضع الطفل بطريقـة خاليـة مـن اللياقة فى مكان عام .. لوبى الفندق قذر جدًا ولا يمكـن أن تـرى مثله فى لوكاندات (الحسين) التى تتقاضى جنيهين فى الليلة ..

كل هذا منطقى .. عالم لا يبصر هو عالم لا يهتم البتة بمظهـره .. أعتقد أنه عالم يهتم برائحته أكثر ..

طبعًا كانت قدرة القداحة على الإضاءة محدودة .. دائرة ضيقـة جدًا من الوجوه .. لا أرى أبعد منها ..

الملاحظة الثانية هى أن النور آلمهم فعلاً ..

أنا نفسى شعرت بألم بالغ عندما لامس الضوء شبكيتى ..

ومن جديد ساد الظلام ..

هنا فقط بدأ الجحيم ..

سمعت من يصرخ :

ـ « اقبضوا عليهما ! »

ـ « متمردان ! »

ـ « كافران ! »

ـ « لقد لوثا الظلام ! »

★ ★ ★

7ـ الجريمة ..

كافران ؟ متمردان ؟ لوثا الظلام ؟

لم أعرف أننى ارتكبت كل هذه الجرائم بالجملة ، لكن أسماء التهم تدل على أن الأمر لن يقتصر على السجن .. منذ فجر التاريخ ومصير الزنادقة هو قطع الرقبة أو الحرق .. مصير المتمردين لا يختلف كثيرًا ولات حين مناص .. لا .. لن يكون هناك حرق ما دامت لا نار هنالك !

كنت قد أدركت فى هذه اللمحة السريعة مكان المدخل .. هكذا مددت يدى أعتصر ساعد (سلمى) وجريت فى ذلك الاتجاه .. كان هذا هو الوقت الذى شعرت فيه بمن يعتصرنى بين ذراعيه فى قوة .. لقد فررت إلى ذراعيه مباشرة كأننى أعشقه منذ دهور !

هكذا رفعت ركبتى وضربته فى أسفل بطنه ، فسمعت الهواء يخرج من فمه .. فى اللحظة المناسبة بالضبط لأن أحدهم أمسك بساعدى بقوة .. كل القوم هنا يمسكون بساعدك بطريقة تذكرك بالكلابات ..

لم يكن هناك وقت للمزاح ؛ لذا ضربته بجبهتى فى جبهته أعنف ضربة ممكنة جعلت مخى يرتج حيث سبح فى بحيرة السائل النخاع الشوكى .. لكن ككل ضربات (الروسية) هذه يتضرر المضروب أكثر من الضارب ولا أجد تفسيرًا فوريًا لهذه الظاهرة ..

ـ « أغلقوا الباب ! إنهما يحاولان الهرب ! »

كنت أخشى هذا ..

لكننا نتحرك بسرعة وأشم رائحة الهواء النقى .. إننا على الباب .. إننا اجتزناه فعلاً ..

فى هذه اللحظة انغلق الباب وراءنا ! لقد أغلقوه ليحبسونا بالداخل وهذه هى مزية التعامل مع عميان ..

هبطت و(سلمى) بضع درجات . بصعوبة أنقذت عنقى من أن يتحطم إذ تعثرت .. وفى النهاية وجدنا أننا فى الشارع ..

همست لها :

ـ « لن يطول الوقت .. سيخرجون للبحث عنا ، وهم أكفأ وأسرع .. يجب أن ننتظر جوار جدار ونكف عن الكلام .. »

ـ « والرائحة ؟ رائحتنا .. »

كانت رائحة طعام تهب علينا من مطعم ما ، وقدرت أنها قوية بما يكفى كى لا يشمنا أحد .. بعد كل شىء هم بشر وليسوا كلابًا بوليسية .. ما لم يكن الفص الشمى فى مخهم قد صار فى حجم قبضة يدى ..

هكذا جلسنا جوار جدار وضممتها على سبيل تقليل مساحة جسدينا ورحنا ننتظر ..

بالفعل نسمع صوت الخطوات ..

هناك من يصيح :

ـ « إنهما ليسا بالداخل .. »

واحد يسأل فى غلظة :

ـ « ماذا فعلا ؟ »

ـ « معهما نار وقد جرعوا على إشعالها ! لقد لوثا الظلام ! »

ـ « فلنخل مسئوليتنا .. يجب أن تبلغ الكهنة ! »

كانت هذه الكلمات غريبة عندما تقال بالعربية وبلهجة قاهرية .. لا يتلفظ بها أحد رجال الإرتك أو راهب بوذى .. هناك كهنة فى الموضوع ..

ـ « إن المسئولية خطيرة .. »

ـ « لذا يجب أن يتولى الأمر من هم أكثر حكمة .. »

ـ « ربما كانت الكلاب قادرة على العثور عليهما .. إن رائحتهما تملأ الغرفة .. »

ـ « معك حق .. »

يا للكارثة !

هناك كلاب بوليسية ورائحتنا تملأ الغرفة ! ما الذى فعلناه بالضبط ؟

عندما ابتعدت الأصوات أشرت لـ (سلمى) كى ننهض ونبتعد .. يجب أن نبتعد قدر الإمكان ثم نجد طريقة للفرار من تلك الكلاب الموعودة ..

نشم رائحة الطعام .. رائحة لحم محمر أو مشوى .. صحيح كيف يحصلون عليه من دون نار ؟

وقفنا أمام دخان طيب الرائحة كالذى شممناه أمس .. بالفعل تحول الأمر إلى سحابة كثيفة تحيط بنا .. صوت أشخاص يروحون ويجيئون فى الظلام ..

همست (سلمى) :

ـ « ألا يأكلون إلا اللحوم ؟ أين يمكن للمرء أن يأكل بعض الفول ؟ »

قلت لها :

ـ « لاحظى أن هذا كوكب بلا نور .. أى إنه لا نباتات هنا .. لابد أنهم يعتمدون على البروتين الحيوانى اعتماداً كاملاً .. »

ـ « وماذا تأكله الحيوانات ؟ »

حقًا كان هذا سؤالاً غامضًا .. من دون نباتات لن تدوم الحياة إلا بضعة أشهر إلى أن يتم التهام الثروة الحيوانية الباقية .. بعدها .. لا طعام .. خطر لى خاطر مخيف استعذت بالله منه .. هذا العالم لا يأكل أهله بعضهم البعض .. لا يمكن أن تكون الأمور بهذا السوء ..

وما معنى أننا لوثنا الظلام ؟ من الواضح أنهم يعتبرون الظلام كيانًا مقدسًا .. من هم هؤلاء الكهنة ؟ الحقيقة أن كل دقيقة لنا هنا تشعرنى بأن هذا الكوكب غير رحب على الإطلاق ..

قلت لها :

ـ « بينى وبينك .. لقد بدأت أعتقد بما كان يقوله الفلاسفة إن عالمنا هو أفضل العوالم المحتملة .. لقد رأينا أرضًا انقرض فيها العرب وأرضًا سيطر عليها المغول وها هى ذى أرض بلا شمس .. من الواضح أننا كنا فى جنة أرضية ولم ندرك هذا .. »

قالت كالحالمة :

ـ « صبرًا .. هناك عالم رائع فى مكان ما .. المشكلة هى أن أخطاءنا لا تصحح .. لا نستطيع العودة لعالمى أو عالمك .. أنت تعرف أن الجهاز لا يكرر ذات العالم مرتين .. الباب الذى نتركه صار محرمًا علينا .. »

ثم أردفت :

ـ « المشكلة هى أن هذا العالم مقضى عليه بالهلاك .. عالم بلا شمس هو عالم منته .. لكن إلى أى حد ؟ هل تأقلم هؤلاء القوم وكيف ؟ »

قلت فى قلق :

ـ « هل تعتقدين حقًا أنه عالم بلا شمس ؟ إذن لكان الجليد يكسو كل شىء .. كنا سنكون أقرب إلى كوكب (بلوتو) .. مجرد صحراء جليدية بلا حياة .. بينما نحن لا نعانى إلا بعض البرد الذى يذكرنى بالأيام الباردة فى شهر (طوبة) فى عالمى .. ليست هذه هى فكرتى عن انعدام الشمس .. قد يكون هذا عالمًا بلا نور لكنه بالتأكيد ليس عالمًا بلا شمس .. »

الحقيقة أن الألغاز تزداد كثافة .. فى مكان ما توجد الإجابة لكن أين ؟ وما هى ؟

* * *

8 ـ الكلاب ..

كان بائع الصحف ينادى بصوت عال على بضاعته :

ـ « اقرأ الأخبار .. آخر تصريحات القومندان .. إعدام خمسة من النورانيين ! »

فى عالمى هناك مدارس صوفية تحمل ذات الاسم ، كما أن هناك منظمة سرية شريرة ذات طابع يهودى هى (النورانية) ، يقال إن إبليس شخصيًا يرأسها ، وهى موضوع مفضل لكتب المؤامرات على غرار (الإمبراطورية الخفية) و(أحجار على رقعة الشطرنج) .. إلخ .. لكن لا أعتقد أن لها علاقة بما يتكلم عنه هذا الرجل ..

لكن ما معنى أنه يطالب الناس بالقراءة ؟

دنوت من مصدر الصوت .. ومددت يدى أتحسس .. بالفعل كانت هناك صحف ، لكن ورقها سميك أقرب إلى الورق المقوى ، وكانت على الورق صفوف من ثقوب وبروزات تتحسسها أناملى .. من الواضح أن لغة (برايل Braille) هى

طريقة الكتابة السائدة هنا ، ومعنى هذا أن عدد قارئى الصحف أقل بكثير من عالمنا ..

معنى هذا كذلك أننا سنكون أميين فى هذا العالم ..

من هو القومندان ؟ وماذا يفعل ؟

قالت لى (سلمى) وقد فهمت بذكائها الحاد ما وجدت :

ـ « طريقة (برايل) .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. لا توجد طريقة أخرى .. أعتقد أن هناك خدمات إذاعية كذلك .. »

كنت أدرك حقيقة أن هناك جوًا بوليسيًا مرهقًا فى هذا الكوكب .. الناس غير ودودين على الإطلاق وهذا يزيد من تعقيد عملية الفهم .. ليس بوسعك أن تدنو من أحدهم لتسأله عن القومندان وهذه النورانية ..

فجأة سمعنا البائع يتكلم ومن الواضح أنه يكلمنا نحن :

ـ « اسمعا .. لو كنتما المقصودين فلتفرا حالاً ! »

سألته فى رعب :

ـ « المقصودان بماذا ؟ »

قال نافد الصبر :

ـ « لا داعى للتذاكى .. أنتما تعرفان ما أتكلم عنه .. إن سيارة الشرطة قادمة .. أسمعها بوضوح .. لن تكون لديكما أية فرصة للنجاة ! »

سيارة شرطة ؟

قالت (سلمى) وهى تجرنى من ذراعى :

ـ « هذا معقول .. الشرطة اختصت نفسها بمزية الرؤية .. هذا يجعل المطاردين معدومى الحيلة تمامًا .. لابد أنهم يستعملون الأشعة تحت الحمراء أو شيئًا من هذا القبيل ، وبالتالى يتمكنون من القيادة فى شوارع المدينة .. دعنا نفر من هنا ! »

قال بائع الصحف :

ـ « هذا هو العقل بعينه .. الشرطة تستعمل طريقة التصوير الحرارى للرؤية .. لاحظا أن الكلاب قادمة كذلك ! »

قلت فى جزع :

ـ « وماذا نعمل بصدد هذا ؟ »

ـ « هذه مشكلتكما .. لكن لو كنت مكانك لبدلت ثيابى بثياب قديمة كريهة الرائحة ! »

وشعرت بشىء يلامس يدى .. إنها ثياب قديمة متسخة .. لا أعرف لماذا يحتفظ بها ، لكن هذا الرجل خدوم فعلاً .. من الصعب أن تلقى من يقدم لك خدمات فى هذا العالم .. الجميع خشن فظ أو ـ على الأقل ـ بارد لا مبال ..

الآن أسمع صوت السرينة .. بالفعل هناك سيارة شرطة قادمة .. والسبب الذى جعله يسمعها ولم نسمعها نحن هو أن حواس هؤلاء القوم صارت مرهفة مشحوذة كالسكين .. هاتان أذنا قط ..

يمكننى الآن أن أسمع نباح الكلاب ..

سوف يستغرقون دقائق إلى أن يصلوا إلى الفندق فتصعد الكلاب إلى غرفتنا لتنهل من رائحتنا ثم تنطلق فى الشوارع ..

صحت فى (سلمى) :

ـ « انزعى ثيابك مثلى ! »

وبدأت أتجرد من الثياب فيما عدا ما هو ضرورى منها .. ولم أبال بمكان ترك ثيابى . لقد صارت لعنة يجب التخفف منها سريعًا ..

صاحت محتجة :

ـ « منذ متى أتجرد من ثيابى فى الشارع ؟ »

ـ « منذ صرنا فى عالم لا يرى أى شىء .. أنت فى أمان كأنك فى غرفة موصدة .. إن الثياب الجديدة ليس الغرض منها ستر جسدك بل ستر رائحتك ! »

وبدلنا ثيابنا بما استطعنا من تلك الثياب العتيقة كريهة الرائحة .. لابد أن صاحب هذه الثياب السابق كان يعمل فى المجارى .. لكن الأمان أهم من النظافة حاليًا .. يسهل العثور علينا لو كانت هذه الكلاب مدربة على البحث عن أخبث رائحة فى الكون ..

قالت (سلمى) فى اشمئزاز :

ـ « ماذا عن الحشرات ؟ »

ـ « أعتقد أن هناك الكثير منها .. الشمس لا تؤدى دورها كمطهر فى هذا العالم ! »

ـ « يا للكارثة ! »

سوف نجرى .. لا أدرى لأين لكننا سنبتعد والسلام ..

ما هى تهمتنا ؟ إشعال قداحة طبعًا ! وإنها لأغرب تهمة سمعتها فى حياتى .. فى (رومانيا) قديمًا كان يمكن أن تُسجن لأنك أشعلت لفافتى تبغ بذات عود الثقاب، والسبب هو أن الشركات التى تحتكر الثقاب كانت تريد الحفاظ على مكاسبها، لكن يظل هذا أقل غرابة من جريمة إشعال القداحة هذه ..

أين نذهب ؟

إن الأمر معقد بما يكفى لو كنت مبصرًا .. فماذا عنك كفيفًا ؟

هنا سمعت بائع الصحف الشهم يصيح :

ـ « لحظة .. نسيتما شيئًا مهمًا .. »

وشعرت بالماء يسيل ليغرق ثيابى .. ويبدو أن (سلمى) تلقت بللاً مماثلاً لأنها شهقت .. إن الطقس بارد بما يكفى ..

ثم فهمت .. ما دام رجال الشرطة يستعملون المجسات الحرارية للرؤية فمن المفيد أن تكون باردًا كالموتى ..

قلت للرجل همسًا :

ـ « ألف شكر .. أنت رجل شهم .. »

المشكلة هى أنك لا تعرف كم واحدًا يحيط بك حقًا .. ربما كان هناك عشرة من حولنا فى هذه اللحظة ..

هكذا انطلقنا نركض .. لا أدرى لأين لكننا نركض والسلام ..

وسمعنا من بعيد صوت كلاب تنبح .. لقد صدقت النبوءات حرفيًا ..

كلاب عمياء طبعًا لكن منذ متى تحتاج الكلاب إلى رؤية واضحة ؟

* * *

9- المتحف .. لولو مترى الريفيرى

نركض فى الشارع غير واثقين أصلاً من أنه شارع ..

لكنك تشم رائحة الطعام فى المطاعم ، وتسمع النداء عبر مكبرات الصوت يدل الناس على مواضع المستشفيات والهيئات الحكومية .. جو غريب فعلاً ..

ـ « هيئة التأمين ! هيئة التأمين ! المعاشات ! المعاشات ! حجز تذاكر الطيران ! فندق .. فندق ! »

كنا نجرى بلا توقف ، وإن هتفت (سلمى) بأنفاس متقطعة :

ـ « تذاكر طيران فى عالم لا يرى ؟ »

قلت وأنا ألهث :

ـ « أعتقد أن الأمر يعتمد على الكمبيوتر الملاحى إلى حد كبير .. لابد أنهم يقومون بضبط الإحداثيات ويتركون الأمر للملاح الآلى .. »

لم أمقت فى حياتى شيئاً مثل الكلام أثناء المشى أو الركض .. أشعر وقتها بأننى موشك على الإصابة بنوبة قلبية ..

ـ « المتحف المصرى ! تعالوا لتتحسسوا كنوز الفراعنة ! »

حتى هذا يتم تحسسه !

معنى هذا أننا فى ميدان تحرير قاهرة هذا الكوكب .. للمرة الأولى نعرف أين نحن ..

عبرنا الشارع دون قلق .. فلا توجد أية مركبة .. لا أصوات ولا ضوضاء ..

فجأة فكرنا فى الشىء ذاته معًا .. زيارة للمتحف المصرى فى هذه الظروف .. على الأقل لن تدخل الكلاب وراءنا .. لن يكون هذا أغرب مكان للاختباء .. لقد فررنا ذات مرة من المغول إلى السينما ، واتضح أنها ألعن مكان يمكن تصوره ..

لا أعرف كيف ولا متى وجدنا أننا نمشى فى ممر طويل وأن هناك من يمرر أجهزة كشف معادن على جسدينا ..

سمعت صوتًا يتأفف :

ـ « ما هذا ؟ ألا تستحم ؟ »

صحيح .. يبدو الأمر غريبًا بعض الشىء أن يهتم شخص لا يلبس إلا هذه الأسمال المتسخة بزيارة المتحف المصرى ،

لكنى تجاهلت ما قاله .. ودفعت ثمن التذكرتين حسب القواعد الجديدة .. الحقيقة أننا نمارس الغش بلا انقطاع .. أعتقد أننى صرفت ثلاثة جنيهات لا أكثر وجدت طريقها إلى الإنفاق على أنها ثلاثمائة جنيه .. طيلة الوقت أتقاضى باقى مالى بالأوراق المطوية فمن أدرانى أنها كذلك ؟

كيف لا يُخدع الناس بهذه الطريقة ؟

هناك احتمالان .. احتمال أن الجميع فى الهواء سواء لذا لا يوجد احتمال للغش .. الكل يتعاطف مع بعضه والأمانة جزء مهم من كيانك .. الاحتمال الثانى هو وجود نوع من (توازن الغش) .. أنت تغش الناس وهم يغشونك .. هكذا تبقى الثروة موزعة بنسب ثابتة .. فى الغرب القديم كان الفارس يترك حصانه فى الحانة ويختار حصانًا أكثر لياقة ، وكان هناك من يأخذ حصانه .. هكذا يبقى توازن الخيول ثابتًا ..

الآن نجتاز مدخل المتحف المصرى .. للمرة الأولى نراه من دون ضوء ..

صوت مرشدة حسناء .. كيف عرفت أنها حسناء ؟ لا يوجد تفسير آخر .. نفس ما أوقع (طه حسين) فى غرام (مى) ، برغم أن الصوت يخدع كثيرًا .. لكن الأذن تعشق قبل العين أحيانًا ..

المرشدة الحسناء تقول لنا :

ـ « لو مددتم أيديكم إلى اليمين لشعرتم بملامح تمثال (أمنوفيس الرابع) .. الوجه الطويل الحزين .. هذه هى الملامح التى تمثل فترة العمارنة .. إن الاسم الذى نعرفه لهذا الفرعون هو .. (أخناتون) .. »

هذه التماثيل كانت معروضة بعيدًا عن أعين المشاهدين .. لكنها الآن قد وضعت على الأرض لتكون متاحة لمن يريد أن يتحسسها ..

أتلمس ملامح الوجه فتصطدم يدى بيد أخرى لا أعرف إن كانت يد (سلمى) أم لا .. فقط أسمع من تقول وهى تسحب يدها :

ـ « انتشولدجن زى .. »

سائحة ألمانية كما هو واضح .. جاءت من بلدها لا لترى آثارنا لكن لتتحسسها ..

بحثت بيدى حتى لمست يد (سلمى) .. يسهل أن أجدها بفضل رائحتها الكريهة .. نحن بحاجة إلى حمام لكن متى وأين ؟ وهل نكون فى أمان وقتها ؟

ـ « هنا تجدون تمثالاً يظهر الجسد شبه الأنثوى لهذا الفرعون ، حتى اعتقد العلماء أنه مصاب باختلال هرمونى ما ... »

أمسك بيد (سلمى) ونقف فى ركن المكان .. الصوت يضعف ويضعف .. الخطوات تبتعد .. واضح أن المجموعة تبتعد عنا ..

قالت لى فى الظلام :

ـ « لا أستطيع تخيل قاعة العرض هذه .. كيف وضعوا هذه التماثيل العملاقة هنا فى متناول اللمس ؟ إننى أذكر قاعة العمارنة هذه وأعرف موضع كل تمثال فيها .. »

ـ « وأنا كذلك .. »

همست فى إغراء :

ـ « ما رأيك فى مرة واحدة .. تشعل القداحة لربع ثانية لنرى المكان ثم تنتهى كأن شيئًا لم يكن ؟ »

همست فى رعب :

ـ « لقد فعلتها مرة واحدة وها نحن ذان ندفع الثمن بلا توقف .. »

ـ « من الواضح أنه لا أحد هنا .. »

ـ « وكاميرات المراقبة ؟ »

ـ « هل تمزح ؟ كاميرات مراقبة فى بلد عميان ؟ أعتقد أنهم يكتفون بأجهزة تنصت مرهفة .. »

هنا فعلت التصرف الوحيد المنطقى .. رفعت صوتى عاليًا :

ـ « لو سمحت يا آنسة !. »

لا رد .. فعدت أكرر الأمر :

ـ « لو سمحت يا آنسة ! »

سألتنى (سلمى) :

ـ « هل جننت ؟ »

- « لا . فقط أتيقن من أنه لا أحد معنا فعلاً .. »

ثم مددت يدى إلى القداحة ورفعتها عاليًا .. بالفعل أتحرق شوقًا لرؤية الضوء .. زميل العمل القديم الذى لم أعد أراه ..

تشاك ! انبثقت الشعلة .. باعثة نشوة لا توصف فينا .. نشوة ربما لم يشعر بها إلا القدامى حينما تمكنوا لأول مرة من اقتناص هذه الزهرة الحارقة المراوغة ..

لكن ما رأيته كان غريبًا ..

* * *

10 ـ الضوئى ..

لم أر تماثيل (أخناتون) و(نفرتيتى) كما توقعت ..

لقد كانت هذه التماثيل التى كنا نتحسسها عبارة عن كتل تم صبها بالأسمنت وتم طلاؤها بمادة براقة ما .. لقد تم الصب بعناية لتعطى ذات الانطباع .. هناك تجاويف وحفر حيث تحسسنا بحثًا عن وجه .. هناك التفاف حيث قيل لنا إنه جسد (أخناتون) ذو الطابع الأنثوى .. هناك ما يشبه النقوش ..

لقد كانت خدعة كبرى .. وهذه السائحة الألمانية جاءت من بلادها كى تتحسس كتلاً أسمنتية !

تذكرت قصة العميان الأشهر ، عن العميان الذين تحسسوا فيلاً فقال أحدهم إن الفيل يشبه المروحة ، وقال آخر إن الفيل خرطوم لين ، وقال واحد إن الفيل أربعة أعمدة غلاظ .. كل واحد كان يصف ما لمسته يداه .. بينما المبصر يرى كل شىء ويدرك أن كل هذه أجزاء من فيل ..

لكن من فعل هذا ؟ هل سرقت هذه الآثار ؟ هل إدارة المتحف تعرف ؟ هل أرادت أن تحمى الآثار الثمينة بهذه الطريقة ؟ المهم أن السائح أو الزائر يلمس بأنامله ما وصفته المرشدة.

لم يكن الوقت كافيًا لمزيد من الفهم ..

هذا الضوء يفضحنا ويكشف أمرنا ..

لقد استغرق الأمر جزءًا من دقيقة ، لكن كان هذا كافيًا .. وقد عرفنا كذلك أن القاعة خالية كما تمنيت ..

خالية ؟ ليس تمامًا ..

كان ذلك الرجل يقف هناك فى ركن القاعة جوار المدخل وقد وضع يده أمام وجهه ليتقى الضوء ..

عندما خفض يده أدركت أنه يضع عوينات غريبة الشكل على رأسه تجعله أقرب لصورة لرأس النملة كما تراها بالمجهر الإلكترونى .. ليست عوينات بل هى أقرب إلى عدسات النظارات التى تطل على العالم خارج رأسه على الجانبين .. وهى تتصل بمجموعة معقدة من الأسلاك ومثبتة بخوذة إلى رأسه .. صورة قديمة رأيتها مرارًا فى اللقطات الإخبارية من مواقع الحروب ..

جهاز رؤية ليلية ..

عندما عاد الظلام كنت أفكر .. هل غياب الشمس يسمح بوجود الأشعة تحت الحمراء ؟ لا أعتقد .إذن من أين تستمد هذه العدسات الشعاع الذى ترى به ؟

لقد رأى كل شىء لا جدال فى هذا ..

هنا يأتى السؤال الأهم : من هو ؟

هل كان يراقبنا منذ البداية ؟

ارتجفت وسمعت (سلمى) تشهق فى رعب ..

هنا جاء صوت الرجل عاليًا فى الظلام يقول :

ـ « أرى أن المتحف راق لكما .. لكن أرى أن تنصرف لتناول الغداء يا (كامل) .. »

كدت أحتج بأن اسمى ليس (كامل) ، لكن (سلمى) اعتصرت ذراعى بقوة .. الرجل لا يكلمنا ولكن يكلم أجهزة التنصت الحساسة التى توقعنا وجودها ..

إنه يرسل رسالة لطرف آخر يصيخ السمع ..

وسمعته يهمس قرب أذنى :

ـ « لا تكن غبيًا ! اتبعنى فى هدوء ! »

وفى الظلام شعرت بيده تمسك بمعصمى .. ومشينا وراءه بلا مقاومة .. مشينا فى رواق طويل والأفكار تصطرع فى ذهنينا ..

أخيرًا شممنا رائحة الهواء البارد .. نحن فى الخارج فعلاً ..

سمعته يهمس :

ـ « أنتما فى ورطة مخيفة .. »

ـ « منذ متى لم نكن ؟ »

ـ « أنصحكما بأن تبقيا معى .. لا أمل لكما فى النجاة غير هذا .. »

ـ « من أنت ؟ »

قال بنبرة عملية :

ـ « هذه قصة تطول .. فقط يجب أن تنجوا أولاً .. بعد هذا نتكلم .. إننى أراقبكما منذ فترة لا بأس بها .. فرصتكما فى النجاة واهية جدًا لأن الشرطة تملك وسائل رؤية ليلية ، بينما أنتما لا تملكانها .. تصور فرصة كفيف فى النجاة بين مبصرين .. هذا هو وضعكما .. »

ـ « لكن المجسات الحرارية والكلاب .... »

قال مقاطعًا :

ـ « ليس هذا كل شىء .. لاحظا أننى ألبس جهازًا لا يعتمد على هذه التقنيات .. لقد حصلت عليه بالوراثة ... من رجل شرطة اضطررت لضربه .. عندما تصير المبصر الوحيد وسط العميان تعرف أشياء مروعة بحق .. وهذه المعرفة باهظة الثمن .. إنها تساوى حياتك نفسها .. »

كنا نمشى معه كطفلين وهو يقتادنا عبر طرقات لا نهاية لها ..

بعد نصف ساعة شعرنا بأننا فى مكان مغلق ..

سمعنا الباب يوصد .. ثم قال لنا وهو يلهث :

ـ « مرحبًا بكما فى بيت ضوئى من الضوئيين أو النورانيين فى تعبير آخر ! »

* * *

الجزء الثانى

ذكرى الأضواء

هنا لا توجد مياه وإنما يوجد صخر فقط ..
صخر ولا مياه والطريق الرملى ..
الطريق المتعرج فى الأعالى بين الجبال ..
وهى جبال من صخر بلا ماء..
ولو كانت هناك مياه لتوقفنا وشربنا ..
بين الصخور التوقف محال والفكر محال .
والعرق جاف والأقدام تغوص فى الرمال ..
ليت بين الصخور مياهًا !
ولكن جبل ميت به غار كفم نخر أسنانه السوس ..
أسنانه التى لا تستطيع أن تبصق ..
هنا لا سبيل إلى وقوف أو رقاد أو جلوس ..
حتى الصمت لا وجود له فى الجبال ..
وإنما فيها رعد مجدب بلا أمطار ..
حتى الوحدة لا وجود لها فى الجبال ..
وإنما فيها وجوه حمر كنيبة تهزأ أو تكشر ..
من قصيدة الأرض الخراب لـ (ت.س. إليوت)
ترجمة د. (لويس عوض)

1- الكارثــة ..

فى سن العشرين كان (سليم أنيس) مجرد شاب آخر ..

لقد أوشك على إنهاء دراسته فى كلية العلوم .. قسم الجيولوجيا ، وهى دراسة لم يكن موفقًا فيها تمامًا .. لقد تعثَّر عدة مرات لكنه كان يتحرك إلى الأمام برغم كل شىء ..

لم يعلق شىء من الدراسة فى ذهنه سوى د. (مصطفى) أستاذه الذى كان أقرب الأحياء إلى صفات العالم بالنسبة له .. كان قصير القامة أشيب الشعر ومن الغريب أن قصر قامته كان يعطيه هيبة خاصة .. المفترض أن طول القامة هو الذى يوحى بأشياء كهذه ..

كان د. (مصطفى) مولعًا بالجيولوجيا بحق ، ولسبب ما أحب (سليم) الذى لم يكن بالتأكيد أفضل طالب عنده .. إنها تلك الكيمياء بين الأرواح التى لا يمكن فهمها .. وفى هذا العصر السعيد كانت الدفعة صغيرة جدًا يسهل أن تتذكر اسم كل واحد من طلبتها ، دعك من أن قسم الجيولوجيا لم يكن محببًا إلى هذا الحد لدى الطلبة ، وبالتالى كانت الدفعة صغيرة . ما لم تكن

محظوظًا وتعمل في البترول ، أو تكن عبقريًا وتعمل في الجامعة ، فإن مصيرك مبهم نوعًا ..

كانت أسرة (سليم أنيس) أسرة عادية متوسطة من الأسر التي يعود فيها الأب ليتناول الغداء وينام بعد الظهر ، بينما تعد الأم (المحشى) الذي ستأكله الأسرة غدًا لتوفر الوقت .. ترصه بدقة في تلك الحلة التي ستضعها في الثلاجة حتى الغد .. الأخت المراهقة التي بدأت تكتشف أن مسحة لون أزرق على الجفنين تجعلها أجمل بشرط ألا يراها الأب حتى لا يفتك بها .. الأخ الأصغر الذي يرى أن أجمل شيء في العالم هو (الضرب) ..

هناك حبيبة كالعادة .. تلك الفتاة الرقيقة ذات الغمازتين .. هناك صديق .. هناك جيران ..

حياة كاملة مثل حياتي وحياتك ..

فقط كانت هناك صفتان تميزان (سليم) .. ربما ثلاث صفات ..

ولعه بالقطط الصغيرة وهو مزاج بدا مستغربًا بالنسبة لشاب كامل الرجولة .. فقد بدا هذا لمن يعرفه كأنه علامة أنثوية ما .. كان يحب أغاني (فيروز) ويحب النوم لساعة متأخرة ويحب

قراءة الصحف في الحمام .. دعك من أنه يعاني قرحة معدية مزمنة ، ويبتسم بزاوية فمه اليسرى .. لا بأس .. هذه عيوب يمكن التعود عليها مع الوقت ..

لم يكن (سليم) مهتمًا بشيء على الإطلاق .. هناك (فاتن) صديقة الكلية وهذه كانت تمثل جزءًا مهمًا من عالمه ، لكنه كان يعرف أنه سيفقدها في أول فرصة ممكنة .. لن يجد الشجاعة أبدًا ليقابل أباها وهو لا يملك دخلاً ولا مدخرات ..

من جهة السياسة كان هذا الكوكب شبيهًا بأرضنا في كل شيء .. هناك إسرائيل وهناك أمريكا وهناك اتحاد سوفييتي لم يعد كذلك .. نفس مشاكل العرب وإحباطاتهم .. أوروبا تشبه تلك التي لدينا تمامًا ..

أنهى (سليم) فترة التجنيد الإجباري بعد التخرج ، ثم راح ينظر إلى المستقبل في قلق وتوتر .

كان بحاجة إلى وقفة (تعبوية) يقرر فيها كيف يتحرك سيناريو المستقبل ..

هنا سقط النيزك ..

* * *

لا يذكر عن تلك الفترة إلا الهستيريا العامة ..

كانت الأنباء تصل بلا انقطاع عن النيزك الذى يقترب من الأرض بسرعة جهنمية .. تلك كانت أجواء نهاية العالم فعلاً .. الناس يصرخون ويبكون ..

التوتر العام .. القلق .. الشفاه المرتجفة ..

فى الشارع تسمع أصوات القرآن يتلى فى المساجد ، وأصوات أجراس الكنائس تدق بلا انقطاع .. لقد كثر الحديث عن (نهاية العالم) ..

سامح كل واحد أعداءه ، واعترف من ارتكب ذنبًا بخطئه ..

أما (فاتن) فقد اتصلت بـ (سليم) تخبره أنها تحبه .. لقد قاومت كثيرًا حتى لا تعترف بهذا لكن الزمن صار شحيحًا والنهاية قادمة ..

ـ « هل تتزوجنى ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

هذه ظاهرة أخرى من ظواهر نهاية العالم هذه .. لقد تزوج عشاق كثيرون جدًا كى يقابلوا النهاية معًا .. ولم يكن الأهل المجهدون قادرين على الرفض ..

ومن جديد تكرر ذات السيناريو الذى عرفناه على أرضنا كلما تنبأ أحد بدنو نهاية العالم .. باع كثير من أصحاب الأملاك ما يملكون بثمن بخس ، وهى مخاطرة دفع الكثيرون ثمنها غاليًا فيما سبق عندما مر الموعد ولم ينته العالم ، من ثم أمضوا باقى حياتهم فى التسول ..

فى عالمنا حدث شىء مماثل عندما جاء العام الميلادى 1000 الذى تنبأ الكثيرون بأنه النهاية .. احتشد الناس فى كاتدرائية كبرى بالفاتيكان يبكون بانتظار ساعة انتصاف الليل ، وعندما جاء الوقت المرهوب توقفت الساعة العملاقة المعلقة هناك (لأسباب مجهولة) من ثم سقط كثيرون موتى بعد أن توقف قلبهم رعبًا !

هناك من الناس من انقطعَ للعبادة ، وهناك من انقطع للهو باعتبار هذه فرصته الأخيرة للفساد .. قليلون انتحروا لأنهم فضلوا الحلول السريعة على الانتظار ..

كان الناس ـ في مصر على الأقل ـ يلتفون حول أجهزة التلفزيون والمذياع قلقين يتابعون المسيرة الإغريقية الكريهة لذلك النيزك الذي يقترب من الأرض بلا هوادة ، والذي قيل إن محيطه قريب من محيط المحيط الهادي .. أي إن حجمه يماثل حجم القمر ..

يبكي الناس ويتعانقون في الشوارع .. والمدينون يسقطون ديونهم ..

أما في دار (فاتن) فقد أقيم حفل صغير حزين على عجلة .. هناك جلس (سليم) وأهله مع أهل الفتاة .. وتتعالى الهمسات :

ـ « إنهما متحابان بحق ! »

ـ « البائسان ! ما كنا لنجرؤ على الرفض .. »

ـ « لو كنا في ظروف أخرى لركلت ابنكم في مؤخرته وطردته .. هل يحسب هذا الأحمق أن ابنتنا بلا ثمن ؟ كيف يجسر على أن يحبها وهو لا يملك شروى نقير ؟ »

ـ « لو كنا في ظروف أخرى لقلت إن ابنتكم ليست العروس التي أحلم بها لابني .. »

ـ « لكننا لا نملك الشجاعة الكافية لتحطيم قلبين شابين .. »

ـ « مما يحطم قلبنا نحن أنهما لن يريا أطفالهما أبدًا .. »

كان الأمر قاسيًا .. في أرضنا كانوا يزوجون الجنود السوفييت الشبان الذاهبين إلى الجبهة للقاء النازيين .. وهذا يعني أن حياة الجندي الشاب الزوجية لن تدوم سوى ليلة واحدة بعدها يرحل إلى الجبهة حيث سيلقى حتفه غالبًا .. أي إن عروسه كانت أرملة مع وقف التنفيذ .. في هذه الأعراس السريعة كان الشاعر (إيفتوشنكو) الطفل يرقص مقابل ثمرة بطاطس يعود بها لأمه !

هكذا وجد (سليم) نفسه متزوجًا من حبيبة الدراسة .. ظروف غريبة كان سيغبط نفسه عليها لو لم يكن محكومًا عليه بالإعدام .. وفي سره تمنى لو أن الكارثة لم تحدث .. عندها سيخرج مظفرًا وقد نال حبيبة قلبه ، وليس أهلها بقادرين على الاعتراض ..

طبعًا أقام في شقة جديدة .. لقد صارت الشقق بسعر علب التبغ بعدما باعها أصحابها بأي ثمن .. البعض تصدق بثمن

ما يملكه والبعض راح يلهو به .. ما قيمة المال بعد الآن ؟ فقط الذين احتفظوا بأعصابهم قوية ثابتة راحوا يكنزون الذهب والفضة على أمل أن تنجو الأرض ، وعندها سيكونون أغنى الأغنياء ولسوف ينقلب السلم الاجتماعى بالكامل ..

هذه هى الظروف التى بدأت فيها المأساة ..

* * *

2ـ الارتطـــــام ..

أمل عابر لاح فى الأفق عندما قررت (ناسا) ـ عندهم واحدة أيضًا ـ أن ترسل صاروخًا هيدروجينيًا إلى قلب النيزك ليقوم بتفجيره وهو فى الفضاء قبل أن يلمس الأرض .. على الأقل يغير مساره ..

هذا سيناريو تمت مناقشته من قبل كثيرًا .. وهو حل يبدو لا بأس به ..

حبس العالم أنفاسه يوم انطلاق الصاروخ ، بينما العدسات تنقل المشهد الخرافى .. وللمرة الأولى تعالت فى العالم العربى أدعية غربية مثل (فلينصر الله أمريكا) .. لقد كانت هذه من اللحظات القليلة التى تدافع فيها أمريكا عن العالم كله ، وإن كانت تدافع عن نفسها أولاً طبعًا ..

لشد ما تغدو الحياة أجمل عندما تقترب من النهاية ..

لم أذق فى حياتى ألذ من آخر كوب الشاى أو بقايا كأس العصير ..

الكل ينظر للسماء ويبتهل بينما الصاروخ الجبار يحلق نحو النيزك ..

وتم الارتطام والانفجار فعلاً .. وانتظر الناس أخبارًا طيبة لكن هذا لم يحدث ..

لقد تحمل النيزك الصدمة والانفجار الهيدروجيني المروع ، ثم واصل طريقه إلى الأرض .. ذات المسار وذات السرعة ..

هكذا أعلنت (ناسا) أن العملية (ماتادور) قد فشلت .. طبعًا (ماتادور Matador) معناها (مصارع الثيران) ومغزى المصطلح واضح .. كان على المصارع الأمريكى أن يوقف هجمة الثور الفضائى .. لكنه فشل .. وظهر الرئيس الأمريكى على شاشات التلفزيون ليقول إنه (يشعر بقلق) .. والرئيس الأمريكى عادة إما أن تتحسن الأمور فيشعر بـ (تفاؤل مشوب بالحذر) أو تسوء فيشعر بـ (قلق) ..

هذه المرة لم يبك أحد ..

لقد استسلم الناس لقدرهم فى سكون وهدوء ..

وخرجت الصحف اليومية تحمل عبارة (العدد الأخير) ، وكانت مجانية ، لكنها لم تجد من يقرؤها على كل حال ..

وعندما لم تبق إلا ساعات قبل الآباء أطفالهم وسامح الحاقدون أعداءهم ، وصارت الزوجات لطيفات فى ظروف مجهولة ..

فتحت السجون أبوابها لتسمح للمعتقلين بأن يواجهوا الموت أحرارًا ، واكتظت دور العبادة ..

هناك من ابتلعوا الكثير من الأقراص المنومة كى لا يكونوا فى وعيهم عندما يحدث الشىء ..

وفى الساعة الثامنة من مساء الأثنين الحزين تم الارتطام ..

* * *

هذه هى النهاية ..

يا صديقتى الجميلة ..

هذه هى النهاية ..

يا صديقتى الوحيدة ..

نهاية خططنا المحكمة ..

نهاية كل شىء قائم ..

النهاية ..

لا أمان ولا مفاجآت ..

لن أرى عينيك مرة أخرى أبدًا ..

هل تتخيلين ما سيكون

بلا مدى ولا قيود ؟

نبحث فى لهفة عن يد غريب تساعدنا

فى أرض يائسة ..

أغنية قديمة لجيمى موريسون

* * *

لعدة ساعات ظل الجميع يتحسسون أجسادهم بحثًا عن إصابات .. لا شىء ..

المؤكد هو أن شيئًا ما ليس على ما يرام . لقد تغير لون السماء وانقطع إرسال المذياع والتلفزيون .. تحولت هذه إلى قطع من البلاستيك ..

على كل حال خرج الناس فى المساء إلى شوارع القاهرة يتبادلون التهانى .. لقد مر الأمر على خير .. هكذا تذكر من باعوا أملاكهم برخص التراب أنهم كانوا حمقى .. قررت الزوجات أن يعدن للتنغيص على الأزواج .. عادت الضغائن لقلوب من تخلوا عنها ..

أفاق هؤلاء الذين تعاطوا الأقراص المنومة حاسبين أنهم ماتوا .. لكن كان كل شىء كما هو ..

مرت الساعات حتى الصباح فى سلام واحتفالات .. إن هؤلاء الذين أرادوا أن ينهوا وجودهم على الأرض فى اللهو استمروا فيما كانوا يقومون به ، والذين لم يريدوا ذلك قرروا الاحتفال بالنجاة ..

وفى دارهما هتف (سليم) وهو يحتضن (فاتن) :

ـ « لقد نجونا ! وخرجنا مظفرين ! تزوجنا وصار لنا بيت ولم نمت ! »

ـ « نحن محظوظان !! »

قليل من الشباب فى مثل ظروفه من أتيحت له الفرصة بهذه البساطة .. خلال ثلاثة أيام وجد نفسه يجلس بالمنامة فى داره مع زوجته الحسناء التى كانت زميلته فى الدراسة ، وغريبة عنه تمامًا منذ ثلاثة أسابيع . هل جاء هذا النيزك خصيصًا من الفضاء الخارجى كى يجعله سعيدًا ؟ يا للكرم الكونى !

لكن الناس بدءوا يقلقون عندما أشرقت شمس الصباح ..

لم تكن هناك شمس فى الواقع والجو كان غائمًا كأيام الشتاء . يمكنك أن ترى النور لكنه قادم من خلال الغيوم الكثيفة التى تكاثرت فى السماء ..

وفى الحادية عشرة هطلت أمطار كثيفة .. تفاءل الناس لأن هذا يعنى أنها ستغسل السماء غسلاً ، لكن بدا أنه ما من شيء قادر على أن يعيد للسماء زرقتها ..

عادت الطائرات القادمة من العالم الغربى حاملة الأخبار ..

لقد كانت رحلتها مفزعة من دون اتصال لاسلكى .. وقد تلفت بعض أجهزة الكمبيوتر ، لهذا كان من حسن الحظ أنه لم تهو سوى ثلاث طائرات فحسب ..

وكانت الطائرات العائدة تحكى أشياء مفزعة ..

النيزك سقط فعلاً .. لكنه سقط على الأمريكتين .. لقد اختار أن يستقر فى المحيط الهادى باعتباره المكان الوحيد المناسب له . كما يضع الطفل قطع اللعب البلاستيكية فى الثقوب المناسبة لها حجمًا ..

النتيجة هى فيضانات هائلة اجتاحت المحيطين الهادى والأطلنطى .. تغيرات مناخية قاسية .. سحب كثيفة من الغبار تتصاعد إلى عنان السماء لتحجب الشمس ..

أوروبا سليمة . أفريقيا سليمة . آسيا تضررت فقط ناحية السواحل كما هى العادة ..

لقد نجونا ونالت أمريكا جزاءها الشعرى .. هذا هو كل شيء ..

كان الناس يتنفسون الصعداء ..

من الواضح أنهم لم يفهموا بعد الأبعاد الحقيقية للكارثة ..

إن سيناريو K – T قد عاد يتحقق حرفيًا ..

* * *

3- الموت الأعظم ..

بالنسبة للحمقى الذين لا يفقهون شيئًا في علمي الفلك والجيولوجيا - ومنهم كاتب هذه السطور - انتهت الكارثة على خير .. خلال أيام تصفو السماء ويتهيأ الناس للحياة في عالم بلا أمريكا .. هذه مشكلة لكنها ليست خطيرة جدًا لأن الناس سيتعلمون الاعتماد على أوروبا .. دعك من أن الصين قوة لا يستهان بها ..

إسرائيل تحولت إلى قط محاصر شرس ينزوي جوار جدار وقد أدركت أن أيامها معدودة .. من دون ولايات متحدة تجد إسرائيل نفسها عارية تمامًا، لكن أوان دفع الثمن لم يحن بعد ..

بالنسبة لعالم مثل د. (مصطفى) كان يرتجف هلعًا .. لقد توقع السيناريو القادم وعرف حرفيًا ما سيحدث ..

إن نهاية الحياة كما نعرفها قادمة، لكن ليس بالشكل الذي تخيله الناس ..

سيكون موتًا بطيئًا مريعًا قاسيًا ..

* * *

عندما جلس د. (مصطفى) مع تلميذه (سليم) كانت لديه أسئلة ومخاوف عديدة ، جعلت الدم يتجمد في عروق الفتى ..

لماذا انقرضت الديناصورات منذ ملايين السنين ؟

هذه الكائنات العملاقة برهنت عن كفاءة عالية فى التكيف ، وقد سادت الأرض 165 مليونًا من الأعوام . ثم زالت فجأة فى ظروف غامضة منذ 65 مليونًا من الأعوام ..

ماذا حدث وقتها ؟ ما هو السر الرهيب الذى جعلها تزول ؟ هل هذا السبب قابل للتكرار ؟ بمعنى أدق : هل يمكن أن يجدنا الخلق الجديد مجرد حفريات غامضة بعد ملايين السنين ؟

هناك نظريات عدة يعرف رجل الشارع أكثرها .. منها نظرية غباء الديناصورات ونظرية الوباء ونظرية اصطدام النيزك .. النظرية الأخيرة هى الأشهر طبعًا وتقضى بأن الديناصورات كانت تتمتع بصحة ممتازة عندما هوى نيزك عملاق من الفضاء ، وهذا النيزك بعث سحابة كثيفة من الغبار فى الجو وبالتالى انتهى ضوء الشمس وبادت الحياة ..

هناك فجوة مناسبة جدًا لهذه النظرية فى شبه جزيرة (يوكاتان Yucatan) بالمكسيك .. فجوة تدعى

(تشيكسولوب Chicxulub) ساعات الإيريديوم تؤكد أن هذا النيزك ضرب الأرض فى ذات وقت انقراض الديناصور .. وهذه هى نظرية K — T extinction التى ابتكرها علماء فى جامعة (كاليفورنيا) عام 1980 عندنا .. ومعناها (انقراض الديناصورات فى الفترة بين العصرين الكريتاسى والثلاثى Cretaceous Tertiary border) ، وهذا هو ما يطلقون عليه (الموت الأعظم) .. وهو اهتمام علمي بدا غريبًا لبعض العلماء الذين اهتموا بكيف عاشت الديناصورات لا كيف ماتت ..

فى الحقيقة كانت هناك حادثة موت أعظم سبقت هذه ، هى موت ثلاثية الفصوص Trilobites .. ففى فترة من الفترات أبيدت الحياة على كوكب الأرض تقريبًا ، لكن الكائنات التى بادت كانت صغيرة قليلة الأهمية وأقرب إلى الصراصير ، فلم تلق الاهتمام الكافى الذى ظفرت به كائنات عملاقة مهيبة مثل الديناصورات ..

منذ هذه اللحظة صارت ثقافة (النيزك ـ الذى ـ يمحو ـ الحياة ـ على ـ الأرض) شعبية جدًا .. لاحظ أن كل فيلم ديناصور أو رجال بدائيين ينتهى بانفجار بركان أو حريق وفوضى عامة .. هكذا يُمحى كل شىء ..

لابد أن كارثة كهذه أدت إلى أمطار حمضية وظلام شامل ، وهو ما يشبه الشتاء النووى ، أضف لهذا كثافة غير معتادة فى نسبة الإيريديوم فى التربة فى عدة مواضع ، مما يرجح أن أجزاء النيزك لم تترك مكانًا إلا وسقطت فيه .. لكن هذه النظرية لم تفسر سبب بقاء النباتات والثدييات حية .. كيف تحملت هذه الكارثة التى لم تتحملها الديناصورات العملاقة ؟

ثمة نظرية أخرى تتحدث عن انفجارات بركانية متعاقبة أدت إلى امتلاء السماء بسحب سود مما أدى لشلل الحياة ..

باختصار انقسم العلماء إلى intrinsic gradualists وهم من يؤمنون بكارثة على غرار البراكين جاءت من الأرض وأحدثت أثرها بالتدريج .. و extrinsic catastrophists الذين يؤمنون بمصيبة جاءت من الفضاء الخارجى وأحدثت التغيرات بسرعة ..

كان د. (مصطفى) من الفريق الأخير ، وإن كان بعيدًا جدًا عن القضية وعن الدخول فى أى جدل بصددها ..

لم يكن يعرف أنه سيختبر هذه النظريات عن كثب .. ومن مسافة قريبة جدًا ..

* * *

تم الاصطدام كما قلنا ..

كان د. (مصطفى) يعرف ما قاله العلماء الأمريكيون عن هذا السيناريو .. العلماء الذين لم يعد لهم وجود على الأرجح ..

لو أن الاصطدام تم فى المحيط ، فمعنى هذا موجات هائلة على السواحل .. سوف يتناثر الماء فى الجو وتغرق قارات بأكملها .. أما لو تم الاصطدام على اليابسة فلسوف تحدث زلازل كثيرة .. تبدأ حرائق غابات فى المركز نتيجة حرارة الصدمة ، ثم ينطلق الفتات فى الفضاء ويبدأ تفاعل من الصخور التى تطير ثم تسقط من جديد .. البعض يبقى معلقا فى الجو ويحجب نور الشمس .. وهكذا تصير الشمس معتمة أكثر من القمر لسنوات .. تموت النباتات .. ربما تموت الحياة كذلك ..

كان د. (مصطفى) يمشى فى الشوارع التى يخيم عليها الظلام .. وينظر إلى الناس المليئين بالبشر لأن الاختبار القاسى قد انتهى ، ويقول لنفسه :

ـ « ترى هل من مصلحتى أن أعلم ما أعلمه ؟ فى بعض الأحيان يكون الجهل أفضل .. »

لقد بدأت الزلازل .. وتهاوت بعض النيازك .. بعض البنايات القديمة قد تصدعت ..

لكن مصر كانت بعيدة فعلاً عن مركز التصادم ؛ لذا لم يبد أن شيئًا تغير ما عدا الظلام وبعض الزلازل محدودة الخطر ..

كانت سيناريوهات نهاية العالم كما نعرفه مألوفة لـ (د. مصطفى) .. يطلقون عليها لفظ التدليل (تيوتواوكى TEOTWAWKI) وهو الحروف الأولى من عبارة :

(The end of the world as we know it) ..

يلخص العلماء الأمر كله بصراع بين قصيدتين .. القصيدة الأولى للشاعر (فروستFrost) يقول فيها :

« البعض يزعم أن العالم سينتهى بالنار ..

البعض يزعم أنه سينتهى بالثلوج ..

من تجاربى مع الشهوات .. أضم صوتى لمن يتحدثون عن النار .. »

القصيدة الثانية للشاعر (ت. س. إليوت Eliot) الذى يقول :

« هكذا ينتهى العالم .. ليس بالانفجارات بل بالأنين.. »

ترى من الشاعر الأكثر شفافية ؟ علماء الغرب أعلنوا فوز (ت. س. إليوت) بكأس الشفافية والقدرة على التنبؤ .. إن نهاية الكون هى التفتت والاحتضار البطيء إلى أن يتلاشى .. هكذا يعتقدون طبعًا ..

الكون يتمدد بلا انقطاع منذ الانفجار الأول Big Bang وهو شيء لاحظه (أينشتاين) .. لاحظ كذلك أن سرعة الأجزاء البعيدة منه لا تبطئ لكن تتزايد .. هذا شيء غريب .. معنى هذا أن هناك مادة غريبة بين الأجسام الكونية أطلق عليه اسم (ضد الجاذبية) .. ذلك الاسم الذى عدل عنه فيما بعد واعتبره غلطة عمره .. الحقيقة أنه لو تمسك بهذا المفهوم لنال جائزة نوبل ثانية ، لأن علماء الغرب لم يعد لهم همّ إلا دراسة هذه المادة الغامضة المضادة للجاذبية التى تجعل تمدد الكون يزداد سرعة كلما تقدم الزمن .. الكون يتمدد ويتباعد إلى أن يصير لا شيء تقريبًا كما يرى علماء الغرب .. لكن فهم هذه الأمور مستحيل على كل حال من دون معادلات ، ومن دون أن تكون فيزيائيًا ..

يقول عالم الفلك الأمريكى (مايكل تيرنر) : « لو كنت تعتقد أن الكون معقد وعسير الفهم ، فعليك أن تبتلع بعض أقراص الصداع لأن الأمور سوف تزداد سوءًا .. »

لكن هذه لم تكن نهاية الكون كما نعرفه .. كانت فقط نهاية حياة البشر على الأرض كما نعرفها ..

لقد بدأ السيناريو K – T فعلاً ..

نفس السيناريو الذى أدى لانقراض الديناصورات منذ ملايين السنين قد بدأ يعمل .. فقط هو موت بطيء قاس .. برد شديد لكنه غير كاف لقتل الحياة على وجه الأرض .. ظلام دامس .. صارت الشمس حلمًا عسيرًا ..

لكن أشنع ما فى الأمر لم يأت بعد ..

* * *

4- حياة الظلام ..

حدثت هذه الأحداث فى الثمانينات ..

الآن صارت الأمور أكثر وضوحًا وعرف الناس ما عرفه د. مصطفى منذ عشرين عامًا ونيف ..

لقد صار الظلام قاعدة .. لم يعد هناك بصيص نور عابث متسلل يجد طريقه لعيونهم كما كان فى أيام الكارثة الأولى .. بل صار ظلامًا كثيفًا حقيقيًا كالذى تراه – أو لا تراه – إذا أغمضت عينيك الآن ..

لم يعد هناك صباح .. لا نهار .. لا شمس ..

الكل يعرف أن الشمس العزيزة لم تول ولم تتخل عن مهمتها أو تمارس الإنتروبى entropy كما توقع علماء الفيزياء ، لكنها كمحبوبة تناديك فى لهفة ، لكن تفصلك عنها أستار كثيفة ..

من حين لآخر تدوى عواصف رعدية مرعبة . ويهوى البرق ليحرق شيئًا .. عندها فقط كان الناس يتذكرون ما هو البصر .. لكن كان يتم إطفاء هذه النيران خلال ثوان لأسباب سنعرفها حالاً ..

هكذا انتهت من اللغة كلمات مثل (صباح الخير) و(نهارك سعيد) .. فى البدء كان من يستعملها يجلب لنفسه السخرية ، وبعدها صار من يستعملها يجلب لنفسه اللوم ..

هناك أشياء لم يعد لها معنى .. ما معنى أن اللبن أبيض ؟ ما معنى أن البحر أزرق ؟ ما معنى أن فلانًا أصفر من الحقد أو أحمر من الغيظ ؟ هذه ثقافة لم يعد فيها مكان للون ..

فى البداية كانت السيطرة المطلقة فى هذا المجتمع للعميان .. لقد كانوا كذلك منذ البداية ولم يخسروا شيئًا .. كانوا يستطيعون تدبير أمورهم واستمر الحال كذلك .. وكان من الممكن لو أنك تملك القدرة على الإبصار أن ترى رجلاً كفيفًا يقتاد مبصرًا فى الظلام .. هناك فيلم شهير لأودرى هيبورن اسمه (انتظر حتى يحل الظلام) .. فى هذا الفيلم هى امرأة كفيفة تواجه غزوًا من القتلة لدارها .. إنها ضعيفة هشة كعصفور صغير ، لكنها تقرر أن تقطع النور عن البيت ليسود الظلام .. بهذا فقد المهاجمين تفوقهم وصاروا دمى عاجزة فى قبضتها .. إنها تعرف كيف تجد طريقها .. تعرف كيف تجد السكين .. تعرف كيف تهجم فى الظلام وتقتل ..

هذا هو ما حدث بالضبط فى بداية أيام أرض الظلام ..

مع الوقت تعلم الناس كيف يمشون عن طريق تحسس طريقهم ، وبالتالى كان لابد للسيارات أن تنقرض .. لايمكن أن تقود سيارة فى ظلام دامس حتى لو أردت .. انقرض الطيران وعادت رقعة العالم ضيقة محدودة .. كل بلد منغلق على نفسه يطبع صحفه بطريقة (برايل) .. وظهرت ثقافة جديدة هى ثقافة العمى ..

هناك معارض للفن التشكيلى لكنك تدخلها كى تلمس اللوحات ، وتبدى إعجابك بامتزاج الخشونة بالنعومة .. مثلاً قال أحد النقاد عن معرض الفنان (نادر وهبة) :

ـ « الخطوط الحادة البارزة القاطعة توحى بالحتمية ، بينما المنحنيات الناعمة توحى بانكسار الروح .. الخشونة سمة عامة فى كل اللوحات .. صنعها الفنان عن طريق تمزيق ورق الصنفرة ولصقه على مسار البشرية .. إنه يقول بوضوح إن الرحلة لم تنته بعد .. »

كان هناك ازدهار فى الفنون السمعية .. تراجع الكتاب والتلفزيون كثيرًا جدًا لتتقدم التمثيلية الإذاعية والأغنية ..

تعلم الناس كيف يتعاملون بالنقود البارزة ، لكنهم وجدوا أنها مكلفة فعلاً ، لذا عادوا للأوراق المالية القديمة مع اتفاق عام على ثنيها بطرق تدل على قيمتها . لم يكن من مصلحة أحد أن يغش لأن هذا يعني أن هناك من سيغشه غدًا ..

هذا هو توازن الحقيقة .. لا تغش الناس كي لا يغشوك ..

كل هذا متوقع .. وعلى كل حال قنع الناس بالنور في بيوتهم يشاهدون الأفلام القديمة التي تظهر أيامًا كانت الشمس فيها تغمر المروج ، وقد اقتنى الأثرياء مصابيح شمسية تعطي ذات دفء ووهج ونفع ضوء الشمس لتنير بيوتهم ..

أما ما لم يتوقعه الناس فهو أن تزحف الظلمة إلى بيوتهم ذاتها ..

* * *

لسبب ما بدأت الطاقة تفنى في الكوكب كله ..

لقد حار العلماء في فهم هذه الظاهرة ، وقالوا إن السبب هو أن الطاقة في جميع صورها تأتي من الطاقة الحرارية للشمس والنجوم .. لا توجد مصادر طاقة أخرى في الكون .. من دون

شمس تفقد الأرض ما اختزنته من طاقة حركية وضوئية وصوتية وكهربية Entropy .. هناك نظريات عدة حاولت تفسير ما حدث لكن المهم في الموضوع هو أن الطاقة بدأت تتلاشى ..

كان أول ما لاحظه الناس هو أن الأضواء خبت في ديارهم .. ثم انطفأت تمامًا ..

خرجوا للشوارع مذعورين ليكتشفوا أن أعمدة النور لم تعد تعمل ..

لم تعد هناك كهرباء ..

بعد هذا اكتشف كل من يملك محركًا أو سيارة عتيقة أنها لا تدور ..

حتى النار ذاتها لم تعد قادرة على تسخين شيء ولم تعد تبعث نورًا حولها .. ولا يعرف الناس متى ولا كيف اختفت القداحات وأعواد الثقاب .. لم تعد هذه الأشياء تباع لأنها لم تعد ذات قيمة ..

هكذا كان العالم ينزلق بسرعة إلى فجوة مظلمة .. ظلام لا يمكن معه أن تضيء عود ثقاب أو مصباح كيروسين ..

كانت النباتات تموت ..

وتحولت مساحات هائلة من الأراضى الزراعية إلى صحراء ..

بدءوا يأكلون الحيوانات وهم مذعورون من اليوم الذى ينتهى فيه هذا .. وكانت الحيوانات بدورها تموت بسرعة مذهلة لأنها لم تعد تأكل النباتات ..

إلا أن العلماء اليابانيين توصلوا إلى تخليق نوع من الأعلاف تأكله الحيوانات .. وبدأ تصدير هذا المنتج إلى كل بقاع الأرض .. هكذا استطاع البشر إنقاذ الثروة الحيوانية قبل أن تنقرض تمامًا ، وهذا يعنى انقراضهم هم أيضًا .. الديناصورات لم تكن تملك عقولاً ولم تكن عندها هندسة وراثية أما البشر فأحسن حظًا ..

لقد صار طعام الإنسان يتكون من اللحوم واللحوم واللحوم .. عالم مصاب بالإمساك وبالطبع نقص فى الألياف مما يجعل الطريق لسرطان القولون ممهدًا ..

أما عن التسخين فالفضل يعود للعلماء الألمان الذين تمكنوا من تطوير نوع من البكتريا التى تعيش فى الظلام ، وتقدر على إنتاج تفاعل حرارى يصلح لطهى وجبة .. ربما يكفى للتدفئة كذلك ..

نال العالم الألمانى الذى طور هذه البكتريا جائزة نوبل فى الفيزياء ، وقد تقدم ليأخذها وسط الظلام .. يحرك عصاه كى لا يتعثر على المنصة .. فقط ليصطدم بملك السويد الذى يفتش عنه إلى أن يجد يده فيدس فيها الجائزة ..

قال له ملك السويد :

ـ « متى تنتجون بكتريا قادرة على توليد الضوء ؟ »

قال العالم فى انفعال :

ـ « قريبًا يا مولاى .. قريبًا جدًا .. سوف تعود البشرية للإبصار .. أعد بهذا .. »

صحيح أنهم وجدوا جثة هذا العالم ملقاة فى غابة مظلمة قريبة من داره فى (لندرهوف) بعد عودته من السويد بأسبوع .. وجدها رجل يتحسس طريقه نحو داره واستغرق رجال الشرطة وقتًا طويلاً حتى يعرفوا من القتيل .. إن الطرق البصرية كلها لا تصلح .. لكن أحدًا لم يربط بين كلماته الأخيرة وما حدث له .. إن انتقال الأخبار عاد سيئًا كما كان ، وهذا أدى إلى بطء غير معتاد فى التعامل مع الحقائق والاستنباط والاستقراء .. حينما عرف الناس أن هذا العالم قد مات كانوا قد نسوا تمامًا ما قدمه للبشرية ، وقيل إنها عملية سطو مسلح ..

على كل حال كان الناس مستمرين فى عملية التأقلم ، وكما عرفنا صارت المستشفيات تنادى زبائنها بمكبرات صوت بدائية .. والمطاعم تقوم بالتهوية على أطعمتها ليشمها الناس .. يتساءل سائل كيف تعمل محركات المراوح إذن ؟ الإجابة أن الزنبرك عاد ليسترد أمجاده القديمة .. مروحة تعمل بـ (الزمبلك) صارت تساوى أكثر من عشر مراوح كهربية .. لقد كان الناس يعيشون قبل عصر الكهرباء والسيارة وها هم أولاء قد عادوا لذلك . مع فارق مهم هو أنهم يجربون الحياة بلا نار ..

تطور الطب السريرى ليواكب العصر .. بعبارة أخرى انتهى دور البصر فى الموضوع واعتمد الكل على التحسس والسمع والدق .. بالطبع انتهى دور أجهزة الأشعة تمامًا .. فرع كامل مثل طب العيون لم تعد له أهمية وتم ضمه إلى الجراحة العامة .. نفس الشىء حدث مع طب الأمراض الجلدية .. فى عالم لا يبصر لا يهم أن يمتلئ جلدك بالقروح أو البثور .. لقد انتهت لفظة (قبح) تمامًا .. فقط تطلب عون الطبيب لو شعرت بحكة أو التهاب أو ألم ..

الأمراض المعدية ازدهرت بشكل غير مسبوق .. هذا عالم لا يعرف التأثير المطهر لأشعة الشمس .. كل شىء يفسد ويتعفن ويتخمر .. لهذا سادت الرائحة الكريهة بقاعًا كثيرة من البلاد .. دعك من أن انعدام الرؤية جعل المرء أقل حرصًا فى عاداته الصحية .. تذكر قصة الشاعر الماجن اللعين (بشار بن برد) الذى كان أعمى ، ولم يتحرج من أن يتبول أمام ضيوفه وهو يكمل كلامه معهم .. عندما لاموه على ذلك قال لهم : أنتم مبصرون وأنا أعمى .. لهذا أولى بكم أن تغمضوا أعينكم ولا تنظروا ، أما أنا فلا حرج على ..

دعك بالطبع من أن غسيل الوجه وحلاقة شعر الرأس صارت أفعالاً نادرة ..

وفى فترة من الفترات كان الشاب يذهب لبيت الفتاة مع أهله .. هنا فقط يُسمح له بأن يتحسس ملامح عروس المستقبل هذه .. وكانت الفتاة بعد هذا تدور على نساء أسرته ليتأكدن من أنها جميلة متناسقة الملامح ..

هذا الإجراء كان مشينًا وغير إنسانى بالطبع ، لذا شاعت موضة الصور المجسمة .. صورة بارزة للوجه أقرب إلى تمثال

يمكن أن يتحسسها العريس ليعرف إن كان أنف الفتاة الكبير قادرًا على أن يملأ حياته بالسعادة أم لا ..

وببطء تسربت الصور المجسمة إلى كل شيء .. صارت وسيلة تعامل حكومية معروفة .. أما التوقيع فقد حلت محله بصمة الأذن ..

لقد ولد جيل كامل لم ير الضوء فى حياته .. جيل من أطفال الظلام .. لكن أغلب هؤلاء كان يموت بأمراض نقص الشمس أو تتشوه عظامه بالكساح ..

كان ابن (سليم) من هذا الطراز .. لقد أدرك (سليم) أن ساقى الصغير تحولتا إلى قوسين كهذين) (.. لكنه سعيد الحظ لأنه رزق بابن على الأقل فى هذه الظروف الصحية المريعة ..

اليوم صار الصبى فى العشرين .. وصار (سليم) الشاب فى الأربعين .. لم تعد (فاتن) كما كانت .. لكن هذه أشياء يمكن أن تعرفها باللمس .. هذه التجاعيد على وجهها . الجلد الذى فقد نضارته .. لأنه لن يرى الشيب أبدًا ..

لن يرى وجه ابنه أبدًا ..

هذه أشياء تعذب أولئك الذين عاصروا النور . وهم يحكون عنه لأولادهم فلا يفهم هؤلاء شيئًا .. يحسبونه كلام عجائز لا أكثر ..

* * *

5ـ القومنــدان ..

يحكى (سليم) لابنه بعد العشاء الذى تكون من لحم ولحم ولحم :

ـ « كنا نصحو من النوم لنرى الشمس .. جسمًا شديد الوهـج عملاقًا حارًا يبرز من الشرق .. »

يسأله الفتى :

ـ « ما معنى وهاج ؟ »

ـ « أى إنه .. أى إنه يبعث نورًا قويًا .. »

فيبتسم الفتى ويخجل من أن يسأل عن معنى النور .. فيقول فى أدب :

ـ « هه هه ! »

يواصل الأب الكلام :

ـ «عندها كان القمر يتلاشى ومعه النجوم .. كأنه يتوارى خجلاً من كل هذا البهاء . . . »

فيسأله الفتى فى الظلام :

ـ « القمر ؟ تعنى ذلك الجسم الذى انفصل عن الأرض يومًا ما ؟ أعتقد أن النجوم هى تلك الشموس الصغيرة التى .. »

ـ « بالضبط .. النجوم كانت جميلة .. لم يكن هناك شىء أجمل منها .. فى قريتى كنت أرقد فى الحقل على ظهرى أصغى لصوت الحشرات الليلية ونقيق الضفادع فى الجدول .. وأنظر للسماء فأتخيلها فلاحة حسناء عملاقة نثرت الترتر على ثوبها .. »

ـ « ما معنى حسناء ؟ »

ـ « أى متسقة الملامح .. عندما تمرر يدك على جانب فمها لا تصطدم بشىء .. لا تجد تلك الحفر التى تجدها على جانبى فم أمك .. لا تحيط بعينيها تلك الأخاديد .. هذه هى الحسناء .. عم كنا نتكلم ؟ »

يقول الفتى فى ملل :

ـ « عن معنى فلاحة حسناء تشبه النجوم التى .. »

ـ « نعم .. نعم .. ثم يدنو الليل من نهايته .. تقترب الشمس من الأفق الشرقى .. عندها يصطبغ الأفق بلون الدم مخلوطًا بلمسة قرمزية وردية بنفسجية .. »

ـ « ما معنى هذا كله ؟ وما هو لون الدم ؟ »

ـ « إنه أحمر .. »

هكذا كان حوار الطرشان يستمر عدة ساعات .. وذلك الشعور الممض الذى يعذب (سليم) بأنه ممل ومخبول فى نظر ابنه .. يتذكر جده عندما كان يحدثه عن الخمسة القروش التى ابتاع بها بيضًا ورطلى لحم وزيتًا وخبزًا ثم تنزه بما بقى .. نفس الشعور ..

هكذا كان يفضل الصمت ..

* * *

فى تلك الأعوام طرأت تغيرات كبرى على العالم ..

لا يعرف أحد متى صارت حقيقة واقعة لكنها كانت تدريجية جدًا .. مثلما ترقب أنت الغروب فى عالمنا فترى الشمس ساطعة

ثم تتداخل بعض الظلال والألوان لا يهم .. ما زال الضوء موجودًا .. تزداد الظلال كثافة ويصطبغ الأفق باللون القرمزى . لا تدرى متى ولا كيف وصلت لهذه النتيجة .. لكنك صرت فى الليل فعلاً وهاك كوكب الزهرة يضىء وحيدًا فوق البنايات فى خط الأفق .. متى صار النهار ليلاً ؟ لا تستطيع أن تمسك بلحظة فاصلة ..

متى سمع الناس عن القومندان ؟

لا يدرون ..

متى امتلكت الشرطة تلك الأجهزة التى تتيح لها الرؤية ؟ متى صارت لهم سياراتهم ؟

لا أحد يذكر ..

فقط يحمل الناس ذكرى مبهمة عن الرجل الذى لم يره أحد والذى اتخذ مقره فوق قمة جبل (إفرست) .. فى أعلى موضع من العالم يمكن لهذا الرجل أن يرى ضوء الشمس لأنه يعلو طبقة سحب الغبار التى تغلف العالم ..

من هذا الرجل ؟ من أين جاء ؟ لا أحد يعرف .. يقولون إنه راهب من رهبان التبت .. لكنه قوى جدًا تسانده عصابة قيل إنها من الجنرالات السابقين المنشقين على جيوش الصين والاتحاد السوفييتى سابقًا ..

هذا الرجل جاء حرفيًا ليحكم العالم .. من مقره الشبيه بمقرات أشرار أفلام (جيمس بوند) فى السينما يمكنه أن يراقب كل شىء .. يمكنه أن يقصف بصواريخه أية دولة متمردة ..

لكن النقطة الأهم هنا هى أنه يرى بينما الناس جميعًا لا يرون .. إنه فوق مستوى الظلام .. بالتالى هو قوى جدًا كأى مبصر يسيطر على مجموعة من العميان ..

ماذا يريد هذا الرجل ؟

المنشور الذى كتب بلغة (برايل) والذى رددته مكبرات الصوت فى كل مكان يقول :

« القومندان يحكم العالم وليس بوسع أحد أن يقاومه.. القومندان لا يطالبك بشىء ولا يرغمك على التخلى عن وطنك أو دينك .. المسلمون سيظلون مسلمين .. المسيحيون سيظلون مسيحيين .. اليهود يبقون يهودًا .. وكذا يبقى البوذيون والكونفوشيسيون والهندوس .. فقط يطلب القومندان أن تقدموا له نسبة من دخلكم مقابل حمايتكم .. »

« القومندان يرى .. لهذا يقدر على حمايتكم كما أنه يقدر على إيذائكم .. إن القومندان دان من الشمس ؛ لهذا لديه موارد الطاقة ولديه النباتات التى استزرعها على قمة الجبل .. »

« الظلام مقدس . لهذا يجب أن تعيشوا فيه أبدًا .. النور دنس يلوث الظلام لهذا يحرم عليكم البحث عنه .. لا أحد يشعل نارًا .. لا أحد يبحث عنها .. إن النار حق أصيل للكاهن وليس من حق سواه .. »

« إن من يجرؤ على استعمال النار أو البحث عنها يرتكب إثمًا يقترب مما يسميه أتباع الديانات بالكفر .. جزاء استعمال النار بأى شكل هو الموت .. العذاب ثم الموت .. »

« القومندان لا يطلب منكم التخلى عن دياناتكم أو معتقداتكم أو كرامتكم .. كل ما يطلبه هو أن تتخلوا عن كبريائكم .. وجزء بسيط من مالكم .. »

كان الذعر الذى سببه هذا المنشور يفوق قدرتى على التعبير ، لكن الناس لا يذكرون فعلاً متى رأوه لأول مرة .. كما قلت سابقًا كان كل ما يتعلق بهذا القومندان يتم بشكل تدريجى ..

كان الناس لا يرون .. كانوا فى حالة وهن وهشاشة شديدة ، وهكذا خضعوا بلا مناقشة لهذا الكلام .. فى البدء شعروا أن الرجل يستدرجهم إلى نوع من العبادة ، وتأهبوا للثورة ، ثم رأوا بأنفسهم أنه لا يطلب شيئًا سوى المال والنفوذ ..

هكذا خضعوا له ..

أرغموا أنفسهم على الحياة فى ذلك العالم المغلق المظلم الذى اختاره لهم .. هذا الوضع الذى يطلق عليه الغربيون اسم brain in a vat أو (المخ فى وعاء زجاجى) .. حياة كاملة مزيفة تعيش فيها راضيًا منعزلاً عن العالم الخارجى الحقيقى ..

فى الوقت ذاته تقريبًا بدأت ظاهرة دوريات الشرطة .. لقد صارت الشرطة فى كل البلدان خاضعة لهذا القومندان .. وقد لاحظ الناس أن سيارات هؤلاء تعمل برغم مشكلة الطاقة العامة .. معنى هذا أنهم طوروا تقنية خاصة بهم .. قيل إنها الخلايا البيولوجية ..

هنا تذكر الناس ـ بعضهم على الأقل ـ العالم الألمانى الذى وجد قتيلا .. كان هذا العالم يحلم بأن يولد الضوء بطريقة بيولوجية .. يمكن لذوى الخيال الخصب أن يتصوروا أنه قتل لهذا الغرض بالذات .. لمنعه من القضاء على الظلمة وهى السلاح الأقوى فى يد القومندان . دعك من أن تجاربه على الأرجح هى التى جعلت هذه المحركات تعمل .. لابد أن هناك من سرق أبحاثه ونفذها وقتله كى لا يقدم أكثر ..

النقطة الثانية هى أن هؤلاء يبصرون . وكم من شابين وقفا يتهامسان فقط ليشعرا بأيدى رجال الشرطة الغليظة على كتفيهما .. متى جاء هؤلاء وكيف ؟ لا يوجد سوى احتمال واحد هو أن رجال الشرطة منتشرون بشكل لا يمكن تخيله ، وأنهم يرون .. لا يمكن سوى لإنسان يرى أن يقوم بهذه العمليات .. وفيما بعد عرفوا أن هناك أجهزة إبصار خاصة يضعها رجال الشرطة .. إنها قريبة جدًا من أجهزة الرؤية الليلية التى نعرفها نحن ، لكنها ذات مرشحين .. مرشح يقيس الحرارة المنبعثة من الأجساد . ومرشح يقيس الأشعة الكونية الشحيحة التى تصل للأرض .. ومن هاتين الصورتين تتكون صورة عالية الدقة كأنك تراها فى شمس الصباح ..

هكذا تتحرك الشرطة فى كل مكان وسط أناس لا يرون شيئًا .. هذه قوة مروعة .. نفس القوة التى ينعم بها أى جيش يملك معدات الرؤية الليلية .. تصور ما يقدر عليه جندى مكافحة الشغب الذى يلبس قناعًا مضادًا للغازات وسط متظاهرين يحرق الغاز المسيل للدموع عيونهم .. إن قوته لمطلقة .. إنه يرى ..

كان الناس في كل العالم يعرفون أن هناك نهبًا يجرى لهم .. فى مصر مثلاً لم يكن أحد يعرف أن المتحف المصرى صار خاويًا وإن سرت إشاعات كهذه .. فى فرنسا لم تعد هناك لوحة واحدة فى اللوفر .. ما يتحسسه الزوار والسياح هو هياكل مزيفة ..

أين ذهبت هذه الثروات ؟ على الأرجح هى هناك فى جبال الهيملايا .. إن القومندان قد قرر أن يحب الفنون بالإضافة إلى نفوذه ..

لكن أحدًا لا يتكلم عن هذه الأمور ، لأنه قد يفاجأ بأن جاره ليس وحده .. يمكن أن تتكلم ربع ساعة ثم تكتشف أن هناك عشرة رجال شرطة فى الغرفة معك ..

وقال الحكماء :

ـ « ما الذى يهم فى بعض التماثيل ؟ إن العالم يتجه نحو النهاية بسرعة جهنمية .. فلماذا تهتم بأمور كهذه ؟ »

* * *

6 ـ الضـــوئيـون ..

د. (مصطفى) كـان هـــو مـــن بـدأ الشرارة فـى مصر على الأقل ..

العجوز الواهن الآن .. لم يعد هو ذلـك الرجل الممتلئ قوة وحيوية وعلمًا .. احتفظ بعلمـه وقوتـه النفسية وفقد كل شىء آخر ..

لقد بدأ الأمر بلقاء مع (سليم) .. الظلام يجعلك عاجزًا عن معرفة هل أنت وحدك أم أن هناك خمسين شرطيًا يحيطون بك ، لكنه طلب من (سليم) أن يأتى له فى داره هذه الليلة .. لماذا ؟

ـ « عندما نلتقى ستعرف .. »

* * *

فـى التاسـعة مسـاء دخـل (سـليم) إلـى بيـت أسـتاذه العجـوز..

لا معنى بالطبع لليـل ولا النهار فى ذلك العالم ، لكن الحاجة إلـى تقسيم اليوم إلـى سـاعات قديمـة جدًا لـدى الإنسان . وقـد

شاعت الساعات الناطقة بينهم ، كما أن هناك ساعات تعتمد على أن يتحسسها المرء بأنامله ليعرف موضع العقارب .. كلها تعمـل بالزنبرك طبعًا ..

فى الظـلام جلس (سليم) .. ظلام دامس طبعًا ، لكن هنـاك درجة ما من التكيف البصرى يعرفها من يبقون فى الظلام لفترة طويلة .. عندها ترى أجسامًا رمادية كأنها الأشباح ..

وقد شعر بمن يقترب منه ثم شعر فى كفه بعلبة من العصير .. إنـه د. (مصطفـى) .. فكيـف يتحـرك بهـذه البسـاطة فـى الظـلام ولا يتعثر ؟

ـ « ما رأيك فى هذا كله ؟ »

ـ « رأيى فى أى شىء ؟ »

ـ « فى الظلام الذى كتب علينا أن نواجهه .. »

ـ « هو قدرنا .. »

قال الأستاذ العجوز وهو يجلس جواره :

ـ « نعم ..لكن لانقبل أن يأتى أحدهم ليعيش فوق الغيوم وينعم وحده بالنور والنار وهو بشرى مثلنا .. من أعطاه هذا الحق ؟ »

قال (سليم) فى بساطة :

ـ « حق القوة .. هو استطاع هذا ففعله .. »

قال د. (مصطفى) فى إنهاك :

ـ « أنا لن أعيش أكثر .. أعرف أن أيامى هنا معدودة وأن إحدى قدمى فى القبر بالفعل ، لكنى أكره أن أرى البشر يتعذبون قبل رحيلى .. هذه ليست حياة .. يجب أن تصير النار والكهرباء من حق الجميع .. »

فى دهشة قال (سليم) :

ـ « أنت تعرف تلك الظاهرة المحيرة التى لم يجد العلماء لها تفسيرًا .. النار لم تعد ذات قيمة .. تلاشى وهجها وما تبثه من دفء .. حتى لو تجاسر أحد على استخدام النار اليوم فلن يجنى منها إلا الموت .. »

ـ « ما لدينا من معلومات يقول إن هذا القومندان لختص نفسه بتقنيات حديثة .. عنده نار حقيقية تدفئ وتحرق .. لديه طرق لتوليد الكهرباء الفاعلة .. لقد اختص نفسه بكل ما يجعل الحياة ثمينة بينما نحن هنا نتخبط فى الظلام .. تقتلنا الأوبئة ويولد

أطفالنا مصابين بالكساح .. لو كانت عندنا كهرباء لنجحنا فى تعريض الأطفال لشمس صناعية .. سوف تضاء الشوارع فلا يمشى الناس متخبطين يتحسسون الجدران .. »

قال (سليم) نافد الصبر :

ـ « ليكن .. هذا ظلم .. ولكن ماذا يمكن عمله ؟ »

ـ « نحن قلة .. لكننا نعرف كيف نجد بعضنا .. »

فى هذا الكوكب كانت هناك ثورة يوليو كذلك ، وقد توقع (سليم) أن يكلمه (مصطفى) عن تنظيم اسمه الضباط الأحرار كما رأى فى عشرات الأفلام السينمائية .. الجو كله يوحى بذلك .. الرجل يحاول ضمه إلى تنظيم سرى يحارب ذلك اللص الذى يدعو نفسه بالقومندان ..

قال د. (مصطفى) :

ـ « نحن نطلق على أنفسنا اسم : (الضونيين) .. هؤلاء الذين يؤمنون بحق الجميع فى الضوء .. الضوء ليس حرامًا أو جريمة فيما عدا أنه يضعف من سيطرة ذلك الطاغية .. هناك ضونيون فى اليابان وفى ألمانيا وإيطاليا والسودان وتنزانيا

والهند .. فى كل مكان من الأرض .. مهمتنا الحالية هى أن نجد بعضنا .. بعد هذا ستأتى اللحظة التى ننتزع فيها حقنا فى الحياة .. لقد استلبنا النيزك ضوء الشمس .. فلن نترك ذلك القومندان يسلبنا شيئًا آخر .. »

قال (سليم) فى حيرة :

ـ « ولماذا فكرت فىَّ بالذات ؟ »

ـ « لأنك صادق القلب .. أعرف أنك صادق القلب .. صحيح أنك جاهل لكن الغباء لم يجعل المرء شريرًا قط .. »

هل هى مجاملة أم سباب ؟

ـ « شكرًا .. »

هنا سمع (سليم) صوت الحركة الخافتة فتوتر ، ثم قدر أن هذا حيوان يتسلل فى ركن بالدار .. لكن د. (مصطفى) صاح وهو ينتفض :

ـ « إنه هنا ! لقد تسلل أحد (البصاصين) هنا ليسمع ما نقول ! لو غادر الدار لانتهى أمرنا ! »

ولم يدر (سليم) إلا وجهاز ثقيل يوضع على رأسه .. كأنها خوذة تتصل بأسلاك .. وسمع الأستاذ يقول :

ـ « أنا لن أستطيع مواجهته ! هلم استعمل هذا المنظار وابحث عنه ! »

للمرة الأولى منذ أعوام لا حصر لها يرى (سليم) ..

كانت الصورة واضحة نقية ، وإن اكتسبت صبغة خضراء مرعبة .. إنه يرى .. بالفعل يرى الشقة ويرى وجه أستاذه العجوز الذى لم يره منذ أعوام .. الأستاذ الذى صار كفيفًا تمامًا الآن .. يرى المنضدة الصغيرة وفوقها علبة العصير ..

رباه ! ما أثمن الضوء ! وما أروع التفاصيل التى نسيناها فى الظلام !

إذن كان هذا الجهاز على رأس الأستاذ عندما قابله ، ولهذا كان العجوز يتحرك بحرية كاملة وسلاسة ..

ـ « هلم ! لا تقض الليل كله هنا ! »

نهض (سليم) وهو يشعر بأن ما يحمله على رأسه يزن أطنانًا ..

خرج إلى مدخل الشقة فرأى البصاص يحاول الفرار ..

كان رجلاً نحيل القامة في الأربعين من العمر يضع على رأسه جهازًا مماثلاً ، ويحاول في رفق أن يفتح باب الشقة ليغادرها من دون جلبة .. يبدو أنه أدرك أن أمره انكشف .. كانت قوته تكمن في جلوسه مع كفيفين .. ثم أدرك أن أحدهما مبصر وأن ما اكتشفه خطير سيسيل له لعاب رجال الشرطة .

للمرة الأولى يتحرك (سليم) بسرعة منذ أعوام .

للمرة الأولى يسترجع أيام صباه .. لقد جعله الذعر ينفض أعوامًا من السكون ..

لقد وثب من فوق الأريكة .. وسرعان ما هوى على البصاص ليسقطه أرضًا ..

كانت هناك طريقة واحدة سهلة للقتال .. لقد انتزع المنظار من فوق رأس الرجل ..

وفي اللحظة التالية صار البصاص عاجزا عن رؤية أي شيء .. لقد سقط على الأرض وراح يتحسس الجدران محاولاً النهوض فالفرار .. الآن صار هذا مستحيلاً ..

لقد وجه له (سليم) أعنف ركلة ممكنة في نقفه ، ثم تلاها بركلة أعنف في وجهه .. أما نهاية المعزوفة فكانت أن وثب في الهواء ثم هبط بقدميه معًا على ضلوع البصاص ..

كانت هذه هي النهاية .. وسرعان ما تكوم الرجل بلا حراك .. من فمه يخرج سائل أخضر .. على الأرجح هو دم ما لم يكن كائنًا فضائيًا .. وشعر (سليم) بآلام قرحته تستيقظ .. القرحة التي لا تتركه في حاله أبدًا ..

سمع صوت د. (مصطفى) يتحسس طريقه نحوه ..

مد يده يساعده على الوصول إليه ، فقال الأستاذ العجوز :

ـ « أعتقد أنهم سمعوا دعوتي لك في داري فأرسلوا من استبق موعد اجتماعنا كي يعرف عما نتكلم بالضبط .. يمكن أن يدخل معك ولا ندرك ذلك .. ربما كانوا يراقبونك أو يراقبونني .. لا أحد يعرف .. كل إنسان مهدد في هذا الزمن .. المهم أنك قد تورطت في القصة حتى أذنيك ولم يعد من داع لسؤالك عما إذا كنت تريد الانضمام لنا ! »

بالفعل أدرك (سليم) فى هذه اللحظة بالذات أنه تورط بشدة ..

لقد صار من (الضوئيين) ..

أراد أو لم يرد !

* * *

7ـ الضوئى الجديد ..

عندما تملك قدرة الإبصار يكون بوسعك أن تتخلص من جثة بسهولة ..

قام (سليم) باختلاس النظر خارج الدار فلم ير إلا المكفوفين العاديين يتحسسون طريقهم .. كل واحد منهم تنير عيناه بذلك البريق الأحمر المخيف المميز للرؤية الليلية ..

قام بأول إجراء مهم وهو أن أفرغ معدته .. لابد من أن تخرس آلام القرحة أولاً ، ودس فى فمه بعض أقراص المضغ التى لها طعم النعناع .. هكذا بدأ يشعر بالراحة ..

جرّ ضحيته التى لفظت أنفاسها الأخيرة خارج دار د. (مصطفى) ..ثم مشى بها بضعة أمتار إلى أن بلغ النيل .. قام بملء جيبى الفقيد بالحجارة ثم دفعه دفعًا إلى أن سقط فى المياه العميقة رمادية اللون ..

طشّ ش ش !

التفت الكثيرون عندما سمعوا صوت الارتطام بالماء .. لكنهم كانوا عاجزين بالطبع عن فهم مصدر الصوت .. هكذا واصلوا طريقهم ..

فى عالم من المكفوفين سوف يستغرق الأمر دهرًا إلى أن يجدوا الجثة ، ودهرًا إلى أن يعرفوا صاحبها ، ودهرًا إلى أن يشكوا فى الدكتور (مصطفى) .. فى هذا الوقت ستكون الأسماك قد قامت باللازم ..

من الغريب أنه قام بأول عملية قتل فى حياته ، هو الذى لم يؤذ ذبابة من قبل .. لكنه لم يمعن التفكير فى الأمر ، لأنه غرق فى عالم ثرى بكل التفاصيل البصرية التى حرم منها .. هكذا نسى الحقيقة : إنه لن يعود أبدًا كما كان ..

عندما عاد إلى د. (مصطفى) كان رأسه يزدحم بالأسئلة ..

لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا يقينًا : هو لن يعود إلى العمى .. لقد وقع فى غرام البصر ، حيث كل شىء واضح ومكتمل ومنطقى ..

وتمنى لو يأخذ النظارات ليراها ابنه ليعرف معنى النور .. الوغد لا يصدق أن هناك شيئًا مثل البصر والألوان .. حان الوقت كى يعرف ..

لكن د. (مصطفى) سأله على الفور :

ـ « هل تخلصت من نظارات الرؤية الخاصة به ؟ »

قال فى ضيق :

ـ « لا طبعًا .. سوف أحتفظ بها... »

ـ « لا .. إنها نظارات حديثة .. هل ترى فيها قطعة نحاسية تشبه هوائى المذياع تخرج من العدسة اليمنى ؟ »

تفحص النظارة ثم غمغم :

ـ « نعم .. »

ـ « إذن هى كما توقعت .. هذا الطراز الحديث مضاد للفقد .. إنه يرسل إشارة رائحة بمكانه يتلقاها رجال الشرطة وتعرفها كلابهم ، وهى تقنية هدفها ألا تفقد نظارة واحدة .. معنى هذا أن هذه النظارة ستخبر رجال الشرطة بمكاننا .. »

قال (سليم) مغتاظًا :

ـ « برغم هذا أنت تملك واحدة .. تلك التى ألبسها الآن .. »

ـ « النظارة التى معى من الطراز العتيق حينما لم تكن هذه الإشارات قد عرفت بعد .. تخلص من النظارة يا ولدى حتى لاتندم .. وثق أننى أعرف ما أقول .. »

هكذا لم يعد أمامه سوى أن يخرج فى حذر ليلقى بالنظارة الثمينة فى مياه النيل ..

وحينما عاد من جديد لاهثًا قال له أستاذه العجوز :

ـ « أعدك أننا سنجد لك نظارة جديدة .. وحتى يأتى ذلك الحين احتفظ بنظارتى .. أنا قد استمتعت بالبصر فترة طويلة جدًا من حياتى منذ سرقت هذه النظارة .. لكن تذكر .. لا تتفاخر بها ولا تتباه بما اكتسبته من قوة على الآخرين .. لا تلعب دور (سوبرمان) لأن هؤلاء قادرون على العثور عليك وتدميرك.. »

كان الأمر أشبه بشعلة الثورة التى يتناقلها جيل من جيل .. فقط الشعلة فى حالتنا هذه مجرد نظارة رؤية ليلية ..

يبدو الأمر عجيبًا ، لكن ما الشيء الذى ظل كما هو فى هذا العالم ؟

* * *

هكذا صار (سليم) من الضوئيين .. الحقيقة أنه لم يعرف ما المطلوب منه ولا مستقبل هذه الحركة .. فقط كان يخفى النظارة فى داره ، وأحيانًا يأخذها فى جولات ليلية حذرة .. لو رآه أحد يلبسها لكان الثمن هو جريمة قتل أخرى .. قتله أو قتل من رآه ..

وفى هذه المرات القليلة عرف أن تغيرات هائلة قد طرأت على البلاد لكن أحدًا لم يرها ..

لقد سرقت تماثيل فرعونية مهمة جدًا ووضعت مكانها هياكل تقنع من يتحسس .. متحف (محمد محمود خليل) بلا لوحة واحدة لكن هناك سطوحًا خشنة توحى لك بأن هذه لوحات .. بعض الناس لا يتقاضون راتبًا ولكن يتقاضون أوراقًا بيضاء تم ثنيها بشكل يوحى بأنها مئات الجنيهات ..

عند بعض الجزارين وجد كلابًا مسلوخة كاملة ، لكن لا أحد يعرف هذا سوى الجزار نفسه .. هناك بعض الأثرياء يملكون تلك النظارات الخاصة التى تتيح لهم نعمة البصر ، لكنهم ينكرون هذا طيلة الوقت .. وقد أتاحت لهم هذه المزية سبقًا هائلاً على الفقراء .. دعك من شبابهم الأثرياء الذين يتسللون بهذه النظارات إلى غرف الفتيات المكفوفات أو أماكن استبدال الثياب ..

الحقيقة أنه كاد يفضح نفسه أكثر من مرة ، لأنه حسب أن من يلبس هذه النظارات هو بالضرورة ضونى مثله .. ثم أدرك أن الضونيين لا يمشون فى الشوارع علانية بنظاراتهم .. دعك من أن نظاراتهم عتيقة الطراز دائمًا لا يمكن اقتفاء أثرها .. ثمة صفة مهمة أيضًا وتستحق أن نذكرها هنا : إنهم متأنقون يعنون بثيابهم وشعرهم .. كل الناس لا تعرف كيف تبدو من الخارج لكن هؤلاء يعرفون ..

وقد جازف ذات مرة وقدم نفسه لواحد من هؤلاء ..

الرجل الذى قدم نفسه له كان يقف جوار قضيب السكة الحديدية .. السكة الحديدية التى لم تعرف قطارات منذ دهور ..

كان الرجل نحيلاً فارع الطول فى الخمسين من عمره .. متأنقًا مصفف الشعر نظيفًا .. وكان يعد الفلنكات التى تمت سرقتها أو انتزعت من مكانها ..

دنا منه (سليم) فأجفل الرجل ..

بدا مظهرهما ككائنين فضائيين يتلاقيان بهذه الخوذات الغريبة التى تجعل رأسيهما أقرب إلى رءوس النمل ..

قال له مهدئًا من روعه :

ـ « لا تقلق .. أنا مثلك .. لست منهم .. أنا منكم .. »

نظر له الرجل فى تردد ثم قال :

ـ « مرحبًا بك .. أنا صرت ضونيًا منذ عام .. »

ـ « وأنا منذ عامين .. »

ـ « أنا محام .. »

ـ « وأنا جيولوجى .. طبعًا لا عمل لى .. أحيانًا أكسب رزقى إذ أراقب اللحوم عن طريق شمها وتحسسها.. »

وصمتا بعض الوقت وظلا يتبادلان النظرات ثم تبادلا العناوين وافترقا ..

محادثة بليغة جدًا ..

كان هذا أعمق تفاعل مع الضونيين مر به (سليم) .. وقد ملأه رضا ..

يومًا ما سوف نلتقى .. يومًا ما سوف نعرف ما ينبغى عمله ..

إنه الآن يعرف عشرة ضونيين على الأقل ..

* * *

8- سر ثقيل ..

على فراش الموت قال له د. (مصطفى) :

- « لا أتوقع أن تستمر الحياة على كوكب الأرض كثيرًا من بعدى .. لا يمكن لكوكب أن يعيش من دون نور شمس لأن الحياة العضوية سوف تذبل مع الوقت .. صحيح أن السيناريو أبطأ مما توقعت لكن هذا لا يغير شيئًا .. الكوكب مقضى عليه بالهلاك .. »

أمسك (سليم) يد أستاذه فى الظلام وهمس بصوت مبحوح :

- « ألا تتوقع أن تتقشع هذه السحابة مع الوقت ؟ »

- « ربما .. لكن انقراض البشرية سيكون أسرع .. »

ثم سعل بعض الوقت قبل أن يقول :

- « سوف تكون أعوامًا معدودة لكنى أتمنى أن تقضوها فى كرامة .. لهذا لابد من أن تتصل بالآخرين .. »

ابتسم (سليم) ابتسامة لم يرها الآخر لأنهما كانا معًا فى الظلام ، وقال :

ـ « لكن ما الجدوى ؟ فى عصر بلا طائرات لا يمكن التفكير فى مجرد الوصول إلى الهيمالايا .. »

ـ « هناك طائرتان فى العالم اليوم .. أنت لا تعرف هذا لكنها الحقيقة . يجب أن تمسك ببداية الخيط .. وهناك ما هو أهم .. »

ثم قرب أذنه من أذن تلميذه وهمس له بالسر ..

السر الذى يمكن أن يغير كل شىء ..

* * *

مر عامان على وفاة الأستاذ ..

(سليم) فى العقد الخامس من عمره .. لقد صار أكثر شعره أبيض وإن لم ير أحد هذا .. فقط يعرف الناس من خشونة صوته وإنهاكه صورة عامة عن سنه ..

(سليم) مثقل بسر رهيب ..

(سليم) يعرف كل الضونيين ، ويتابع أخبار إعدام بعضهم فى الصحف المنشورة بحروف (برايل) .. يعرف أنهم ليسوا حمقى .. ليسوا أقل ذكاء منه .. لقد سقطوا فى يد الشرطة ليس

لأنهم أغبياء مهملون وإنما لأن أجلهم حان .. لا شىء يحميه ولا شىء يمنع من أن يكون هو القادم ..

لكن الأمور تتساوى فى ذهنه ..

لقد تحمل بمهمة شاقة ، وعليه أن ينفذها ..

هكذا كان يقضى الوقت يجوب الشوارع .. أحيانًا يحمل النظارات وأحيانًا لا يحملها ..

فقط هو يراقب كل شىء ويحاول معرفة من يمكن أن يكون من الضونيين مثله .. كانت هناك منشورات بحروف (برايل) وقعت فى يده ذات مرة .. المنشورات تدعو الشباب إلى أن يكونوا من الضونيين .. أن يكون لهم الحق فى استعمال العينين .. لم يعرف قط من طبع هذه الأشياء ، لكنه تحمس لدى رؤيتها .. أعنى لدى تحسسها ..

كان يجوب شوارع العاصمة عندما حملته قدماه إلى ميدان التحرير فى ذلك اليوم .. كان هذا من الأيام القليلة التى جرؤ فيها على وضع النظارة كل هذه المسافة ..

فجأة أدرك أن هناك حركة غير عادية ..

الكلاب قد خرجت .. إنها تنبح باستمرار ، وهو يعرف هذا الطراز من العمليات الأمنية .. السيارات تندفع فى الشوارع .. السيارات والكلاب لا تخرج إلا لدى وجود جريمة شنعاء تتعلق بالنار أو النور .. هذه هى الأسباب الأهم التى تدفع هذه القوى للتحرك . هكذا أخفى النظارة فى عصبية تحت طيات ثيابه .. من الوارد جداً أن يراه رجال الشرطة الآن .. سوف يطلقون الرصاص ثم يتفاهمون ..

سمع أن هناك اثنين أشعلا النار وارتكبا جريمة تلويث الظلام فى أحد الفنادق ..

وعندما تجاسر على وضع النظارة من جديد رأى هذين الشابين المتماثلين اللذين يلبسان الأسمال ويتحسسان طريقهما ، ويبدو أنهما سمعا نداء المتحف المصرى فقررا أن يتواريا فيه ..

هكذا دخل المتحف مجازفاً متوقعاً فى أية لحظة أن يراه أحد لابسى نظارات الرؤية الليلية ..

رأى الشابين يقفان فى قاعة العمارنة .. رأى الشاب يشعل القداحة . إنه ساذج لا يدرى بحق أية جريمة ارتكبها ..

من الغريب أن هذه النار تختلف عن نار عالمه .. إنها نار قوية قادرة على أن تكشف أشياء ، بينما نارهم ـ لو وجدت ـ واهنة ضعيفة لا تمنح الدفء ولا النور ..

إنهما يتصرفان كأنهما لا ينتميان لهذا العالم ..

بل هذا صحيح .. بالفعل هما لا ينتميان لهذا العالم ..

وارتجف ..

الآن فقط ولهب القداحة يضيء القاعة يتذكر ما قاله أستاذه :

ـ « أنا لا أؤمن بنبوءات العرافين وكل هذا الهراء ، لكن هناك إشاعة قوية يتناقلها الضوئيون عن شابين .. ذكر وأنثى .. متشابهين كأنهما أخوان .. قادمين من عالم آخر .. يقولون إنهما سوف يقضيان على سلطة القومندان .. هذا كلام فارغ فى رأيى .. لا أحد يقدر على تدمير القومندان سوى أبناء هذا العالم وهذه اللحظة .. »

كان هذا قبل أن يصارحه بالسر الأكثر خطورة ..

على كل حال كان الأمر قد انتهى الآن لأن الغريبين رآياه ..

وأدرك أنه يجب أن يقدم لهما يد المساعدة قبل أن يضيعا ..

سوف يأخذهما معه ويحميهما ..

والأهم .. يجب أن يعرف من هما حقًا ومن أين جاءا ..

* * *

الجزء الثالث

القوموندان

يا مدينة الوهم
تحت الضباب الأسمر .. ضباب فجر الشتاء ..
على جسر لندن تدفق جمع غفير ..
لكثرته نسيت أن الموت حصد جمعًا غفيرًا
وصعدت آهات قصيرة كل حين طويل
وثبّت كل بصره أمام خطاه ..
على التل تدفق الجمع ثم هبط إلى شارع الملك ويليام ..
هناك رأيت رجلاً أعرفه فاستوقفته صائحًا:
ـ « أي (ستتسون) !
يا من كنت معي على السفائن في ميلاي ..
هل بدأت الخضرة تنبت من الجثة التي زرعتها في حديقتك العام الماضي ؟
ألا فلتطرد الكلب بعيدًا عن جنباتها
وإلا نبش بأظفاره فأخرج الجثة من جديد .. »

من قصيدة الأرض الخراب لـ (ت.س. إليوت)
ترجمة د. (لويس عوض)

1 ـ أسطورة ..

يقول (سليم) كالحالم :

ـ « أرض الظلام ! قرأت عنها فى كتب الأساطير .. لقد جربت أن أقرأ مستعملاً هذه النظارات برغم أنها ترهق البصر .. بالتأكيد ليست الطريقة المثلى للقراءة ، لكنى وجدت بعض الكتب القديمة ورحت أتصفحها للمرة الأولى من دون طريقة (برايل) .. ثمة كاتب أمريكى أصيب بفقدان البصر من ثم راح يقرأ بطريقة (برايل) ، ويقول إن المزية المهمة لهذه الطريقة هى أنك لا تحتاج لإخراج يدك الدافئة من تحت الغطاء لقلب الصفحة ! هذه هى المزية الوحيدة فعلاً ، وفيما عدا هذا أوشكت أن أرقص طربًا عندما رأيت الحروف المكتوبة .. ألا بورك فى حرف اللام عندما يلتقى مع الألف فى عناق ساحر كبجعة أسطورية .. ألا بورك فى لفة الهاء السحرية .. ألا بورك فى التقاء السين بالميم .. دعك من روعة حرف الـ Z المتلوى المصمم على التواثه ، وكيف تفتح الـ W ذراعيها للسماء بينما تفضل الـ M أن تزحف على الأرض .. قضيت الكثير من الليالى

أطالع الكتب .. وبينها وجدت أسطورة أرض يغمرها ظلام شامل .. أرض تقع فى (جورجيا) .. فى غابات (أبخازيا) ..

من هذه الأرض المظلمة تسمع أصوات الناس .. أناس لم يرهم أحد من قبل ولا يعرف كيف يبدون .. يقال إنهم أحفاد ملك الفرس (سابور) الذى سجن أتباعه للأبد فى هذه الأرض .. لقد ذهب إلى هذه البلاد كى يضطهد المسيحيين فدعوا الله كى ينتقم منه .. هكذا وجد أنه وأتباعه سجناء فى ظلمة لا يمكن اختراقها ..

ثم يصل الإسكندر الأكبر ويرغب فى اختراق هذه الظلمات أثناء بحثه عن ينبوع الخلود .. لكنه يعجز عن اختراقها بينما ينجح خادمه (أندرياس) فى اجتياز الظلمات ، ويشرب من نبع الخلود ..

هكذا عرف القدماء أرض الظلمات ..

فى الأساطير الإغريقية مملكة الظلمات هى مملكة الموتى (هيدز) التى يحكمها (بلوتو) الرهيب ، وخادمه (شارون) .. على الموتى كى يبلغوا هذه المملكة أن يعبروا نهر (ستيكس) الذى يصل بين عالم الأحياء وعالم الموتى ..

هكذا عرف القدماء أرض الظلمات .. »

* * *

انتهى (سليم) من قصته التى حكاها فى الظلام الدامس ..

فما أن فرغ حتى مددت يدى إلى القداحة وأشعلتها ..

شليك .. شليك !

على الفور عم النور المكان .. النور الذى صارت له قيمة عظمى بعد هذه القصة .. برغم أنه ليس النور الذى أصبو إليه .. إنه نور أصفر رقراق كثير الظلال ..

الآن أرى وجهه وأدرك أنه رجل وقور فى العقد الخامس من العمر .. أشيب الشعر .. وجهه مفعم بالتجاعيد لكن جسده يتمتع بقوة لا بأس بها .. لكن ما أثار قلقى هو شىء آخر لم أستطع معرفة ما هو ..

قال لى باسمًا بزاوية فمه :

ـ « لاحظ أن البصاصين فى كل مكان .. وحساسية عيون البشر لا تصدق .. عيون جائعة إلى النور متعطشة له .. يمكن

لهذه العيون أن تشم هذا الضوء الخافت عبر خصاص النافذة على بعد مائة متر .. »

أطفأت القداحة بسرعة وقد تملكنى الرعب . من جديد يسيطر الظلام على كل شىء وتتراجع المعرفة اليقينية ، لتحل مكانها معرفة تخمينية تعتمد على الأصوات .. لا أثق فى أننى عرفت شيئًا عن أى شخص ما لم أر عينيه ..

سألته فى الظلام الذى جعل تنفسى عسيرًا :

ـ « هل حقًا تعتقد أن تلك النبوءة التى تحدثت عن غريبين متشابهين حقيقية ؟ »

قال فى الظلام الخاص به :

ـ « لا أعرف .. لم أعتد تصديق النبوءات قط .. لكنى أؤمن بالقدر .. والقدر قد ساقكما لهذا العالم لغرض ما .. لا أعرف من أين جئتما لكنى أشعر بأنكما لا تنتميان هنا.. »

ـ « لكننا مجرد طفلين مذعورين لا نعرف أى شىء .. لا نعرف إلى أين نذهب ولا ماذا نفعل.. »

ـ « كلنا ذات الشخص .. »

ثم قال فى هدوء :

ـ « منذ هذه اللحظة أنتما ضيفان عندى .. لا حاجة للإقامة فى الفنادق ولا تحسس الطرقات ولا غش الأوراق المالية .. أنا مسئول عنكما .. لكنى أقترح أن .. »

وبدا فى صوته بعض الحرج :

ـ « تبدلا هذه الثياب التى أفسدت جو داري.. »

ـ « ليست ثيابنا .. لقد حصلنا عليها من بائع صحف .. »

ـ « أعرف .. لقد كنت أراقبكما .. »

هتفت (سلمى) فى جزع :

ـ « تراقبنا ونحن نبدلها ؟ لقد حسبت أن .. »

لم يعلق .. وقد كنا نحسب أنه لا أحد يرانا ..

فقط قال بلهجة عملية :

ـ « الاستحمام ثم تبديل الثياب .. بعد هذا نعرف ما ينبغى عمله. .. »

وتثاءب فى قوة .. وقال :

ـ « لقد توغل الليل .. »

ـ « هل ما زلت تستعمل لفظة ليل ؟ »

ـ « لم أكف عن استعمال لفظة (ليل) قط .. ما أحلم به هو أن أعود لاستعمال لفظة (نهار) .. »

قالت (سلمى) بعد قليل :

ـ « لاحظنا عندما توهج النور أنك تبتسم بزاوية فمك اليسرى .. هل أنت مصاب بقرحة معدية ؟ »

ساد الصمت وبدا أنه يفكر فيما إذا كنا نمزح أو نسخر منه ، ثم قال :

ـ « هل هناك علاقة طبية بين العرضين ؟ »

ـ « وتحب القطط الصغيرة وقراءة الصحف فى الحمام .. عندما كانت القراءة ممكنة طبعًا ؟ »

ـ « نعم .. لكنى لا أفهم ما الذى .. »

قلت أنا :

ـ « الأمر واضح .. (سليم) هو أقرب اسم لـ (سالم) و(سلمى) .. إن شرح الموضوع يطول لكنى دعنى أؤكد لك أننا أقرب إليك مما تتصور .. سوف نتفاهم جدًا ! »

* * *

2 ـ فلنعدْ !

كنت فى الحمام عندما سمعت الصرخة الأنثوية بالخارج ..

لم تكن صرخة (سلمى) لكنى على الأقل أعرف أنها صرخة أنثى تذبح أو تنتزع عيناها .. تحسست فى الظلام حتى وجدت من الثياب ما يستر عورتى .. سقط باقى الثياب على الأرض فغرق فى البلل .. أطلقت سبة .. وهنا انزلقت فى المغطس وأنقذت رأسى بمعجزة من أن يتهشم .. كانت أمى تقول إن الشياطين تحل بمن يجرؤ على الاستحمام فى الظلام .. عامة كانت تعتبر الحمام بقعة مخصصة للاستحواذ لا للنظافة .. ترى ماذا تقول عن كوكب كامل يضطر أفراده إلى الاستحمام فى الظلام ؟ هذه هى (الدهولة) حقًا واغفر لى هذا التعبير ، فلا شىء يعبر عن (الدهولة) إلا لفظ (دهولة) ..

هرعت إلى الخارج أتحسس طريقى فاصطدمت بشخص أعتقد أنه (سليم) .. وسمعت صوته يقول :

ـ « لا تقلق .. لكن .. أليست القداحة معك ؟ »

مددت يدى وأشعلت القداحة للحظة ..

على الأرض كانت سيدة فى عقدها الخامس قد شاب شعرها وانتفش ، وقد أراحت (سلمى) رأسها على فخذيها .. وكانت تأتى بحركات تذكرك بمرضى الصرع والزبد يخرج من شدقيها ، وقد مزقت بأظفارها منبت عنقها .. كأنها فى حالة هستيرية متقدمة .. تتنفس بسرعة وعمق منذرة بتحويل دمها إلى محلول قلوى ..

فما إن رأت النور حتى بدت على وجهها ضحكة بلهاء كأنها طفل يرى الشيكولاته للمرة الأولى فى حياته ..

قال (سليم) :

ـ « اهدئى يا عزيزتى .. اهدئى يا فاتن .. كل شىء على ما يرام .. »

همست فى انبهار بصوت كأنه الفحيح :

ـ « ضوء ! »

ـ « نعم .. أنت بخير .. والآن سيسود الظلام من جديد .. »

بدأت تهدأ قليلاً وفهمت من تنفسها أنها نامت ..

قال لى فى الظلام :

ـ « فاتن .. زوجتى .. أولئك الذين عرفوا النور فى شبابهم يصابون بنوبات جنون كهذه من حين لآخر لأنهم يشعرون بأن الظلام يجثم على أنفاسهم ويخنقهم .. إنهم لا يصدقون .. أما من ولدوا بعد الظلام فلا يمرون بأعراض كهذه .. »

قلت :

ـ « هذا طبيعى .. قارن بين آلام السيدة التى فقدت طفلها والسيدة التى لم تنجب قط .. الثانية لم تملك قط ما تخسره .. »

وهكذا هدأت الأمور قليلاً .. أفهم تماماً ما تشعر به هذه البائسة .. لولا القداحة فى جيبى لجننت منذ زمن ..

لا أعرف إن كان بوسعى أن أثق بـ (سليم) أم لا ، لكنى أرجح أنه فعلاً نسختنا الجينية هنا .. دعك من أن ما سكبه عندى من أسرار كفيل بأن يفتك به .. هو لن يجازف إلى هذا الحد .. لو وقعت فى يد الشرطة لكانت هذه نهايته ..

* * *

فى ثلاثة الأيام التالية عرفت الكثير عن هذا العالم .. الآن أفهم التفاصيل كلها .. كيف يأكلون ويشربون .. اعتمادهم التام على أجهزة المذياع التى تعمل بخلايا بيولوجية ..

فهمت أن كل الحكومات تؤدى عملها كما كانت ، لكنها ملزمة بالولاء للقومندان الذى يعتبر القائد الأعظم .. إن ما يملكه من صواريخ نووية يجعل الطاعة واجبة له خاصة أنه يرى وهم لا يرون .. أجهزة الإبصار التى يملكها رجال الشرطة مرتبطة بإشارة إلكترونية يومية تجعلها تؤدى عملها .. هذا يجعله مسيطرًا عليهم ويمكنه أن يعيدهم لحالة العمى إذا شعر بأى تمرد .. مهمة الشرطة ـ بالإضافة لعملها التقليدى ـ هو ضبط جريمة التعامل مع النار أو النور ، وتضاف للحكومات مهمة تحصيل ضرائب عالية تسدد إلى القومندان .. أعتقد أنه يمتص جزءًا من ثروات كل بلدان العالم ..

يظل التحليق محرمًا قرب مقره .. على كل حال انتهى الطيران من هذا العالم تمامًا .. عالم بلا طاقة .. عالم لا يبصر .. لا يمكن أن تكون له إرادة مستقلة ..

يبدو الوضع يائسًا .. لكن ـ كأية ثورة ـ كانت الجذوة باقية تحت الرماد تنتظر لحظة النهوض .. لا أعرف كيف ولا متى لكنها قادمة ..

وقالت لى (سلمى) :

ـ « أعتقد أننا لن نقدم شيئًا هنا .. لقد حان الوقت كى نرحل .. »

ـ « أنت عبقرية .. قلت لك إننى عرفت فيما مضى فتاة تشبهنى كانت تصمم على البقاء حتى اللحظة الأخيرة .. »

ـ « لا أعتقد أننا سنفيد هؤلاء القوم .. إننى مستعدة لمواجهة كل شىء بشرط أن أراه .. هذا الظلام قد أرهقنى وعذبنى بحق .. »

ثم بعد تفكير قالت :

ـ « لكن لا تصارح (سليم) بنيتنا .. إن عنده أملاً فى أن تنقذ عالمه .. تلك النبوءة اللعينة .. لو أخبرناه بفرصتنا فى الرحيل لبذل كل جهد ممكن كى يمنعنا .. »

هكذا عندما سمعت صوت (سليم) في الظلام .. وكان يكلم ابنه ، قلت بصوت عال :

ـ « (سليم) .. كان معنا جهاز طبي مهم عندما جئنا هنا .. لقد أخذه منا ضابط في قسم شرطة (....) .. ونحن راغبان في استرداده .. »

فكر حينًا ثم قال :

ـ « هم م .. هل حقًا ترغبان في استرداده ؟ هذا غريب .. هل تعرفان اسم الضابط ؟ »

ـ « لا .. ولكنه رئيس المباحث هناك و .. »

* * *

فجأة سمعت ذلك الصوت الخشن يصيح :

ـ « من أنتما ؟؟؟؟ (نصار) ! (نصار) !! »

ثم سمعت صوت رجل يتكلم بلهجة ريفية قليلًا :

ـ « أوامرك يا (محسن) باشا .. »

ـ « من هذان ؟ وكيف مرا ؟ ألم تسمع صوت الخطوات ؟ »

بدا لي الأمر مألوفًا .. لكن هذا الظلام الدامس ..

* * *

قلت بصوت عال :

ـ « اسمه (محسن) بك أو باشا .. »

ـ « هذا يسهل الأمور .. يمكن أن آخذكما هناك حيث تحاولان إقناعه .. أنتما تعرفان مواصفات الجهاز طبعًا .. »

قالت (سلمى) :

ـ « المشكلة هي أننا نخشى أن تكون أوصافنا عند الشرطة بعدما ارتكبنا جريمة النار .. »

ضحك كثيرًا ، وقال :

ـ « أوصاف ؟ أنت متفائلة حقًا .. الشرطة لا تعرف سوى أنكما اثنان .. لا أعتقد أن هذا كاف لاعتقالكما .. غدًا آخذكما إلى هناك .. لكن تذكرا ألا تأخذا القداحة معكما .. معنى هذا أن تموتا داخل القسم ذاته .. »

* * *

3ـ الجهـــاز ..

على باب قسم الشرطة وسط الذين يدفعوننا فى كل اتجاه قال (سليم) :

ـ « سوف أبقى هنا .. كونا لبقين سريعى البديهة .. »

مضينا نتحسس طريقنا ونسأل كل من نصطدم به .. مكفوفان يســألان مجموعــة من المكفوفين .. رحنا نشق الزحام نحو الغرفة التى بدأت منها المغامرة .. بدأت منها كل مغامرة فى الواقــع ..

فجأة همست (سلمى) :

ـ « كلاب ! »

تصلبت وأصغيت .. بالفعل هناك كلاب قريبة .. كلاب تنبح متحفزة منذرة بالويل .. وشعرت بالتوتر يزحف على مؤخرة عنقى .. ماذا لو كانت هذه بعينها هى الكلاب التى ..؟ ماذا لو كانت لم تنس رائحتنا بعد ؟ إنها تنبح فى غضب .. فلماذا تنبح فى غضب ؟ وتوقعت أن أجد تلك الأنياب تطبق على ساقى أو عنقى فى أية لحظة ..

تظاهرنا بأننا لا نخشى شيئًا .. كلاب تطبق على عنقك ؟ هذه تفاهات !

وعلى الباب شعرت بمن يضع كفه فى طريقى ليمنعنى من الاستمرار ..

قلت هامسًا :

ـ « (محسن) بك .. نريد لقاءه.. »

جاء صوت (نصار) الحارس الواقف على الباب الذى صرت أحفظه وهو يتساءل :

ـ « والسبب ؟ »

ـ « إنه احتفظ بجهاز طبى يخصنا .. كان هذا منذ أسبوع تقريبًا .. »

ـ « انتظر لحظة .. »

ماذا أنتظره بالضبط ؟ وفجأة شعرت بقطعة صلصال باردة تلتصق بأذنى ..

لقد صار الأمر خطرًا .. إننى أترك بصماتى فى كل صوب ، ولو كانت لديهم بصمات الفندق فإن أمرنا قد انتهى فعلاً ..

لم يكن عندى سوى حل واحد .. (سلمى) تعقص شعرها فلن توجد خصلات مزعجة .. مددت يدى متظاهرًا بالخرق لأنتزع قطعة الصلصال من يد (نصار) ، ومن ثم حولتها إلى عجين ..

تراجعت فى الظلام خطوة لأجعل (سلمى) تقف فى موضعى بالضبط .. بينما صاح (نصار) بلهجته الريفية المغتاظة :

ـ « هل أنت غبى ؟ لا تمد يدك على القالب ! »

ـ « معذرة .. أنت فاجأتنى .. »

ومرت ثانية أخرى .. لابد أنه ثبت قالبًا جديدًا على أذن (سلمى) .. ثم سمعت صوته يصيح :

ـ « انتظرا هنا .. »

ما أن توارى الصوت حتى سمعت (سلمى) تهتف فى غيظ :

ـ « ما هذا الشىء المثير للاشمئزاز ؟ »

ـ « صلصال طبعًا .. وكان هذا هو الحل الوحيد .. أن أستبدل ببصمات أذنى بصمات أذنك .. ليست لديهم هذه الأخيرة .. لن أجازف بأن يخرج من يقول إنهم عرفوا سرنا .. من حسن الحظ أنك لم تملئى الدنيا صراخًا .. »

جاء صوت (نصار) الخشن يقول :

ـ « ادخلا .. »

نحن الآن فى غرفة رئيس المباحث .. لا أرى شيئًا لكنها باردة جدًا ككل شىء هنا .. أسمع صوته يقول فى غلظة :

ـ « ماذا تريدان ؟ »

عدت أحكى القصة الملفقة عن جهاز تنظيم الضربات الذى تعتمد عليه حياتى كلها .. وطلبت منه أن يعيده لى .. يبدو أننى حكيت هذه القصة ألفى مرة حتى اليوم .. سمعت صوت مكتبه يفتح وسمعته يقول :

ـ « لم أعرف ما هو .. لا أحد يعرف .. لكن ما دمت بحاجة له سأعيده لك .. »

هذه الحيلة لا تفشل على الأرجح .. لا أحد يرغب في أن يتسبب في موتى ما دام الجهاز غير مفيد وغير ضار .. لا أحد يرغب في مجازفة كهذه ..

ـ « بالمناسبة .. لاحظت أن قالب أذنك صغير كآذان الفتيات .. هل أنت صغير الحجم ؟ »

هكذا فهمت أنه لا يلبس نظارات رؤية ليلية .. غريب أن يمارس ضابط المباحث عمله وهو عاجز عن تفحص المتهمين في شك أو إلقاء نظرات نارية على الناس ..

قلت في تواضع مرح :

ـ « صغر الحجم وراثي في أسرتنا .. »

وشعرت بالجهاز الثمين في يدي .. تذكرة العودة التي ضاعت منا واستردناها .. تذكرة العودة إلى عوالم مضيئة فيها نور وكتب وشمس ..

صحت بلسان متهدج وأنا أقاوم الرقص طربًا :

ـ « شكرًا .. شكرًا على تفهمك.. »

في ضيق (أمني) قال :

ـ « لا أريد أن أسمعكما هنا ثانية.. »

هذا هو البديل العصري لعبارة (لا أريد أن أراكما هنا ثانية) ..

وتحسسنا طريقنا إلى الخارج ، واعتصرت يدها وهمست :

ـ « ما رأيك ؟ هنا والآن ؟ »

قالت هامسة :

ـ « لابد لي من الرؤية .. لا أحفظ أماكن الأزرار .. فلننتظر حتى نعود إلى الدار .. »

وعلى الباب مددت يدي وصحت :

ـ « (سليم) ! »

فجاءني صوته :

ـ « أنا هنا .. سبع أم ..؟ »

ـ « سبع .. لكنه سبع بحاجة إلى قبس ضوء خفيف .. »

* * *

4ـ القلعـــــة ..

انتهى الحفل فى ساعة مبكرة من صباح الاثنين ..

فرغت الراقصات الإيطاليات من أداء فقرتهن فهرعن وراء الكواليس .. على حين انتشر الخدم الهنود هنا وهناك يقودون الضيوف إلى حجراتهم ..

كانت (باولا ماريانشى) الراقصة الإيطالية ذات العشرين ربيعًا تتوق إلى تدخين لفافة تبغ لأول مرة فى حياتها ؛ لذا اتجهت إلى الشرفة المفتوحة ووقفت ترمق العالم أمامها ..

كان الفجر يقترب كما قلنا لكنها لم تستطع رؤية نذره الأولى ، لأن الإضاءة الشمسية الصناعية فى الشرفة تجعل هذا مستحيلاً .. قيل لها إن هذه هى الطريقة الوحيدة كى لا تتجمد لأنها فى أعلى بقعة من العالم .. كل القاعات تتمتع بتدفئة ممتازة ، بينما الشرفات وساحات الرياضة تضاء بشمس صناعية .. هذه القلعة تستهلك وقودًا كان يكفى دولة صغيرة منذ بضعة أعوام ..

قالوا لها إن التنفس صعب فى الشرفة وإن عليها أن تضع قناع الأكسجين .. لكنها لا تشعر بأن هناك مشكلة .. من العسير نوعًا أن تدخن بقناع أكسجين على وجهها ..

أشعلت لفافة التبغ بالقداحة التى أعطاها إياها الجنرال (كريلوف) فى بداية السهرة .. شعور مذهل هو أن تستطيع أن تصنع النار بأداة صغيرة كهذه .. كانت (باولا) فى بلادها مدمنة تبغ ، لكنها تمضغه كما يفعل الجميع ..

سمعت صوت أحدهم قادمًا ، ولم تحتج إلى أن تلتفت لترى من .. منذ بداية الأمسية لم يتركها الجنرال (كريلوف) لحظة .. هذه هى مأساة المرأة الجميلة .. إنها لا تستطيع أن تظل وحدها لحظة واحدة ..

الجنرال (كريلوف) لا يحمل سمات العسكريين .. إنه قصير القامة أصلع .. لابد أنه يعانى مركب الرجل صغير الحجم ، لأنه يتصنع خشونة معينة فى صوته ويحاول أن يبدو عدوانيًا مقتحمًا ..

فى يديه كأسان من الفودكا ، ومن الواضح أنه يريد أن تشرب معه ..

ـ « هل تستمتعين بمطلع الفجر يا عزيزتى ؟ »

كان يتكلم الإنجليزية الرديئة وهى اللغة الرسمية للكلام فى برج (بابل) هذا ..هزت رأسها أن نعم وهى تتمنى لو أنه يتركها قليلاً ..

ناولها كأسًا ثم رفع كأسه بحركة تمثيلية ، وقال :

ـ « نخب أجمل عينين زارتا قلعة (القومندان) .. »

وجرع كأسه مرة واحدة ثم طوحها وراء كتفه كعادة الروس .. لم تسمع من قبل من يقول إن عينيها جميلتان .. السبب هو أن أحدًا لم يرهما من قبل ..

كانت هى ترمق المنظر من الشرفة .. شعور غريب بحق أن تجد نفسك فوق الغيوم .. الغيوم تبدو لها كأنها أرض يمكن أن تترجل وتمشى فوقها .. أرض فيها جبال وهضاب ووديان ..

أما ما يدير الرأس بحق فهو أنها فوق مستوى الظلام ذاته ..

قال الجنرال :

ـ « نعم .. أعرف ما تفكرين فيه .. نحن هنا فوق السحابة السوداء التى يغرق فيها البشر .. نحن فوق مستوى الظلام

والليل الكثيف .. لا يفصلنا شىء عن ضوء الشمس .. لكننا ندفع ثمنًا غاليًا هو قلة الأكسجين والبرد القارس .. »

دوى هدير محرك ..

واستطاعت أن ترى الطائرة التى جاءت بها والفرقة تطير فوق الجبال مبتعدة ..

سألته :

ـ « كيف يرى طريقه للهبوط ؟ »

ـ « تقصدين تحت مستوى السحابة السوداء ؟ بالطبع يعتمد على أجهزة الرؤية فى الظلام .. يستعمل وقودًا بيولوجيًا خاصًا لأن البترول لم تعد له قيمة .. »

كانت ترمش بعينيها غير مصدقة ..

للمرة الأولى منذ عشرين عامًا تعرف معنى البصر .. تستعمل هذين العضوين الموجودين تحت جبهتها .. وقد جعلها هذا تجن تمامًا .. راحت ترقص كالمخابيل أربع ساعات .. وكانت الراقصات اللاتى جنن هنا من قبل يتبادلن النظرات الضاحكة .. هذه أعراض الإبصار التى مرت بهن جميعًا ..

لقد كانت الضربة قوية .. فجأة استعملت عينيها وصارت تعرف معنى كلمة (نور) .. فجأة هى فوق قمة العالم .. فجأة هى فوق الغمامة ذاتها .. فوق الظلام .. فجأة هى فى قصر القومندان الذى تسمع عنه منذ جاءت إلى العالم ..

كل هذا أفقدها صوابها فعلاً ، فصارت على استعداد لعمل أى شىء كى يُسمح لها بأن تبقى هنا ..

سألت الجنرال دون أن تنظر له :

ـ « هل رأيت القومندان من قبل ؟ »

قال فى ارتباك :

ـ « مرتين لا أكثر .. ليس مولعًا بالظهور .. »

ـ « كيف يبدو ؟ »

ـ « إنه راهب من رهبان التبت .. يبدو مثل الدلاى لاما .. »

طبعًا لم تكن قد رأت صورة الدلاى لاما .. لم تر أية صورة لأى شخص فى حياتها ..

ـ « لكنكم هنا منذ زمن .. »

ـ « نحن قادته .. ونحن من يدير كل شىء ونبلغه بالتفاصيل .. »

فجأة حلقت طائرة أخرى فوق الرءوس .. وسرعان ما توارت وسط الغيوم السود ..

سألته فى دهشة :

ـ « ما سر هذا النشاط ؟ »

ـ « لا يوجد سبب معين .. فقط هناك نبوءة .. تعرفين أن هؤلاء القادة جميعًا يؤمنون بكلام المتنبئين منذ عهد (هتلر) حتى اليوم .. النبوءة التى وصل لها القومندان هى .. »

وفكر قليلاً ثم أردف :

ـ « لا أدرى لماذا أحكى لك كل هذا . لكن لا ضرر منه على كل حال فجميع النبوءات هراء .. النبوءة تتحدث عن شخصين متشابهين تمامًا أحدهما ذكر والآخر أنثى ، وقد جاءا من عالم آخر .. هذان سوف يعيدان معنى النور لهذا الكوكب التعس .. عامة يشعر القومندان بقلق من هذه النبوءة ، ودوريات الأمن

نشطة أكثر من أى وقت آخر . فى الحقيقة لا أحب أن أرى رجلاً عظيمًا مثل القومندان يضيع وقته فى هذا السخف .. »

ثم أشار إلى الأفق وهتف :

ـ « الآن ترين اللمسات الأولى للفجر .. الشمس تظهر فى الأفق الشرقى .. سوف يخيل لك أنها تتحرك .. الحقيقة أن الأرض هى التى تتحرك .. سوف يحمر الأفق وترين مشهدًا لن تنسيه .. »

يتكلم بفخر كأنه هو المسئول عن هذا المشهد الجليل ..

كان قلبها يخفق وصدرها يعلو ويهبط ..

قال لها الجنرال :

ـ « هناك كلمة تسمعينها لأول مرة .. نقولها فى ظروف كهذه (صباح الخير) .. »

نظرت له فى عدم فهم فعاد يكرر الكلمة :

ـ « صباح الخير .. صباح جميل .. جود مورننج .. بونجور .. جوتن مورجن .. بونجورنو بلغتك .. داو بروى أوترا بلغتى .. هذا هو الصباح لذا تتمنين لأصدقائك أن يكون جميلاً.. »

أول صباح تراه فى حياتها ..

هذه لحظات أسطورية .. سوف تموت وهى لا تحمل من كنوز إلا هذه الذكريات ..

تصوروا أن المسنين يزعمون أن هذا المشهد كان يوميًا ! هى التى لا تفهم أصلاً معنى كلمة (مشهد) .. يقولون إنه كان مجانيًا .. هبة مجانية من الخالق الأعظم .. كيف ؟ لو أن المرء ذبح نفسه الآن فلن يكون ثمنًا كافيًا لمشهد كهذا ..

انفجرت فى البكاء ..

قال الجنرال فى وقار :

ـ « نعم .. نعم .. أعرف ما تشعرين به .. هذا البهاء لنا وحدنا .. كان من حق الجميع فصار من حق الصفوة .. إننا سادة العالم بلا مبالغة .. ألا يدير هذا رأسك ؟ »

كان فيل أزرق كبير يطير فى الهواء نحوها فتراجعت فى ذعر .. ورأته يدخل كأسها ليذوب ..

هتفت غير مصدقة :

ـ « الفيل الأزرق .. لقد .. »

قال الجنرال :

ـ « آه .. هذه علامات نقص الأكسجين وقد أثرت على الدماغ .. أرى أنه من الأفضل أن ندخل الآن .. إن تركيز الأكسجين بالداخل عال .. »

قررت بالفعل أن تدخل قبل أن ينزلق لسانها بفعل هلاوس نقص الأكسجين وتتكلم أكثر من اللازم ..

لو عرف الجنرال أنها من الضونيين وأنها تتجسس على القلعة ، فلسوف يلوم نفسه ألف مرة على كل هذه الثرثرة الحمقاء .. كل الرجال يتحولون إلى بلهاء أمام فتاة جميلة .. لكنهم عندما يفيقون يتحولون إلى وحوش ..

وهى لا ترغب فى أن ترى الجنرال يتحول من أبله إلى وحش ..

* * *

5ـ نشوة النيران ..

سألنى (سليم) وهو يقودنى إلى داخل الشقة :

ـ « لماذا تحتاج إلى نور ؟ »

قلت بلهجة عارضة :

ـ « لا يمكن تشغيل الجهاز فى الظلام .. هذه عملية دقيقة .. »

ـ « سأحضر لك القداحة حالاً .. »

مددت يدى أمسك بيد (سلمى) .. سوف تكون ألعوبة قاسية مع (سليم) عندما نتلاشى أمام عينه . هو الذى علق علينا آمالاً كبرى ، لكن لا يوجد حل آخر .. هذا العالم لا يغرى إلا بالهرب ..

بعد قليل سمعت صوته يصيح :

ـ « لا أجدها .. هل أخذتها ؟ »

ـ « بالطبع لا .. »

- « إذن هى سرقت ! »

كنا على وشك تبادل الاتهامات واللوم عندما سمعنا صوت الصراخ من الخارج ..

تحسسنا طريقنا إلى مصدر الضوضاء ، وعندما شممنا رائحة الهواء الطلق لم يكن هناك من داع للمزيد من تحسس الطريق .. لقد كان هناك ضوء فعلاً .. ضوء خافت واهن مترافص لكنه كاف كى ترى.

وشهق (سليم) فى رعب :

- « (فاتن) ! »

* * *

كانت تقف هناك وحولها زحام من الناس المذعورين الذين يحجبون أعينهم بأيديهم ، بينما هى فى مركز الدائرة كأنها حاو يقدم فقرة مثيرة .. كانت القداحة فى يدها لكنها كانت قد أشعلت شمعة كبيرة عملاقة .. شمعة تمسكها فى ذات اليد التى تمسك بها القداحة ، بينما اليد الأخرى تمتد بصفحات من كتاب تشعلها من اللهب ثم تلقيها أرضًا ..

يتراجعون فى رعب غير مصدقين ..

لو كانت النار جريمة فهم لم يروا سفاحًا بهذه اللامبالاة ، ولو كانت النار كفرًا فهم لم يروا فاسقًا بهذه الجرأة ..

بالطبع كان النور الذى تصنعه واهنًا صغيرًا لكنه الضوء الوحيد لذا بدا متضخمًا .. وسل عن هذا أى مخرج مسرح عرائس .. إن طاقة النور التى لا تتجاوز حجم صفحة الجريدة تتحول فى الظلام الدامس إلى مسرح كامل ..

تشعل النار فى الأوراق وتطوح بها فى كل صوب فى الشارع وهى تصيح :

- « هذا هو النور ! تلك هى النار ! هل ترون يا حمقى ؟ هذا هو ما حرمتم منه ! استمتعوا بها ! انظروا لها ! دعوها تحرقكم وتحرق غباءكم وتخبُّطكم وجبنكم ! هل ترون كيف تبدون ؟ هل ترون شارعكم ومدينتكم ؟ كل ما عشتم تتحسسونه ولا تعرفون عنه إلا ما تتيحه حاسة اللمس .. واللمس خادع يا أغبياء ! هلموا ! »

صرخ (سليم) وهو يغطى عينه :

- « (فاتن) يا بلهاء ! كفى عن هذا ! »

مددت يدى أمنعه من اللحاق بها وهتفت :

- « لا تكن غبيًا ! »

من جديد تشعل المزيد من الأوراق وتطوح بها ..

- « هلموا يا حمقى .. متعوا أعينكم قبل أن تموتوا ! »

كان علىّ أن أعرف هذا .. ليس من الحكمة أن تترك القداحة مع امرأة أصيبت بحالة هستيريا بسبب الظلام .. لقد رأت القداحة وتذكرت نشوة النور .. بعد هذا تركناها معها .. إن لم يكن هذا هو الغباء بعينه ، فما اسمه ؟

ومن بعيد سمعت صوت سرينة سيارات الشرطة ..

ابتعدى يا حمقاء !

كان منظرها مثيرًا للشفقة بثياب البيت الرثة وشعرها المنكوش الذى لم تعن به منذ عقود .. وبدا واضحًا أنها مأساة إغريقية توشك أن تحدث ..

صحت فى (سليم) :

- « فلنبتعد ! »

لكن الكلام على هين .. إنها زوجته .. حبيبته منذ أيام الدراسة برغم أننى أشك نوعًا فى صدق هذه الحقيقة .. أو على الأقل أشك فى أنه يحتفظ لها بالحب ذاته وهو يراها بهذا المنظر ..

سمعنا صوت الكلاب .. وقبل أن نفهم ما يحدث كان كلبان عملاقان يثبان فى الهواء وسط ضوء اللهب المتراقص ..

صرخ الناس وتراجعوا .. الغريب أننا فى الشارع لكن الإضاءة توحى بأننا فى كهف .. لا نفهم ما يحدث بالضبط .. الكثير جدًا من الظلال ..

فقط أدركت أن هناك كلبين يجثمان عليها وأنها تقاوم وتصرخ ..

ثم ظهر رجال الشرطة بنظاراتهم التى تشعرك بأنك ترى نملة عملاقة .. لن يقتلوها .. لابد من الاستجواب أولاً .. معها قداحة فمن أين جاءت بها ؟ لن نؤذيك يا سيدتى .. فقط قولى لنا من زوجك ؟ كيف نعتقل الغريبين المتشابهين اللذين ينزلان ضيفين

عندك ؟ إنهما الغريبان اللذان أضاءا القداحة فى مدخل الفندق .. أليس كذلك ؟ من أين جاءا ؟ ما هذه النار القوية ؟

كنت أجرُّ (سليم) مبتعدين عن هذا المشهد .. لقد تحول إلى طفل مذعور كبير لا يعرف ما يجب عمله .. اعتقال زوجته يعنى اعتقال ابنه .. هذا رجل فقد أسرته فى بضع ثوان والسبب قداحة ..

كان يردد بلا انقطاع :

ـ « اتركنى .. يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت معها .. »

قلت له وأنا أجرُّه فى الضوء الخافت القادم من المحرقة :

ـ « اسمع .. لم يعد لك مكان فى هذا العالم .. يجب أن تثق بى .. سوف ترحل معنا .. »

ـ « إلى أين ؟ »

ـ « لا أعرف .. لكن إلى مكان ليس هنا .. »

واعتصرت ساعد (سلمى) الأيسر وقلت لها :

ـ « يجب أن تحاولى .. استعملى هذا الضوء فلا يمكن الانتظار إلى أن تشرق الشمس .. »

وباليد الأخرى اعتصرت كتف الزوج المنكوب ..

قالت وهى تقرب عينها من الجهاز :

ـ « سأحاول .. (143- ج - 1) .. ما رأيك ؟ »

قلت فى غيظ بسبب غباء السؤال :

ـ « يبدو محببًا .. إن العوالم التى تبدأ بـ 143 تكون مبهجة .. هذه قاعدة .. »

ضغطت الأزرار وهى تلهث ..

سوف يندهش (سليم) من الرحلة القادمة ، لكن فى الوقت متسعًا لفهم كل شىء ..

ـ « هيا ! »

ـ « لكنى فعلت ذلك ! »

وعادت تضغط على زر الإدخال مرارًا .. لا شىء ..

قلبت الجهاز وتفحصت البطاريات .. إنها فى مكانها ..

قال (سليم) :

ـ « هل تستعملان هذه الأشياء ؟ ألا تعرفان أنه لم يعد لها قيمة فى عالمنا ؟ ككل شىء تلاشت الطاقة منه ، فرغت كل البطاريات خلال أيام .. أعتقد أن جهازكما هذا قضى فترة كافية ليفرغ كأى جهاز آخر ! »

* * *

6 ـ الضونيون ..

فى الظلام مد (فيتوريو) يده يتحسس الشكل المصنوع من الصلصال ..

هناك مرتفع هنا ومنخفض هناك .. هناك فجوة .. هناك ممر ضيق بين جبلين ..ثم توقفت أنامله عند مجموعة من البروزات التى صنعت من أعواد ثقاب متلاصقة ، وقال :

ـ « من أين جئت بالثقاب ؟ »

ـ « أحب الاحتفاظ بهذه الطرائف .. »

عاد يواصل التحسس ثم تساءل :

ـ « إلام يرمز هذا ؟ »

ـ « أعتقد أنه يرمز للصواريخ عابرة القارات .. »

توقفت يده عند برج مرتفع .. وعاد يسأل :

ـ « هذا .. ما هو ؟ »

مدت (باولا) يدها حيث أشار ، وراحت تتحسس ثم قالت :

ـ « لا أعرف .. لكنه شديد الأهمية .. هناك حراسة مكثفة من حوله .. »

قال (فيتوريو) وهو يمضغ بعض التبغ كعادته :

ـ « على كل حال أنت أجدت استعمال عينيك يا (باولا) .. نحن الآن نفهم كل مخارج ومداخل هذه القلعة .. إن الضونيين سوف يسعدون بهذه الأنباء .. »

قالت في رضا :

ـ « الخبر الأهم هو موضوع فرقة العمال التى سيتم نقلها إلى هناك .. إنهم بحاجة إلى أعداد أكبر من العمال .. وهؤلاء العمال سيكونون من عدة بلدان .. »

ـ « وهذا يعنى أننا سنكون هناك .. »

لم تكن (باولا) قد رأت (فيتوريو) من قبل .. فهى لا تملك تلك النظارة السحرية ، لكنها تعتقد أنه وسيم فارع القامة .. لا تعرف بالضبط معنى كلمة (وسيم) وتعرف معنى (فارع) بالتقريب .. لكن كل شىء قد تغير فى هذا العالم على كل حال ، بحيث صارت للأذن قدرة هائلة على التمييز وتكوين

الشخصيات .. (الأذن تعشق قبل العين أحيانًا) .. هذه الشطرة من الشعر العربى لم تسمعها لكنها تعبر عما فى ذهنها يقينًا ..

بالطبع (الأذن تخدع قبل العين أحيانًا) أمر وارد .. هناك مكفوفون كثيرون تعلقوا بصوت فتاة ، بينما هى لا تتمتع بأى جمال .. لكن العبرة هى عين الروح وما تراه ..

لقد كان (فيتوريو) يعرف كل شىء ويفعل كل شىء .. ورث هذا كله عن أبيه الذى كان معارضًا قويًا وقتله الفاشيون .. وعندما ساد الظلام ظل (فيتوريو) مقاتلاً عنيدًا .. لا تعرف كل ما يعرفه لكنها تعرف أنه همزة الوصل بين الضونيين فى أكثر من مكان .. برغم أن العالم صار شاسعًا مترامى الأطراف كما كان منذ ألف عام ، فإن هؤلاء القوم وجدوا أساليب لتبادل المعلومات .. هناك الطريق البرى وهناك أجهزة اللاسلكى الواهية التى تعمل ببطاريات بيولوجية ، وهناك الحمام الزاجل .. سلالات الحمام الجديدة التى ولدت عمياء ، لكنها تعلمت الاعتماد على حواسها .. فى عالم كهذا تجد المخلوقات طرقًا غريبة .. النحل كان يضل طريقه لأنه لا يستطيع رسم زاوية مع قرص الشمس كما كان يفعل للعودة إلى خليته .. ظهرت سلالات جديدة

تعتمد على حواسها .. وعلى كل حال صار جنى العسل عملاً محفوفًا بالمخاطرة فعلاً ..

لم يكونا وحدهما .. فمعهما شاب يدعى (ستافرو) وشاب يدعى (ريكاردو) وفتاة تدعى (سيمونيتا) .. الشابان يضعان النظارات الليلية طبعًا ، فمن الوارد أن تكتشف أنك تتآمر فى وجود عشرة رجال شرطة من حولك ..

لم يكن (فيتوريو) يثق بالإيطاليين كثيرًا برغم أنه منهم .. كان يعتقد أنهم لا يتمتعون بالصلابة ولا يمكن الاعتماد عليهم .. (موسولينى) العجوز خذل (هتلر) مرارًا حتى آمن هذا الأخير أن الإيطاليين شعب خال من إرادة الحرب أصلاً .. يبدو أن الرومان لم يتركوا شيئًا من دمهم فى عروق الأحفاد .. لو تمت هذه العملية فلابد من الاستعانة بشعب قوى الشكيمة .. وكان يثق بالألمان من بين شعوب أوروبا ..

قال (ستافرو) :

ـ « كل شىء يوحى لنا بقرب اللحظة .. هذه أكمل صورة مجسمة لقلعة الجبل .. الأخبار القادمة من الخارج تقول إن التوءمين ظهرا .. المتشابهان اللذان قيل إنهما سيحرران عالمنا .. »

قال (فيتوريو) فى غيظ :

ـ « دعنا ننس هذا الهراء .. كل شعب من الشعوب ينتظر قدوم مخلّص ما .. كانت هناك قصص مصورة تدعى (ماتريكس) كنت أقرؤها فى صباى ، وكانت تتحدث عن عالم ينتظر قدوم (المختار) ليحرره من الآلات الحاكمة .. أرى أننا ندخل ذات الدائرة الآن .. »

قال (ستافرو) بصوته الرفيع المميز :

ـ « يقال إنهما ظهرا فى مصر .. لا أرى ما يمنع من الاتصال بهما .. »

قالت الفتاة :

ـ « حتى القومندان يؤمن بهذه القصة ، وقد وصل لها بطريقة منفصلة عنا .. هذا يعطيها بعض المصداقية .. »

قال (فيتوريو) :

ـ « لا أعرف كيف يمكن إدخال اثنين من مصر فى قصة كهذه .. لكن لا مانع من محاولة الاتصال بهما .. هل تعرفون السبب ؟ السبب سيكولوجى قبل كل شىء .. إن كنت تؤمن بهذه الخرافة فلتعرف أن المنقذين معنا نحن بالذات .. »

ثم هتف وهو يعيد تحسّس المجسم :

ـ « هذا الجزء المبهم الذى يحرسونه بعناية .. أريد معرفة ما فيه .. كل نظام محكم له كعب أخيل (Achilles' heel) .. نقطة ضعف مخفية تؤدى لانهيار كل شىء .. فهل هذا هو (كعب أخيلهم)؟ »

قالت (باولا) :

ـ « وكيف نعرف ؟ »

ـ « سنعرف عندما نعرف ! والآن ليتحسس كل منكم هذا النموذج بعناية .. ليحفظه عن ظهر قلب .. بعد هذا سوف ندمره لأن وجوده معنا كاف لإعدامنا بلا محاكمة .. »

وغمغم كأنما هو يذكر نفسه :

ـ « اثنان فى مصر .. هم م م .. هذا مثير .. »

* * *

7ـ سنكون هنـاك ..

قال لى (سليم) :

ـ « أنت لم تكن صريحًا معى منذ البداية .. ولو سألت لأجبتك .. لا يمكن لهذا الجهاز أن يعمل إلا لو وصلت إلى قلعة القومندان .. »

قلت ضاحكًا فى هستيريا :

ـ « جميل .. جميل .. ولماذا لا أجربه على كوكب (أورانوس) ؟ »

ـ « لا أعرف ما هو كوكب (أورانوس).. »

كلما نسيت نفسى تذكرت أننى على كوكب آخر .. وأن هذا الأخ كائن فضائى غريب ! هم لا يعرفون كوكب (أورانوس) فلا مانع أن يكون اسمه عندهم (عباس) أو شيئًا من هذا القبيل ..

قلت له :

ـ « أردت القول إن هذا شىء مستحيل .. معنى هذا أننا فعلاً غير قادرين على مغادرة عالمكم .. »

قال فى ضيق :

ـ « لا أصدق حتى اللحظة موضوع العوالم الموازية هذا .. لكنى أعرف شيئًا واحدًا هو أن كل مصادر الطاقة لا تعمل إلا فى قلعة القومندان لأنها فوق مستوى الظلام .. هناك الشمس والنار والكهرباء وطاقة الوضع وطاقة الحركة والطاقة الذرية .. كل شىء .. كل طاقة سمعت عنها فى كتب الفيزياء تعمل بكامل قواها .. »

قالت له (سلمى) فى لهفة :

ـ « وكيف نصل هناك ؟ »

صحت بها :

ـ « هل جننت ؟ »

قالت ببرود :

ـ « بالعكس .. الجنون هو أن نبقى هنا فى الظلام بلا أمل .. من الأفضل أن نموت ونحن نحاول .. »

ثم سألته :

ـ « هل تعتقد أن بوسعك مساعدتنا ؟ »

قال بعد فترة صمت قدرت أنه يفكر أثناءها :

ـ « هذا يحتاج إلى الكثير من الاتصالات .. لكنى سأرى ما يجب عمله.. »

الحقيقة أنه كان فى مأزق هو الآخر .. لقد صار عاجزًا عن العودة إلى داره .. الأجمل هو أننا جميعًا اضطررنا لاستبدال ثيابنا بثياب متسخة قذرة لأن الكلاب بالقطع صارت تحفظ رائحتنا .. كنا نعيش فى الشارع أو نزحف إلى أن نبلغ بيت أحد الضوئيين ممن يعرفهم لنمضى بعض الوقت هناك .. كل هذا من دون النظارات طبعًا .. لقد ترك نظارته فى بيته .. لا أخبار عن ابنه ولا زوجته ..

الحق إنها كانت حياة مرهقة ..

* * *

قال الأستاذ (شوقى) بصوت عال جهورى يميز مدرسى اللغة العربية :

ـ « ودار لها بالرقمتين كأنها

مراجيع وشم فى نواشر معصم.. »

ثم قال سائلاً :

ـ « هل تعرفون معنى (مراجيع وشم) ؟ »

ارتفع صوت رقيق لطالب يدعى (عمرو) .. هذا صوت (عمرو) ولا شك فى هذا .. يقول :

ـ « الشاعر يشبّه بقايا الدار بأثر الوشم فى معصم المرأة .. »

ارتفع صوت طالب آخر :

ـ « كيف يبدو يا أستاذ ؟ هل هو شبيه بالعروق ؟ »

كانت هذه هى المشكلة .. هؤلاء لم يروا وشمًا أصلاً .. من السُخف أن تكلمهم عن شىء لم يروه .. أن تكلمهم عن بقايا الديار ومشية الظباء والعيون اللواتى فى طرفها حور وهم لم

يروا النور قط .. لقد اتفق معهم على أن القدامى كانوا يتمتعون بشىء فريد هو أنهم يبصرون .. لم يكونوا يعتمدون على السمع لكن كانت عندهم حاسة فريدة من نوعها .. لم يفهم التلاميذ الأمر واعتبروه شبيهًا بمن يقول لك إن القبائل القديمة كانت تستعمل التخاطر الفكرى .. مجرد انبهار مع مسحة حسد ثم ينسون الأمر تمامًا ..

لكن مشكلته كانت هينة نوعًا .. التعامل مع اللغة سمعيًا أمر سهل ، والدليل أن مكفوفين كثيرين نبغوا فى اللغة .. المشكلة الحقيقية كانت تواجه مدرسى الفيزياء والكيمياء والأحياء حيث البصر جزء لا يتجزأ من المعرفة ..

هكذا كانت العلوم تنقرض بسرعة جهنمية على هذا الكوكب منذ ساد الظلام ..

سمع الهديل فمشى نحو النافذة وهو يواصل الشرح :

ـ « فلما عرفت الدار قلت لربعها

ألا عم صباحًا أيها الربع واسلم .. »

قال أحد الصبية :

ـ « هناك حمامة على النافذة يا سيدى .. أعرف هذا الصوت .. »

قال فى ضيق :

ـ « حتى لو كانت طائرة فلا دخل لك بهذا .. »

ومد يده يتحسس حتى استطاع أن يتلمس ريش الحمامة .. استسلمت لأصابعه فى حنان فمد يده يبحث عن الطوق حول ساقها وانتزع اللفافة .. كأنما شعرت الحمامة بامتنان لتحررها من هذا الثقل فردت جناحيها وحلقت أو هذا ما شعر به ..

كانت اللفافة من الورق المقوّى وقد امتلأت بالثقوب .. ثقوب تم رسمها بالإبرة وبرداءة .. فى هذا العالم لم يعد هناك علم اسمه الخط ، وإنما أنت تقيّم رموز (برايل) .. هل هى منسقة أم مبعثرة ..

تحسس الثقوب .. كانت الرسالة قصيرة لكنها واضحة :

ـ « التوءمان يجب أن يتواجدا فى المطار فى الثامنة صباح الأربعاء .. طائرة تحمل العمالة إلى القلعة.. »

فرغ من تحسس الرسالة ثم مزقها إلى قطع صغيرة وهو يواصل كلامه :

ـ « سئمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين عامًا لا أبالك يسأم .. »

* * *

كلم الأستاذ (شوقى) الدكتور (ميخائيل) فى صيدليته .. كلم الدكتور (ميخائيل) المهندس (حلمى) فى مكتب الإنشاءات الخاص به .. كلم المهندس (حلمى) الحاج (عبد السلام أبو يحيى) فى داره .. كلم هذا الأخير (شريف) فى المطعم .. كلم (شريف) (سليم) وهو يتناول الغداء عندهم ..

كلمنا (سليم) عندما اختلى بنا ..

هكذا اكتملت الدائرة ..

لقد عرفنا ما يجب أن نقوم به ..

غدًا هو بداية الحل أو نهايته .

* * *

8ـ المتسللون ..

الظلام دامس فى الطائرة .. هذا يزيد من شعورك بالكابوس الجاثم على صدرك .. أن تكون فى الظلام على الأرض فهذا محتمل .. أن ترى الضوء وأنت فى السماء فهذا معقول .. لكن أن تجد نفسك فى الظلام على متن طائرة فهذا هو الكابوس بعينه .. لا ينقصك شىء كى تشعر بأنك ميت وأن هذا هو القبر ..

العمال الجالسون فى الظلام من جنسيات مختلفة .. منهم الصينى والیابانى والألمانى والمصرى والتنزانى .. لهذا كان من حسن الحظ أن تسمع واحدًا يتكلم بذات لغتك ..

الرحلة طويلة طويلة استغرقت عدة أيام لأن الطائرة هبطت فى أكثر من مطار .. لا يعلم إلا الله كيف تعرف الطائرة طريقها فى الظلام ، لكن أجهزة القياس تؤدى كل شىء كما هو واضح .. وقود الطائرة هو الوقود الوحيد الذى أفلت من معضلة تلاشى الطاقة تلك .. إن أبحاث ذلك العالم الفقيد على الوقود البيولوجى هى مفتاح كل شىء يتحرك فى هذا العالم ..

كنت فى شبه غيبوبة .. أنا جالس حيث أنا منذ أيام .. فقط يسمحون لنا بساعة من التريض بين مطار وآخر ..

أعرف أن (سلمى) فى الطائرة الأخرى ضمن فريق الراقصات .. شىء مهين لكنه الحل الوحيد ، فلا يمكن لأحد أن يصل إلى قلعة القومندان سوى عامل أو راقصة .. إن هؤلاء السادة يعانون لذا هم بحاجة إلى ترفيه ..

فى الظلام أسمع صوت (فيتوريو) يتكلم مع جاره الإيطالى الذى أعتقد أنه (ستافرو) .. لا أعرف الكثير لكن أعتقد أن (فيتوريو) هو مدير العملية كلها .. وهو يتكلم بتلك الطريقة التى يتكلم بها الرجال الأشداء فى أفلام السينما .. سوف يكون رجال القومندان حمقى لو اعتقدوا أنه مجرد عامل بسيط ..

كان الأمر واضحًا بالنسبة لى .. سوف يقبضون علينا فور وصولنا ويرموننا بالرصاص .. فقط هناك احتمال ضئيل جدًا أن يكونوا أغبياء .. عندها يجب أن أجد (سلمى) وأمسك بيدها بينما تقوم هى بتشغيل الجهاز ..

بالنسبة لهؤلاء الثوار كان السيناريو مختلفًا .. هم يأملون أن أقودهم بذكائى وشجاعتى إلى طريقة تدمير عالم القومندان هذا ..

سوف تكون مفاجأة سارة لهم !

* * *

لقد استغرق الأمر عدة أيام حتى وجدونا وحتى قال لنا (سليم) إن الضونيين يريدون أن نكون معهم فى القلعة ..

كان هذا هو الحل الوحيد وقد جاء من سماء صافية ..

بالطبع أصابنى الهلع ونشطت قرحتى .. لست أنا أنسب شخص للتسلل للقلاع السرية لو كنت تفهم هذا ، لكن (سلمى) العزيزة كانت مصرة على رأيها :

ـ « لا يوجد حل آخر .. إما موت بطىء أو موت سريع لكن معه احتمال نجاة .. »

وهكذا جاء ذلك اليوم الذى وقفنا فيه فى المطار بثياب أخذناها من (سليم) .. هى تلبس كراقصة .. لا أعنى أنها تلبس ثياب الرقص طبعًا ، لكنها تضع الكثير من المساحيق مع معطف جلدى

طويل وطابع عام من البهرجة .. لا أحد سيرى المساحيق هنا لكنها ذاهبة إلى حيث يرون ..

بالنسبة لى ارتديت ثياب العمال البسيطة المتسخة ..

لا أعرف أين كانت الطائرات ، لكنى فى لحظة بعينها لم أعد مع (سلمى) .. لقد لحقت بطائرتها ، أما أنا فرحت أزحف عبر ممرات مظلمة ليتلقفنى رجال أمن يتحسسون الأوراق التى أحملها والتى طبعت بطريقة (برايل) .. أوراق مزيفة طبعًا أخذتها من (سليم) .. لابد أن هناك علامة ما تميز التزييف .. علامة قاتلة وسوف يجدونها لكن هذا لم يحدث ولله الحمد ..

أخيرًا وجدت نفسى داخل الطائرة أتحسس المكان بحثًا عن مقعد خال ؛ لأنه كان هناك الكثير من الجالسين .. سمعت كلامًا بالإنجليزية والفرنسية والسواحلية .. وعرفت أن هؤلاء موجودون منذ أيام هنا ..

وفى النهاية استطعت الوصول إلى مقعد ..

وسرعان ما غبت فى نعاس عميق ..

يمكن القول إن رحلتى كانت نعاسًا طويلاً مستمرًا .. تارة أصحو من النوم وتارة أغيب فيه ، ومن حين لآخر يضع أحدهم شطيرة لحم فى يدى فألقمها ..

توقفنا مرارًا ليضاف لنا آخرون .. آخر لغة سمعتها هى الصينية .. إننا نقترب من الهيملايا إذن ..

* * *

دوّى الصوت يقول بالإنجليزية :

- « نحن نرتفع فوق مستوى الغيوم .. سوف نبدأ الملاحة اليدوية معتمدين على البصر.. »

وفجأة حدثت المعجزة ..

بدأ الظلام يقل .. فجأة تدرك أنه ليس ظلامًا متجانسًا .. تفهم السر .. لقد كان هذا الظلام المسطح عبارة عن سحب كثيفة سود .. والآن قد بدأت السحب تتباعد وتفترق .. ومن بينها تظهر السماء .. السماء الزرقاء التى خلقها الله !

النور يتسلل خافتًا لداخل الطائرة ..

تصاعدت صيحات الانبهار والاستحسان .. وردد الجميع صلوات بأكثر من لغة تنتمى لأكثر من دين .. بكى أحدهم غير مصدق .. أعترف أن دمعة تسللت لعينى بدورى .. وهمست : سبحان الله !

فجأة صار النور هو كل شيء بالخارج ونسينا أننا كنا فى ظلام دامس ..

دار الطيار قليلاً فى الجو ، ثم قال فى مكبر الصوت :

ـ « أرجو أن تنظروا من الجهة اليسرى .. »

تدافعنا لنرى ما يريد أن نراه ..

كانت هناك قمتا جبلين متقاربتان .. وخيل لنا أننا نرى شيئًا بين الجبلين ..

عندما اقتربنا أكثر رأينا أن هذا رجل .. رجل يتدلى بين قمتى الجبلين مربوطًا بجنازير قوية إلى القمتين وقد تدلى فى وضع النسر الفارد جناحيه Spreadeagled والغريب أنه كانت هناك شعلة نار قريبة منه معلقة على سارية عالية .. واضح أنها هنا لمنعه من التجمد ..

هل ما زال حيًا ؟ لا أعرف ..

قال الطيار بصوت بارد :

ـ « الاسم (دانييل أوهارا) .. إيرلندى .. حاول سرقة بعض النار من قلعة القومندان لينزل بها إلى البشر فى عالم الظلمات ، لكن الحراس قبضوا عليه .. وها هو ذا يتلقى عقابه العادل .. إن الطيور الجارحة والعواصف سوف تمزقه إربًا .. »

كان هذا درسًا قاسيا لمن يريد أن يعتبر .. إن المشهد الشنيع لا يفارق ذهنك بسهولة ..

رجل حاول أن يسرق النار فكان عقابه أن علق بين جبلين ليموت ..

يبدو الأمر مألوفًا ..

ثم تذكرت .. (بروميثيوس Prometheus) العملاق فى الأساطير الإغريقية .. أراد أن يسرق النار من الأوليمب ليمنح أسرارها لبنى البشر .. النتيجة هى أن (زيوس Zeus) عاقبه

بهذا الشكل .. وفى كل يوم يأتى الرخُ ليأكل كبده وفى الليل ينمو له كبد جديد .. رمزًا للعذاب الأزلى ..

النار .. المعرفة .. (بروميثيوس) أنقذه (هرقل) فمن لهذا البائس بهرقل آخر ؟

وارتجفت .. هذا القومندان يتصرف مثل (زيوس) وكأن قلعته هى (الأوليمب) .. إنه يعتبر نفسه إلهًا بالفعل .. وقد اختار هذه الميتة للمتمرد لأنها راقت له .. وجدها شاعرية ذات مذاق أدبى ساحر ..

فليرحمنا الله فنحن ذاهبون إلى قلعة مجنون .. والأسوأ أنه مجنون قوى جدًا ..

قطع علىّ أفكارى صوت الطيار يقول :

ـ « اربطوا الأحزمة .. »

وبدأت الطائرة تنحدر .. إنها تحاول الوصول إلى الفجوة بين جبلين مغطيين بالثلج .. ثم هى تتجه إلى ممر .. ممر طائرات عجيب تم شقُه بين سفحى الجبلين ..

متى صنع هذا الرجل هذا كله ؟ وأية إمكانيات لديه ؟

على كل حال لا يمكنك أن تحكم العالم بتكاليف أقل من هذا ..

عجلات الطائرة تلمس الممر ..

وتندفع الطائرة فى آخر خطوات رحلتها الرهيبة ..

* * *

9ـ المتحف ..

لم تكن هنالك شكوك ..

منذ اللحظة الأولى التى ترجلنا فيها أدركنا أن ذلك البرج الذى نراه من بعيد محاطًا بالحراسة هو مركز الاهتمام والخطورة فى هذا العالم المضيء ..

* * *

توقفت يده عند برج مرتفع .. وعاد يسأل :

ـ « هذا .. ما هو ؟ »

مدت (باولا) يدها حيث أشار ، وراحت تتحسس ثم قالت :

ـ « لا أعرف .. لكنه شديد الأهمية .. هناك حراسة مكثفة من حوله .. »

* * *

لم نتبادل كلمات .. فقط لم نصدق أننا نمشى فى النور .. نمشى وسط ممر طويل يعج بالحراس على الجانبين .. ثم نمشى

وسط حدائق غناء تذكرك باللوحات التى كان يرسمها فنانو (إخوة ما قبل رافائيل) .. كل شيء هناك .. النافورة والطاوس والحسناوات اللاتى يرقدن على العشب يطالعن كتبًا أو يركبن الأرجوحة ويبعثرن الأزهار .. لا ينقص المشهد إلا توقيع (جينسبورو) أو (كونستابل) فى الركن ..

إنهن بنات سادتنا طبعًا .. ولدن فى الشمس والهواء وتمتعن بالحياة النباتية .. عرفن القراءة وربما التلفزيون أيضًا ..

تذكرت حياة الآخرين فى الظلام يتحسسون الطرقات وسط الرائحة العفنة .. تذكرت شطائر اللحم الكريه الذى لا تعرف ما هو ..

لقد حدث الاستقطاب بشكل قاس جدًا ، وكما حلم به كتاب الخيال العلمى مرارًا .. سادة مترفون وعبيد معذبون .. الفارق هنا هو أن العبيد هم العالم كله .. والفارق أن هذا لم يحدث نتيجة تطور داروينى طبيعى ، بل هو لعبة قاسية أحدثها نيزك هاو ..

ربما كان ما حدث للديناصورات أفضل ..

كان الطقس باردًا بحق .. لكن السبب هو إننا على قمم الهيملايا .. ليس السبب أن الشمس لا وجود لها ..

هذا يفسر لك المصابيح المتناثرة فى الحدائق .. إنها تخلق جوًا صناعيًا من الدفء .. لن تبدو هاته الحسناوات قادمات من عالم (جينسبورو) لو أن كل واحدة منهن ترتدى (بول أوفر) بدلاً من تلك الغلالة الرقيقة ..

صاح أحد العمال الأسبان القادمين معنا بعبارات غزل .. أعتقد أنها عبارات غزل .. لأن مرأى الحسناوات أفقده صوابه .. من المبهر أن ترى حسناء لكن الأكثر إبهارًا أن (ترى) أصلاً ..

للأسف سمعه أحد الحراس وعلى الفور انهال عليه حارسان ضربًا بكعب البندقية مع الكثير من الركلات ..

هكذا واصل الموكب مسيرته فى صمت وأدب .

* * *

هل ترى هذه البناية العملاقة ؟ يمكن بسهولة أن تدرك أنها المتحف هنا .. من النوافذ الخفيضة المغطاة بالزجاج ترى خليطًا عجيبًا من لوحات عصر النهضة والآثار الأشورية والفرعونية .. هناك أجزاء تذكرك بمتحف اللوفر ذاته .. هناك رأس كبير (لأمنحتب الثالث) فى المدخل وسط الأشجار ..

هناك قوم من جنسيات مختلفة يبدو عليهم الرقى يحملون كاميرات التصوير .. منذ متى لم أر كاميرا تصوير ؟ إنهم ينظرون لنا فى مزيج من الدهشة والاستمتاع ..

من الواضح أن هناك أرستقراطية كاملة قد تكونت من رجال القومندان وأسرهم وأصدقائهم هنا .. هؤلاء القوم الذين تربوا فوق الظلام وعرفوا معنى النور .. بالطبع استجلبوا لأنفسهم كل ما يجعل حياتهم هنا ممتعة .. حتى آثار الأمم الأخرى وكنوزها .. فى هذا شىء من المنطق على كل حال .. إذ ماذا يفعل بهذه الكنوز قوم لا يبصرون ؟

كنا نمر بهم .. كأننا جيش من العبيد لا نجرؤ على الالتفات ولا تبادل التعليقات ..

وقلت لنفسى : هذا لن يدوم للأبد .. طبيعة الأمور أن هذا لن يدوم للأبد .. منذ خلق الله الأرض والماء لا يبقى أبدًا فى مكان مرتفع وإنما يهبط لأسفل .. لقد بُحّ صوت المعلمة فى المدرسة الإعدادية وهى تشرح لنا معنى (الأوانى المستطرقة) ..

هناك ثراء ووفرة ونور والأهم أن هذه الأشياء مسلوبة من العالم كله .. لابد من أن يهبط هذا كله إلى حيث الفقر والشح والظلام ..

ولكن كيف ؟

يبدو أن هذه الأمور على عاتقنا .. وكما يعتقد هؤلاء الإخوة فإنها على عاتقى أنا .. وهو دور لا أستطيع القيام به ولا أرغب .. دعك من أن مشهد (بروميثيوس) المعلق بين جبلين لا يفارق مخيلتى ..

فقط يجب أن أجد (سلمى) .. يجب أن أمسك بيدها ونضغط على أزرار الجهاز ..

أعتقد أننا سوف نلتقى الليلة بشكل ما ..

* * *

10 ـ الخدعة ..

لم أكن مولعًا بالعمل اليدوى .. كنت أعتبر نفسى رجل فكر ، وهو رأى لم يقره الناشر قط .. كان يرى أننى أكتب كسباك أو حفار طرق .

هذه المرة كنت أمارس عملى فى التوصيلات الكهربية بيد أديب .. لا أملك أية براعة فى هذه الأمور خاصة أننا نعمل فى أنفاق شديدة التعقيد .. ولولا التعليمات الصادرة بالإنجليزية من (أسطى) هندى يعرف ما يجب عمله لحدثت كارثة .

أعتقد أننى تركت انطباعًا عامًا بأننى لا أفقه شيئًا فى مهنة الكهرباء .. هذا ما كان ينقصنى ..

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساء بعد يوم شاق طويل .. وكنت موشكًا على فقدان الوعى ، عندما قال لى الأسطى الهندى :

ـ « هـذا الكابل يقـود لقـاعـة الاحتفالات .. أريد أن تتبعه وتتأكد مـن أنه معـزول بالكامل .. هـل تستطيع عمل هذا على الأقل ؟ »

قاعة الاحتفالات ؟ بالطبع ..

مشيت وراء الكابل وأنا أسلط شعاع الكشاف عليه .. رأيته يتلوى خارجًا من النفق صاعدًا لأعلى فالتفتُ إلى رئيسى .. أشار لى أن استمر ..

ارتقيت درجات تم تدعيمها بـالمعدن إلى ساحة مظلمة فـى الخارج .. أطفأت الكشاف ..

ووقفت آخذ شهيقًا عميقًا .. للمـرة الأولـى أنـا وحـدى .. لا توجد حراسة من أى نوع هنا .. يصعب علىّ أن أتصـور أننـى فوق قمم الهيملايا لكنها الحقيقة .. فقط هى هيملايا تم جعلها صـالحـة للحيـاة بآلاف مـن أجهـزة التدفئـة المتنـاثرة فـى كل مكان ..

مـن بعيـد أرى تلـك الأشـباح الشـامخـة مرتسـمة على خـط الأفق ..

إنها الأبراج ..

نعـم أبـراج .. فقـد عرفـت فى هذا اليوم أن هنـاك أكثـر من برج .. وكلها تحظى بـذات الحراسـة المكثفـة .. لكنـى بعيـد عنها الآن ..

فجأة بدأت الأرض تهتز تحت قدمى ..

ونظرت إلى الأفق فرأيت أن قمم الأبـراج تهتز بـلا انقطـاع .. ومنهـا يتصـاعد ذلـك المزيج الكثيـف الأسـود الـذى لا أعـرف ما هو ..

كان يتصاعد إلى السماء من أكثر من قمـة .. كأنها فوهـات مصانع تضخُ الدخان الأسود بلا انقطاع لعنـان السمـاء .. للحظة تعالى الدخان ثم بدأ يهبط لأسفل ..

وفى ذعر فطنت إلى أننى فى ظلام دامس لا أرى قدمى ذاتهـا .. لا أرى يدى ..

لكن هذه اللحظات القاسية لم تدم طويلاً لأن الدخان بدأ يتلاشى وينقشع ..

ما معنى هذا الذى رأيته ؟ هناك رسالة ما لكنى لم أتلقها بعد ..

لكن الأبراج كانت مستمرة فى الضخ بلا توقف ..

وسمعت تلك الخطوات من خلفى فأجفلت ..

* * *

نظرت خلفى فرأيت (فيتوريو) قادمًا يتعثر وسط الصخور ..

هكذا عدت أنظر أمامى ..

قال لى :

ـ « لقد تأخرت فأرسلنى الريس لأسأل عنك .. »

ثم نظر إلى الأبراج فى الأفق وهمس :

ـ « ما هذا ؟ »

قلت له فى شرود :

ـ « أعتقد أننى بدأت أفهم .. »

كان الظلام يزداد كثافة من حولنا فى هذه اللحظات ..

أردفت :

ـ « منذ جئت إلى عالمكم وأنا أتساءل عن سبب عدم انقشاع هذه السحابة التى سببها النيزك .. إن سيناريو K – T يقضى بأن تزول الحياة عن الأرض سريعًا .. أما لو بقيت فإن هناك أملاً فى أن يعود نور الشمس عندما تنقشع الغيوم .. لماذا ظل الظلام عشرين عامًا هنا ؟ لأن هذا القومندان ورجاله مستمرون فى تخليق السحابة السوداء .. هذه الأبراج تقوم بهذا الغرض .. لقد جعلهم الظلام سادة يسيطرون على الناس سيطرة مطلقة .. معنى عودة النور أن تزول سلطتهم ويستغنى عنهم الآخرون .. »

كانت عيناه تتسعان رعبًا وهو لا يصدق .. أن يستغل البعض الكارثة فهذا شىء ، وأن يخلق أحدهم كارثة فهذا شىء آخر ..

قلت مواصلاً الكلام :

ـ « من الواضح أن هذا الغبار له كثافة معينة تسمح له بأن يهبط لأسفل .. تحت مستوى القومندان .. ويظل معلقًا فى

الهواء .. هكذا يبقى الناس فى أرض الظلام كما هم .. خاضعين للسادة الذين يعيشون هنا .. هل رأيت الترف الذى يعيشون فيه ؟ لن يتركوا أحدًا يسلبهم هذا .. »

قال (فيتوريو) فى شىء من الانبهار :

ـ « أنت عبقرى .. »

قلت لاهثًا من البرد :

ـ « لست عبقريًا .. فقط أنا أول من رأى هذا المشهد .. »

ثم نظرت إلى الكابل الغليظ المتلوى على الأرض وغمغمت :

ـ « هذا الكابل يقود لقاعة الاحتفالات .. أريد أن أكون هناك الآن .. »

* * *

11 ـ الحفل ..

يتبادل الرجل مع صديقه عبارات المزاح وهما يمشيان فى الحديقة .. لا أعرف بأية لغة يتكلمان ، لكنهما لم يطيلا الكلام على كل حال لأن (فيتوريو) وثب من خلف الشجرة على أولهما فجندله أرضًا .. وقبل أن يصرخ الثانى كنت قد استجمعت ما فى جسدى من توتر وغضب وهويت بمقبض الكشاف على وجه الثانى ..

سقطا كحجرين لحسن الحظ .. وهكذا استطعنا أن نستبدل بثياب العمال ثيابهما .. كان من اخترته بدينًا لذا لم تكن ثيابه مريحة على الإطلاق وقد احتجت أن أمشى فاتحًا ساقى كى لا ينزلق البنطال ..

مغامرة يائسة لأن رئيس العمال سوف يكتشف غيابنا ، ولسوف يتذكر أننى مشيت وراء الكابل .. لو مشى وراء الكابل بدوره لوجد الضيفين المجردين من ثيابهما بسهولة ..

لكنى آمل فى أن أفعل ما أريد قبل أن يفتضح أمرى ..

أخفيناهما خلف شجرتين ، ثم مشينا متظاهرين بأعتى علامات السرور .. كأننا من أبناء هذا المكان المخضرمين .. دعوت الله ألا يكونوا يحفظون شكل بعضهم لكن (فيتوريو) قدر أن العدد كبير فلا يمكن ملاحظة اثنين ..

كنا الآن في القاعة الرئيسة التي تقترب مساحتها من مساحة ميدان التحرير ، فقط لو أن ميدان التحرير كان مضاءً بالثريا العملاقة وامتلأ بالقوم فاخري المظهر في ثياب السهرة ، وفرشت أرضه بسجاد سميك طري يذكرك بغابات الإستبس .. الخدم يركضون هنا وهناك ، وهناك مسحة من إضاءة خافتة تسمح بألا نبدو مريبين ..

همست له :

ـ « كل هذا الضوء والصخب بينما نحن نتحسس طريقنا في الظلمات .. لم يكن هناك عدل لكننا لم نتصور هذا .. »

قال :

ـ « لقد كانت خطوة التسلل ضرورية .. »

كنت أبحث بعيني عن (سلمى) .. لو وجدت (سلمى) لانتهت متاعبي .. سوف ألحق بها ونضغط الأزرار ونفر .. دع (فيتوريو) والضونيين يدبرون أمرهم فهم قاب قوسين أو أدنى من ذلك ..

سألته ونحن نمشي وسط الزحام :

ـ « لماذا لم تخططوا لاغتيال القومندان ؟ أنا لا أعرف أين هو لكن المشروع مغر .. »

ابتسم كأنما يسمع طفلاً يتكلم . كان هناك ساق يمر بقربه فمد يده ينتزع كوب عصير من على الصينية ، وقال :

ـ « ألم تفهم بعد ؟ »

ـ « نعم . لم أفهم .. »

قال وهو يفرغ الكوب في جوفه :

ـ « لا يوجد قومندان ! »

كدت أصرخ من الانفعال ، ثم استجمعت أعصابي وسألته :

ـ « ماذا تعني ؟ »

– « القومندان هو كل هؤلاء .. تلك الزمرة الحاكمة .. الجنرالات والعلماء القادمون من روسيا والصين وبعض الدول الأوروبية .. لقد قرروا أن يصنعوا لأنفسهم مجتمعًا مسيطرًا خاصًا بهم .. ولما كانت الشعوب ميالة إلى الفكرة المجردة ، ولدت صورة القومندان الذى كان راهبًا آتيًا من التبت .. فى الحقيقة لا وجود له .. لا وجود له على الإطلاق .. القومندان فكرة تربط هؤلاء لا أكثر .. »

– « والكلام عن النبوءة ، وكل ما يقال عن إجادته السحر .. إلخ .. »

– « كل هذا هراء يؤمن به الجميع حتى أعوانى من الضونيين .. ما لدى من معلومات يؤكد أن القرارات تصدر جماعية لكنهم يضعون عليها اسم (القومندان) .. »

فجأة دوى صوت الموسيقا ..

نظرت إلى المسرح العملاق الذى تقطعه أشعة الليزر من حين لآخر .. الدخان يتصاعد كأنه حفل زفاف ابنة خالتى .. مجموعة من الراقصات الغربيات يؤدين نوعًا من الباليه الإيقاعى وسط استحسان الجماهير ..

– « هناك على اليمين .. هذه (باولا) فتاتنا .. »

(باولا) راقصة تجيد عملها ..

فقط هناك على اليسار راقصة بلهاء بطيئة الحركة لا تجيد أداء دورها .. تتخبط وتتعثر وتوشك على أن توقع الصف بأكمله ..

كان من السهل أن أعرف (سلمى) من مسافة كهذه ..

رحت أشق الزحام نحوها .. سوف أدنو من المسرح وسوف ترانى .. سوف تتلاقى أناملنا .. ثم أضغط الأرقام السحرية .. أى شىء .. أية تركيبة .. المهم أن نرحل ..

أشق الزحام .. ثمة رجل عسكرى يجرى اتصالاً .. أمرُّ بجواره فأسمعه يتكلم بالإنجليزية .. أسمع جملة مما يقول :

– « الراقصة الثالثة على اليسار .. أريد معلومات كاملة عنها .. هذه لا تعرف شيئًا عن الرقص ! »

هكذا أركض بسرعة نحوها .. أقف تحت المسرح وألوح بيدى ..

إنها لا تراني .. البلهاء .. إنها تنظر لقدميها خائفة من أن تتعثر ..

ارفعي عينيك قليلاً .. انظري لي .. لو كنت جوارك الآن لحطمت رأسك ..

في اللحظة التالية سمعت ضوضاء من خلفي ..

أرى ضابطين يشقان الصفوف نحونا .. أحدهما يشير لها .. والآخر يشير لي !

وسمعت من يقول بالإنجليزية :

ـ « وهذا .. ليس منا على الإطلاق .. ألم تفهموا بعد يا حمقى ؟ إنهما متشابهان ! إنهما توءمان !! »

* * *

12ـ الرحيــــل ..

دوى الصراخ من كل مكان وسمعت من يصيح :

ـ « الكمبيوتر قال إن نسبة التماثل بين ملامحهما 97٪ ! أنتم تعرفون أنه يدرس ملامح كل من يدخل هنا من ذكور وإناث ! »

وقال آخر :

ـ « كيف يصلان لهذا المدى ولم يلحظ أحد إلا الآن ؟ سوف تطير رءوس كثيرة مهملة ! »

حديث غاضب بالروسية .. بالألمانية .. بالصينية .. بالفرنسية ..

لم أنظر خلفي ..

وثبت إلى المسرح في اللحظة التي سمعت فيها طلقة رصاص تمر جوار رأسي .. ثم صاح أحدهم :

ـ « لا تقتلوهما ! يجب أن يظلا حيين للاستجواب ! لا مفر لهما من القاعة .. »

وكنت الآن على المسرح أحاول النهوض بينما (سلمى) تركض نحوى صارخة :

ـ « ماذا فعلت يا أحمق ؟ »

الفتيات يصرخن والمسرح يخلو بسرعة جنونية ..

تشبثت بساقها وباليد الأخرى رحت أضغط على أزرار الجهاز .. (221 ـ ب ـ 1) ..

ـ « امنعوه ! إنه يحاول تفجير عبوة ناسفة بالريموت ! »

وطلقة أخرى تخطئ هدفها .. هذه آخر طلقة تفعل ذلك .. لن يظلوا حمقى للأبد ..

هيا .. مفتاح الإدخال ..

وسرعان ما تلاشت قاعة الاحتفال من حولنا ..

* * *

عندما تم التجسدُ من جديد وجدت أننا نقف فى ..

فى قاعة واسعة تذكرك بتلك القاعات الصناعية فى أفلام (جيمس بوند) .. هناك ما يشبه المولد العملاق .. هناك سقف عال جدًا فيه طاقة نرى منها السماء .. هناك سلم معدنى يتلوّى قادمًا من أسفل .. هناك غرف جانبية عليها علامات إنذار التلوث النووى وخطر الموت .. هناك مصعد عملى جدًا يناسب المناجم والمصانع ..

الإضاءة خافتة زرقاء معتمة جدًا ..

هناك باب كتب عليه بالإنجليزية (التحكم ـ ممنوع الدخول لغير الفنيين من رتبة ألفا) وقد كررت العبارة بلغات أخرى هى الروسية والصينية ـ قد تكون اليابانية ـ والألمانية ..

أين نحن ؟

كانت هناك شاشات متناثرة .. شاشات تومض وتنطفئ بلا توقف ..

كدت أتكلم لكن (سلمى) ضغطت على ساعدى وأشارت لشاشة من الشاشات ..

رأيت على الشاشة وجهى ووجه (سلمى) كما بدونا عند النزول من الطائرة على الأرجح .. صور ثابتة تم التقاطها لنا ونحن لا نعلم ..

ودوى صوت المعلق يقول :

ـ « هاربان .. يجب البحث عنهما فى القلعة كلها.. »

ودوت صفارة إنذار متقطعة مقلقة من الطراز الذى يجعل أعصابك تتآكل ..

قلت لها :

ـ « ما معنى هذا ؟ نحن لم نرحل .. ما زال الموقف كما هو وهم يبحثون عنا .. »

كانت صامتة تتأمل المفاتيح ، وقد قطبت جبينها ثم قالت :

ـ « هل تلف الجهاز ؟ لا .. »

ثم تذكرت شيئاً فأضافت :

ـ « أنت من اختار الأرقام .. بالتأكيد أنت اخترت رقماً استعملناه من قبل .. »

ـ « لا أذكر .. لكن لنفترض أن هذا حدث .. »

ـ « د. (محمود بكر) مخترع ناقل الجزيئات حذرنى من الضغط على نفس الرقم مرتين ، لأنه لا يؤدى للانتقال إلى عالم آخر .. فقط هو ينقلك إلى موضع آخر من ذات العالم .. أعتقد أن هذا ما فعلته أنت .. لم نغادر الكوكب لكننا انتقلنا بضعة أمتار فيه .. غرفة تحكم و .... »

ثم شهقت فى انبهار :

ـ « هل تعرف ما أفكر فيه ؟ نحن فى داخل أحد الأبراج الكبرى .. »

قلت لها :

ـ « بالمناسبة .. لا أعتقد أنك تعرفين ما أعرفه .. هذه الأبراج هى .. »

ـ « هى التى تبقى سكان الأرض فى ظلام .. لقد استنتجت هذا .. كنا فى الخارج عندما رأيناها تعمل .. »

ـ « إذن دعينا نرحل بالله عليك .. أعيدى اختيار أرقام أخرى .. »

قالت فى شرود :

ـ « نعم .. سنفعل ذلك .. لكن أرى أننا فى وضع يتيح لنا مساعدة هؤلاء القوم .. ما كنا لنصل داخل أحد هذه الأبراج بسهولة .. نحن الآن بالداخل .. ما رأيك فى عملية تخريب ؟ »

ـ « هل هى كافية ؟ »

ـ « لا .. لكن قسطًا من نور الشمس قد يتسرب لأهل الأرض .. ومعه قسط من الحقيقة .. »

وقبل أن أعترض مدت يدها تفتح ذلك الباب الذى كتب عليه (التحكم ـ ممنوع الدخول لغير الفنيين من رتبة ألفا) .

كانت الغرفة خالية تمامًا فيما عدا بعض الشاشات المضيئة وعدد من الروافع والأزرار .. إما أنهم يبحثون عنا وإما أن التحكم آلي تمامًا هنا ..

ـ « وإما أنهم واثقون من أن أحدًا لن يدخل هذه المنشأة .. »

قالت لى :

ـ « تقول إنك أخرق .. هيا برهن لنا عن ذلك ! »

هكذا انطلقنا نعبث فى الروافع .. لم نبق رافعة فى وضعها السابق .. لم نترك زرًا إلا ضغطناه .. لم نجد محولاً كهربيًا إلا حطمناه .. انتزعنا كل سلك وقابس .. الشاشات هشمناها .. بدأ الظلام يسود المكان ..

جهاز إنذار يدوى من مكان ما ..

فجأة انغلق باب الحجرة علينا .. إنه يعمل بشكل أوتوماتيكى إذا حدث تخريب ، ومن مكان ما دوى صوت آلى رتيب :

ـ « فشل عام فى النظام .. توقف لآليات الإظلام .. فشل عام فى النظام .. توقف لآليات الإظلام .. »

كان هناك من يصيح فى الخارج .. صوت طلقات .. كلمات عصبية تقال ..

لقد عادوا .. لا أعرف ما أحدثناه من ضرر لكنه كبير يا (سلمى) .. إنهم قد فقدوا أعصابهم ..

قالت وهى تمسك بيدى :

ـ « الظلام يعم .. من الحكمة أن نرحل الآن .. »

وضغطت الأزرار وهى تمسك بيدى ..

فى اللحظة التى بدا أن هناك من يقتحم الباب ..

لكننا كنا قد ذبنا فى عالم اللانهائيات ..

* * *

كنت جالسًا إلى مكتبى أدون المغامرة الأخيرة عندما جاءت (سلمى) وفى يدها ورقة والجهاز ناقل الجزيئات . وانتظرت حتى فرغت من السطر الذى أكتبه ، ثم قالت :

ـ « كنت أشك فى شىء ما .. لهذا قمت بتفريغ شريحة ذاكرة الجهاز التى تحتفظ بالأرقام التى طلبناها .. »

ثم راحت تراجع الأرقام وهى تشطب على الورقة بقلم رصاص :

ـ « هذه هى أول عملية انتقال فررنا بها من قسم الشرطة .. هنا العملية التى فررنا بها من أرض بلا فراعنة .. وهذه كنا فى أرض المغول .. ثم فررنا .. هنا فرارنا من أرض العظايا .. أما هذا الرقم فيمثل فرارنا من الديناصورات .. فرارنا من الحفل فى أرض الظلام .. ثم فرارنا من البرج .. »

ثم وضعت القلم بين شفتيها ، وقالت :

ـ « لم يتكرر أى رقم ! »

صحت فى دهشة :

ـ « يا سلام ! ولماذا لم نغادر كوكب الظلام عندما ضغطت أنا أزرار الجهاز ؟ »

قالت فى خبث :

ـ « غادرناه فعلاً ! الحقيقة أننا كنا فى كوكب آخر يقوم الطغاة فيه بحكم باقى البشر من قلعة فوق جبال الهيمالايا ! »

ـ « عم تتحدثين ؟ »

ـ « هذه هى الحقيقة ! الكوكب الذى دمرنا أجهزة الإظلام فيه هو كوكب آخر يمر بذات الظروف ! وقد تجسدنا على بعد أمتار بدلاً من أن نتجسد فى الحقل ! »

صحت فى ذهول وأنا أضرب المنضدة بيدى :

ـ « هذا يعنى أننا لم نقدم أية خدمة لـ (فيتوريو) و(سليم) والآخرين .. »

قالت باسمة :

ـ « على الأقل هم يعرفون أين يوجهون ضربتهم عندما يقررون الضرب .. عندما تزول الغمامة ويصل نور الشمس إلى الأرض سيثور الناس ضد من استلبوهم حقهم فى النور .. »

ثم أضافت فى خبث :

ـ « ولا تنس أننا قدمنا هذه الخدمة لكوكب آخر فى مجرة أخرى ! »

رحت أنظر لها فى حيرة .. إن الصداع يغزو رأسى بحق ..

ـ « لو كنت تعتقد أن الكون معقد وعسير الفهم ، فعليك أن تبتلع بعض أقراص الصداع لأن الأمور سوف تزداد سوءًا .. »

قالها عالم الفلك الأمريكى (مايكل تيرنر) ، ويبدو أنه لا يعرف كم هو محق ودقيق ..

لا نعرف متى سنجرؤ على ضغط الأزرار من جديد .. حتى هذه اللحظة استعملنا الجهاز كوسيلة فرار من وضع خطير ، وبما أننا فى حالة استقرار حالية ، وبما أنه لا يمكن طلب ذات الرقم مرتين ، فإننى أعتقد أننا لن نخاطر بترك هذا العالم المستقر .. وأعتقد أن فترة استقرارنا ستطول ..

دعك من أن السفر بين العوالم الموازية قد يكون خطرًا بالنسبة لسيدة حامل !

* * *

خـاتمـــة

من جديد يعود د. (رفعت إسماعيل) ليودعكم ..

أرجو أن تكون القصة قد راقت لكم ..

عالم جديد من العوالم الكابوسية التى لم يكف الأخ (سالم) و(سلمى) عن ارتيادها ، وفى كل مرة أشعر أن عالمنا رائع الجمال ..

كما قال فى نهاية رسالته : لا نعرف متى سنجرؤ على ضغط الأزرار من جديد .. حتى هذه اللحظة استعملنا الجهاز كوسيلة فرار من وضع خطير ، وبما أننا فى حالة استقرار حالية ، وبما أنه لا يمكن طلب ذات الرقم مرتين ، فإننى أعتقد أننا لن نخاطر بترك هذا العالم المستقر .. وأعتقد أن فترة استقرارنا ستطول ..

هذا صحيح .. لم يجربا الجهاز للسياحة قط وإنما للهرب ، أى إنهما استعملا مزايا الجهاز السلبية لا الإيجابية .. ألا تكون هنا بدلاً من أن تكون هناك ..

الخبر الجديد الطريف هو أن مدام (سلمى) تنتظر حدثًا سعيدًا .. بالفعل أعتقد أن هذه المغامرة عنيفة بالنسبة لحامل .. ولربما يومًا ما تكون المغامرات ثلاثية ..

عالم بلا شمس .. عالم من الظلام .. هذا عالم لا يناسبنى حتمًا ..

صبرًا .. لقد انقطع التيار الكهربى فى هذه اللحظة بالذات .. لكننا نحتفظ بالأمل ..

لربما تعود الكهرباء .. ربما تشرق الشمس مرة أخرى .. ربما يكون هناك غد ..

* * *

فى القصة القادمة أحكى لكم عن خبرتى مع نادى الغيلان .. إن الأندية تتعدد .. ومجالات اهتماماتها تختلف .. لكن ما هى اهتمامات نادٍ للغيلان بالضبط ؟! يمكنك أن تتخيل !

ولكن هذه قصة أخرى .

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والإثارة

أسطورة أرض الظلام

أفكر أننا في ممر الجرذان ..
حيث فقد الموتى عظامهم ..
أية ضوضاء هذه ؟
إنها الريح تحت الباب ..
« وما هذه الضوضاء الآن ؟ .. ماذا تفعل الريح ؟ »
لا شيء .. نعم لا شيء ..
« ألا ترى شيئًا ؟ .. ألا ترى شيئًا ؟
ألا تذكر شيئًا ؟ »

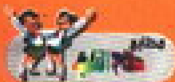
(ت. س. إليوت)



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم

أسطورة نادي الغيلان



المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن في مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم